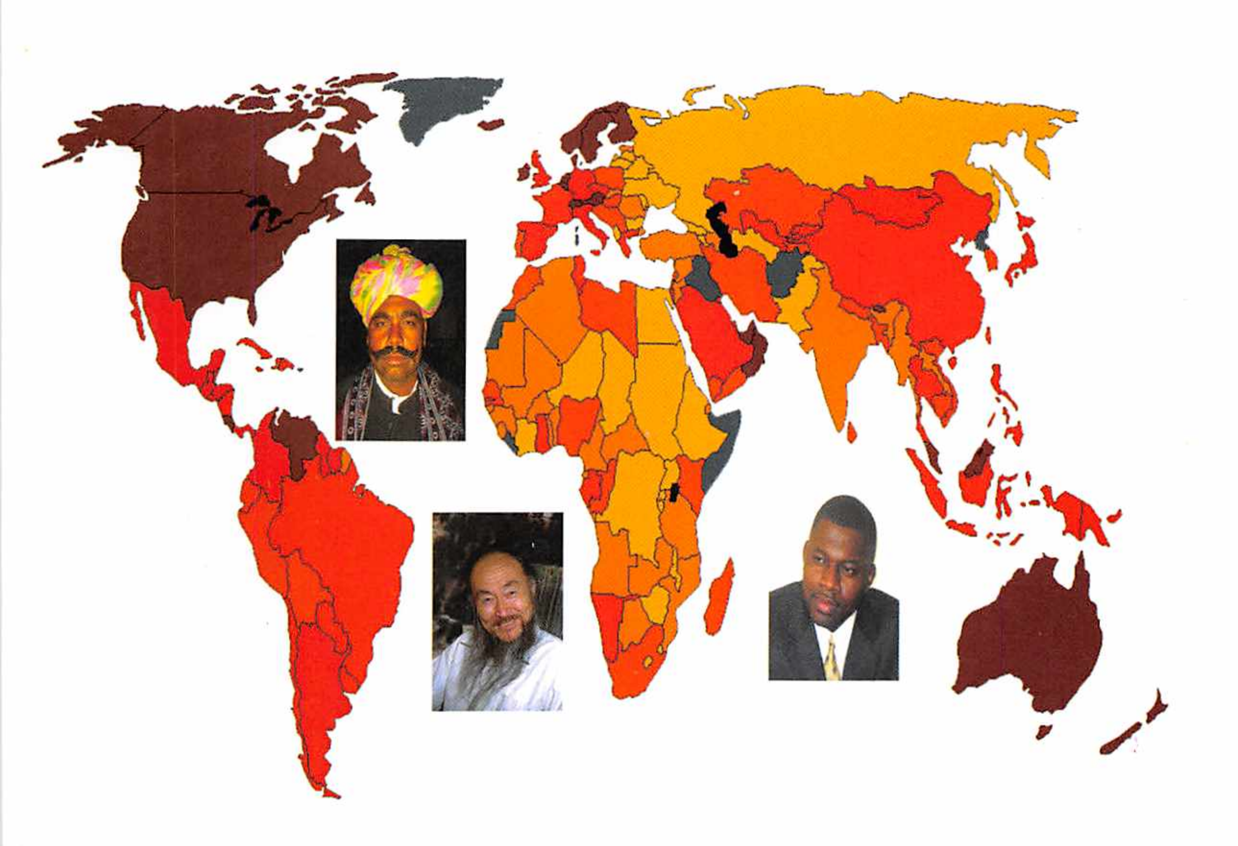
ثقافة

قبول الآخر

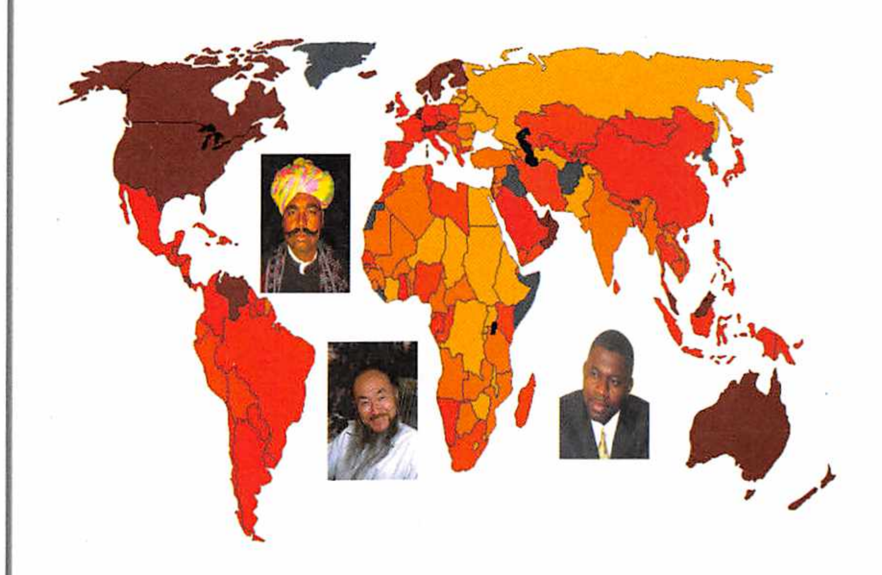


ممدوح الشيخ

مكتبة جزيرة الورد

ثقافة

قبول الآخر



ممدوح الشيخ

مكتبة جزيرة الورد

مكتبة الإيمان
بالمنصورة
أمام جامعة الأزهر ت: ٠٥٠_٢٢٥٧٨٨٢



ثقافة

قبول الآخر

"يَجِبُ ألا نفترض أننا مستقيمون، وأعداؤنا أشرار"

المؤرخ البريطاني دافيد أندرس

ممدوح الشيخ

مكتبة الإيمان - المنصورة

ت : ٢٢٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

رقم الإيداع
2007/11359
الترقيم الدولى
977 - 290 - 381 - 4

إهداء

إلى المفكر الكبير بحق ....

صاحب الصوت الهادئ العميق

الأستاذ الدكتور حازم الببلاوي

مقدمة

لأول وهلة يبدو تعبير "قبول الآخر" غريبا على الأذن ولأسباب سياسية يتسرع كثيرون في تصنيفه في خانة مساعي "علمنة" العقل المسلم ، والحقيقة التي يكشف عنها التدقيق أن القضية تهم كل من يدين بدين سماوي وأن ما يحيط بها من غموض أو سوء ظن ليس إلا نتيجة للتقاطع مع بعض الأجندات الثقافية القادمة من الخارج وهو واقع لا مفر من الاعتراف به ، لكن "الحكمة ضالة المؤمن" أينما وجدها فهو أحق بها ومثل هذا التشابه أو حتى الاتفاق لا يعني رفض الدعوة لقبول الآخر ، لمجرد صدورها عن غيرنا فديننا يعلمنا أن "نعرف الرجال بالحق" لا أن نعرف الحق بالرجال ، بل المعيار عند التقييم ينبغي أن يكون معيارا شرعيا في المقام الأول وإنسانيا في المقام الثاني منضبطا بما أحله الله وبما حرمه .

وقبل الولوج إلى مناقشة قضية "ثقافة قبول الآخر" نلزم أنفسنا بقيد نراه موضوعيا هو ألا نناقش المفهوم تحت وطأة مشاعر محتقنة فالمثقف رائد وكما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم فإن "الرائد لا يكذب أهله" ، ولا يجوز أن ينطق بما لا يراه حقا خوفا من "الناس" فالمجتهد أيا كان مجال اجتهاده لا يجوز أن يخاف أحدا إلا الله . وقد أفاض العلماء والمؤرخون قديما وحديثا في تحذير كل حامل قلم من الخوف من السلطان ولدينا تراث عظيم في هذا السياق يمكن أي يمنح كل من يرهبه سيف السلطة القدر الكافي من التسلح بالثقة في الله ومن ثم الشجاعة ليجهر بالحق غير هياب من الحاكم ، غير أن الخوف من الناس كان - ولم يزل - من القيود الخطيرة على حركة الاجتهاد والتجديد ولعل خطورته تكون مضاعفة إذا أدركنا حجم التأثير الذي أصبحته تملكه وسائل الإعلام في الناس ومن ثم أصبح كل مجتهد يكتب ونصب عينيه - ولو بشكل مضمر - صورته في هذه المرآة اللامعة

التي يمكن أن تتحول إلى نصل حاد في أية لحظة!

بل لا نبالغ إذا قلنا إذا إن الخوف من الناس أصبح أشد وطأة من الخوف من السلطة في الكثير من القضايا السياسية والثقافية ، ومن النماذج النادرة في تراثنا الفقهي الإسلامي التي تحدث فيها كاتبها عن سلطة "الجماهير" وتأثيرها في المجتهد ما كتبه العلامة للعلامة أبي إسحاق إبراهيم بن موسى المعروف بالشاطبي في كتابه "الاعتصام": يقول الشاطبي في "خطبة الكتاب":

"وكل صاحب مخالفة فمن شأنه أن يدعو غيره إليها، ويحض سؤاله بل سواه عليها، إذ التأسي في الأفعال والمذاهب موضوع طلبه في الجبلة، وبسببه تقع في المخالف المخالفة، وتحصل من الموافق المؤالفة، ومنه تنشأ العدواة والبغضاء للمختلفين" .

ثم يقول: "وإنما قدمت هذه المقدمة لمعنى أذكره. وذلك أني ولله الحمد لم أزل منذ فتق للفهم عقلي ووجه شطر العلم طلبي، أنظر في عقلياته، وشرعياته، وأصوله وفروعه لم أقتصر منه على علم دون علم، ولا أفردت عن أنواعه نوعاً دون آخر، حسبما اقتضاه الزمان والمكان، وأعطته المنة المخلوقة في أصل فطرتي، بل خضت في لججه خوض المحسن للسباحة، وأقدمت في ميادينه إقدام الجريء، حتى كدت أتلف في بعض أعماقه، أو أنقطع في رفقتي، التي بالأنس بها تجاسرت على ما قدر لي، غائباً عن مقال القائل وعذل العاذل، ومعرضاً عن صد الصاد ولوم اللائم".

ويضيف الشاطبي: "وكنت في اثناء ذلك قد دخلت في بعض خطط الجمهور من الخطابة والإمامة ونحوها فلما أردت الاستقامة على الطريق، وجدت نفسي غريباً في جمهور أهل الوقت لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد، ودخلت على سننها الأصلية شوائب من المحدثات الزوائد، ولم يكن ذلك بدعاً في الأزمنة المتقدمة، فكيف في زماننا هذا.... فتردد النظر بين أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس فلا بد من حصول نحو مما حصل

لمخالفي العوائد، ولا سيما إذا ادعى أهلها أم ما هم عليه هو السنة لا سواها إلا أن في ذلك العبء الثقيل ما فيه من الأجر الجزيل وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال عائذاً بالله من ذلك، إلا أني أوافق المعتاد، وأعد من المؤالفين، لا من المخالفين، فرأيت أن الهلاك في أتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئاً، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت علي القيامة، وتواترت علي الملامة، وفوق إلي العتاب سهامه، ونسبت إلى البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة، وإني لو التمست لتلك المحدثات مخرجاً لوجدت، غير أن ضيق العطن، والبعد عن أهل الفطن، رقى بي مرتقى صعباً وضيق علي مجالاً رحباً، وهو كلام يشير بظاهره إلى أن اتباع المتشابهات، لموافقات العادات، أولى من اتباع الواضحات، وإن خالفت السلف الأول".

بل يرسم الشاطبي صورة مخيفة لسطوة "الجماهير" إذا وجدت من مجتهد ما لا يوافقها فيقول: "وربما ألموا في تقبيح ما وجهت إليه وجهتي بما تشمئز منه القلوب، أو خرجوا بالنسبة إلى بعض الفرق الخارجة عن السنة شهادة ستكب ويسألون عنها يوم القيامة

فتارةً نسبت إلى القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه كما يعزى إلى بعض الناس، بسبب أني لم ألتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة

* * * * *

وتارةً نسبت إلى الرفض وبغض الصحابة رضي الله عنهم، بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص، إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في خطبهم، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب

* * * * *

وتارةً أضيف إلي القول بجواز القيام على الأئمة، وما أضافوه إلا من عدم ذكري لهم في

الخطبة، وذكرهم فيه محدث لم يكن عليه من تقدم.

وتـــارة أحمل على التزام الحرج والتنطع في الدين، وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل على مشهور المذهب الملتزم لا أتعداه، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه، وإن كان شاذاً في المذهب الملتزم أو في غيره وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك

* * * * *

وتـــارةً نـــسبت إلى معاداة أولياء الله، وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخـــالفين للسنة المنتصبين بزعمهم لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتـــارةً نسبت إلى مخالفة السنة والجماعة، بناءً منهم على أن الجماعة التي أمر بأتباعها وهي الناجية ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون لهم بإحسان

* * * * *

وكذبوا علي في جميع ذلك، أو وهموا، والحمد لله على كل حال" .

ويـروي الإمـام الـشاطبي عن أحد كبار الحفاظ ما عاناه من هذا الباب فيقول: "فكـــنت علـــى حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه إذ حكـــى عـــن نفسه فقال: عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين، والعـــارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بها موافقاً أو مخالفاً، دعاني إلى متابعته على ما يقولـــه، وتصديق قولـــه والشهادة لـــه

فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت لـــه ذلك كما يفعله أهل هذا الزمان سماني موافقاً

وإن وقفت في حرف من قولـــه أو في شيء من فعله سماني مخالفاً

وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد سماني خارجياً

وإن قرأت عليه حديثاً في التوحيد سماني مشبهاً

وإن كان في الرؤية سماني سالمياً

وإن كان في الإيمان سماني مرجئياً وإن كان في الأعمال سماني قدرياً

وإن كان في المعرفة سماني كرامياً

وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر سماني ناصبياً

وإن كان في فضائل أهل البيت سماني رافضياً

وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما سماني ظاهرياً

وإن أجبت بغيرهما سماني باطنياً

وإن أجبت بتأويل سماني أشعرياً

وإن جحدتهما سماني معتزلياً

وإن كان في السنن مثل القراءة، سماني شفعوياً

وإن كان في القنوت سماني حنفياً

وإن كان في القرآن سماني حنبلياً

وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار - إذ ليس في الحكم والحديث محابـــاة - قالوا: طعن في تزكيتهم، ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون علي من أحاديـــث رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم ما يشتهون من هذه الأسامي، ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من الله

شـــيئاً. وإني مستمـــسك بالكـــتاب والـــسنة وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم".

ويعقب الإمام الشاطبي على هذه الحكاية بقولـه: "هذا تمام الحكاية فكأنه رحمه الله تكلم على لسان الجميع. فقلما تجد عالماً مشهوراً أو فاضلاً مذكوراً، إلا وقد نبذ بهذه الأمور أو بعضها، لأن الهوى قد يداخل المخالف".

وهـذه الدراسة تستهدف بحث قضية "ثقافة قبول الآخر" دونما خوف من حاكم أو محكـوم وبعـيدا عـن الـسياقات الخارجية التي تجعل بعض القضايا مصدر خوف لبعض أصحاب الأقلام فقهاء كانوا أو مفكرين، فالحق أحق أن يتبع.

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل.

والله من وراء القصد

ممـــدوح الشيـــخ

قويسنا في

العشرين من ربيع الآخر ١٤٢٨ هجرية

الثامن من مايو ٢٠٠٧ ميلادية

* * * * *

الباب الأول:
ثقافة رفض "الآخر"

الفصل الأول:

ثقافة رفض "الآخر"

في القرآن الكريم

طرحت ثقافة قبول الآخر نفسها بقوة على الثقافة الإنسانية خلال العقود القليلة الماضية ثم صعدت لواجهة المشهد خلال السنوات القليلة الماضية غير أن ثقافة قبول الآخر ما كان لها أن تتجذر في غياب دراسات جادة عن ثقافة رفض الآخر التي شاركت بنصيب وافر في تحريك التاريخ البشري خلال القرون الخمسة الماضية التي أعقبت اقتسام الأمريكتين واستراليا بين القوى الاستعمارية الأوروبية الكبرى حيث بدأت البشرية فصلا ممتدا من الصراع على الأرض والموارد وتدافعا لنشر القيم الثقافية لكل أمة بوصفها "الحضارة" وعندئذ كانت الثقافة التي تتعرض للاقتلاع والإبادة توصف بأنها حضارة "الآخر" وتم وصفها بكل ا هو سلبي وسعت كلا أمة في الغرب إلى التمركز حول شارة مميزة: دين، مذهب، قومية، لغة . . . . لتعرف نفسها من خلالها معتبرة أنها مرتكز الهوية التي تعرف "الأنا" وبالتالي تعزل بها نفسها كل من لا يحمل شارتها وهو "الآخر".

وهناك مداخل عدة يمكن الدخول منها لمناقشة "ثقافة رفض الآخر" كنقيض لثقافة "قبول الآخر":

الأول: أن نعرف الكلمات الثلاث (ثقافة - رفض - الآخر) لغة ونتتبع ما كتب فيها في المصادر المتاحة - ومعظمها غربي - ومن ثم نبدأ طريقنا ونحن نسلم بأننا سنكون ضيوفا على ثقافة أخرى. وغاية ما يمكن تحقيقه آنذاك أن نجتهد لرصد نقاط اتفاق واختلاف شكلية، وغالبا يقود هذا إلى مسارات غير مثمرة إذ تتوزع الكتابات بين: النقد المتشنج، والتلفيق المضحك، والغرق في القضايا الأكاديمية الشكلية، دون حصاد يذكر.

الثاني: أن نغلّب إحساسنا بالقهر والظلم الذي عانيناه على يد القوى الغربية المختلفة على عقولنا ونضع المفهوم كله في سياق "تآمري" ونغلق باب النقاش

"بالضبة والمفتاح" قبل أن يبدأ ، وكفى الله المؤمنين القتال .

الثالث: وهو ما اخترنا أن ندخل منه أن نتناول المفهوم انطلاقا من تأصيله عقديا وشرعيا أولا ، واضعين كل ما لدى الغرب بشأنه من مفاهيم وتجارب في مكانه الصحيح - دون تهوين أو تهويل - في سياقه التاريخي والثقافي الصحيح بوصفه تعبيرا عن "جزء من العالم" ، ذلك أن "ثقافة قبول الآخر" ليست منتجا غربيا حتى لو كان الغربيون أسبق في بلورة المصطلح بمنطوقه الحالي .



أنا خير منه

كانت قضية "الآخر" من مفردات مشهد الخلق الأول عندما خلق الله آدم عليه السلام ولنبدأ القصة من أولها ، ففي المشهد الأول رب العزة سبحانه وتعالى يخبر الملائكة أنه سيخلق "خليفة" ، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾. (سورة البقرة).

والخليفة الذي أخبر الله ملائكته أنه سيجعله في الأرض هو "الآخر" الذي طرأ على عالم فيه نوعان من الخلق: ملائكة مفطورون على الطاعة لا يعصون الله ما أمرهم وجن مكلفون ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (سورة الكهف ٥٠) وبالتالي فإن إبليس هذا الجن المكلف السابق في الوجود على آدم كان يريد أن يكون هو وقبيله الوريث الوحيد المحتمل للجنة ، فهو دون "منافس" كان بين الملائكة ورب العزة يستثنيه منهم "إلا إبليس" ، ثم يخبر أنه من الجن .

ورفض إبليس السجود لآدم إلى جانب كونه معصية لرب العالمين هو أول موقف رفض لـ "الآخر" وإبليس عندما رفض آدم برر ذلك بأنه خير منه ، يقول رب العزة مخاطبا بني آدم:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف).

وفي سورة الإسراء: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

وفي "سورة ص" تكشف الآيات عن مزيد من العبر والدلالات المهمة في قصة الاسكتبار الإبليسي، قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (سورة ص).

وما يلفت النظر هنا أن رب العزة في حواره مع إبليس لم ينسب لأدم من فضل إلا أنه سبحنه وتعالى خلقه بيديه وبالتالي فإن رفض إبليس السجود ه إنما هو تمرد على الخالق لا المخلوق ولم يقطع رب العزة بأن إبليس تمرد بسبب الكبر - وهو سبحانه وتعالى أعلم به - قال ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾.

وحسب الأستاذ عباس محمود العقاد فإن "الشيطنة" يمكن تلخيصها في صفات: الكبرياء والعصيان والحسد والكراهية والباطل والخداع، فالكبرياء افتئات على

مقام الإله والحسد إنكار لنعمته واعتراض على تقديره، والكراهية صفة قد يتصف بها الأبرار حينا بعد حين إذا كانت كراهية هذا العما البغيض أو لذلك المخلوق الدميم، ولكنها إذا كانت قوام الطبيعة كلها فهي صفة هادمة غاشمة تناقض الصفة الإلهية في تاصميم وهي الحب ولوازمه من البر والإنعام، أما الباطل والخداع فهما نقيض الحق ونقيض الاستقامة ونقيض الخلق على الصدق والسواء.

وهنا نتوقف.. لنرصد أهم ملامح المشهد:

١ - هذه أول حادثة تقسيم بين المخلوقات المختارة المكلفة يتمركز فيها طرف حول "الأنا" وهو إبليس (خلقتني) ويضع فاصلا بينه وبين "الهو" وهو آدم عليه السلام (خلقته).

٢ - إبليس رفض السجود لآدم وبرر ذلك بأنه خير منه.

٣ - في نظر إبليس نفسه فإن مبرر استحقاقه لوصف "الأفضل" هو المادة التي خلق منها كل منهما، وقول إبليس يعني أن المواد في الكون تتفاضل من حيث أصلها، ويعني أيضا أنها مُرتَّبة في ترتيب تنازلي النار فيه خير من الطين، وكلها ادعاءات لا يسندها الدليل، وهي الأساس النظري لكل المقولات العنصرية التي ظهرت في الفكر الإنساني.

٤ - رب العزة سبحانه وتعالى حكم على إبليس بسبب هذا الموقف بأنه "متكبر" وقضى بإخراجه من الجنة.

وأهم ما في هذا المشهد من عبر أن إبليس المكلف الذي يعرف أنه مخير وأنه ارتقى بقدر ما كان طائعا لله سبحانه وتعالى ربط الخيرية في ذاته بأمر ليس مكتسبا وليس مدار اختيار وهو المادة التي خلق منها، وتلك إرادة الله التي لا فضل له فيها لا هو ولا آدم، فلا هو اختار أن يكون مخلوقا من نار ولا آدم اختار أن يكون

مخلوقا من طين ، وهنا يأتي "الكبر" ، فمن كان أفضل بسبب ما خلق منه فليس به حاجة لكي يحافظ على أفضليته وخيريته لأن يفعل الخير أو يتجنب الشر لأن الخيرية هي في أصل مادته .

في المشهد التالي يفعل الكبر فعله وتظهر أخطر سمات ثقافة "رفض الآخر" وهي الانشغال بتدمير "الآخر" أو إضلاله عن تحقيق النجاة لـ "الذات" ، فإبليس عندما أبى السجود وأخرجه الله بذلك من الجنة لم ينطق كلمة ندم أو توبة ولم يفكر فيما ينجيه هو من غضب الله بل توجه بكل تركيزه إلى هدف أملاه الكبر وهو حرمان "الآخر" من الجنة ، أي أن إضلال "الآخر" أصبح أهم من نجاة "الذات" . وقد نقل القرآن هذا الاختيار الإبليسي في مواضع عدة ، قال تعالى:

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (سورة الأعراف - ١٦)

وقال أيضا في سورة ص: "قال ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(ص ٨٢)

وفي سورة الحجر: ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٩)

وفي سورة الإسراء: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٦٢) .

وفي سورة النساء: ﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ (سورة النساء ١١٩) .

ودون أن يتوجه الإنسان بأي عداء نحو الشيطان أصبح الشيطان عدوا للإنسان:

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (سورة الأعراف ٢٢)

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (سورة يوسف ٥)

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُواً مُّبِيناً ﴾ (سورة الإسراء ٥٣)

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً ﴾ (سورة فاطر ٦)

﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (سورة الزخرف ٦٢)

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (سورة يس ٦٠)

وهذا التأصيل يكشف عن الكثير من الحقائق المهمة التي ستنير طريق دراستنا لثقافة قبول الآخر ، ففكرة التراتب بين الموجودات (كما في حالة الطين والنار) هي نفسها الأساس الذي ارتكزت عليه الثقافات العنصرية القديمة والحديثة فكلها افترض أن الفضل موروث وأنه مرتبط بالانتماء إلى جنس أو عرق أو لون بشرة مما لا سبيل لأن ينحاز إليه أحد باختياره ولا أن يكتسبه أحد باجتهاده .

وربط الخيرية بما لا يمكن اكتسابه موقف معاد لقاعدة التفاضل في الأديان السماوية معاداة تامة فالفضل دائما هو ما يمكن كسبه: الإيمان ، التقوى ، العمل الصالح . . . . وبالتالي فإن أشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي المغلقة التي تتمحور حول فئة ، كالعِرق في الفكر القومي والطبقة في الفكر الماركسي هذه الأشكال تكون أرضا جرداء غير قابلة لأن تنمو فيها "ثقافة قبول الآخر" .

* * * * *

التخلص من الآخر

وأخطر ما ترتب على ثقافة رفض الآخر انتهاك محرماته وصولا إلى استباحته أحيانا لمجرد أنه "الآخر" وهو ما سنمر عليه لا حقا عند التأريخ لثقافة "رفض الآخر" في عصور مختلفة . وتعد قصة أصحاب الأخدود النموذج الأكثر قسوة في القرآن الكريم لمرض "رفض الآخر" عندما يتحول إلى عملية استباحة شاملة يقول تعالى في سورة البروج: ﴿ وَالسَّمَاء ذَات الْبُرُوج * وَالْيَوْم الْمَوْعُود * وَشَاهد وَمَشْهُود * قُتلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود * النَّار ذَات الْوَقُود * إذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بالْمُؤْمنينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا منْهُمْ إلاَّ أَن يُؤْمنُوا باللَّه الْعَزيز الْحَميد * الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَات وَالأَرْض وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْء شَهيدٌ * إنَّ الَّذينَ فَتَنُوا الْمُؤْمنينَ وَالْمُؤْمنَات ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ (سورة البروج) .

ويروي الإمام مسلم في صحيحه حديث طويل عن قصة أصحاب الأخدود: فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَي بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِى النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ

جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ. فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ فَجِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ: لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ: لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ

فَقِـيلَ لَـهُ: أَرَأَيْـتَ مَـا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِـيهَا. أَوْ قِيلَ لَـهُ اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِـيهَا فَقَـالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ" . (صحيح مسلم حديث رقم ٧٧٠٣، وراجع أيضا سنن الترمذي حديث رقم ٣٦٦٣) .

فأصـحاب الأخـدود هـنا رمـز للإيمان الذي يحاصره الكفر فيكون هو "الآخر" الـمُضطهَد الواقع تحت قهر التضييق من التيار العام السائد .

وكـذلك كان لوط عليه السلام في قومه فعندما حاول عليه السلام أن يغير الاتجاه الـسائد في قومه الذي كان "الأنا" في قوم لوط وهو الشذوذ حاورهم بالحجة فلم يجدوا إلا الـتخلص مـنه ردا علـى الحجـة ، قـال تعالى: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۞ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (سـورة الـنمل) . فـ "جـريمة" نـبي الله لوط في نظرهم كانت أنه خارج عن السياق العام . . أي عـن السائد . . أي عن الأغلبية . . حتى لو كان السائد هو الفاحشة والشذوذ ، فعندئذ يصبح من يدعو للطهر هو الآخر الذي يجب التخلص منه!

غير أن مرض رفض الآخر يقترن في قصة لوط عليه السلام بالاستكبار وغرور القوة فما من أمة أو جماعة أصيبت بمرض الاستكبار إلا توجهت نحو الآخر بالأذى بدرجاتـه المخـتلفة وصـولا إلى الإبـادة ، ولم تكن القوة يوما في ميزان العدل الإلهي أثقل من الحق فهذا نبي الله لوط يطلق نفثة محزنة رغم ثقته في أن الله سينصره ، فهو لا يجـد غـضاضة في أن يقـر بـأنهم أقوى منه بمعايير القوة الدنيوية يقول تعالى على لسانه: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (سورة هود ٨٠) .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الآخر كمشكلة أخلاقية

وقد ربى الإسلام أبناءه على التحذير من الكبر والاستكبار وهو أمر له أهمية استثنائية في الإسلام حتى أنه يحرم من أصيب به من دخول الجنة ، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ". قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» (صحيح البخاري حديث رقم٢٧٥ ، وراجع أيضا حديث رقم ٢١٣٠) ، فإنكار الحق وظلم "الناس" من أعراض الكبر وكلاهما تربة تنمو فيها أمراض "رفض الآخر" .

وخرج الألباني في السلسلة الصحيحة (حديث رقم: ٥٤١): «**قال الله عز وجل الكبرياء ردائي والعزة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار**». (صحيح) . وورد بلفظ: «**العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني بشيء منهما عذبته**». أخرجه مسلم في صحيحه والبخاري في الأدب المفرد واللفظ له. وللحديث طرق أخرى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه قال: «**الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته**» (صحيح) . الكبر إذن منازعة لله سبحانه وتعالى في شيء من صفات ألوهيته وهو ما سنصادفه كثيرا عند استعراض نماذج رفض الآخر في الحضارات المختلفة وفي العصور المختلفة حيث كان التأله دائما صفة من يسكون هذا المسلك أفرادا كانوا أو جماعات أو دول وكذلك الثقافات .

وفي السلسة الصحيحة للألباني أيضا (حديث رقم ٢٧٨٥): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من فارق الروح الجسد وهو بريء من ثلاث دخل الجنة الكبر والدين والغلول**» ، وقال أيضا: (حديث رقم١٧٤١) «**إن أهل النار كل**

جعظري جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون» .

وتأتي قصة يوسف عليه السلام نموذجا مهما لثقافة "رفض الآخر" فأحيانا تقع جريمة استباحة الآخر لكونه حسب تصور من يستبيحه سبب إقصائه عن موقع الأفضلية حيث يعجز الرافض لقبول الآخر عن حيازة موقع الأفضل بجهده واكتسابه فيتصور أن "التخلص" من "الآخر" يحقق له ذلك . ولعل مشهد الختام في قصة هو المدخل الأفضل ، ففيه ينسب نبي الله يوسف ما حدث بينه وبين إخوته إلى الشيطان وهو ما يعيدنا إلى بداية هذا الفصل عندما أسس الشيطان ثقافة "رفض الآخر" .

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ (سورة يوسف ١٠٠) .

فإذا عدنا إلى سياق القصة كما وردت في سورة يوسف وجدنا يوسف عليه السلام محل اصطفاء إلهي ووجدنا أباه يحذره من الإعلان عن ذلك حتى لا يكيد له إخوته ومرة أخرى نجد الشيطان حاضرا بقوة ، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ (سورة يوسف)

وفي هذا النموذج من نماذج رفض الآخر نجد الكثير مما يجب التوقف عنده:

أولا: نبي الله يعقوب كان يخشى "منهج الشيطان" الذي يقوم على "رفض الآخر" وإنكار أحقيته في التميز وفي أن يكون أفضل وكان يتوقع أن يكيد إخوة يوسف عليه السلام له .

ثانيا: إخوة يوسف عليه السلام لم يروا في حب نبي الله يعقوب ليوسف وأخيه إلا ضلالا ولم يتحرجوا من وصفه بذلك .

ثالثا: كما اعتبر إبليس أن كونه مخلوقا من نار سببا لأن يكون أفضل من آدم عليه السلام وهو تمييز لا يقبله العقل ويقوم على التحكم والأنانية والغرور فإن إخوة يوسف رأوا أن اجتماعهم سبب يبرر أن يعتبروا أنفسهم أفضل من يوسف عليه السلام وأنهم أحق بحب أبيهم ، وهو الآخر مبرر للفضل لا يقبله العقل .

رابعا: إخوة يوسف لم يفكروا في مبررات مكتسبة للفضل أخلاقية كانت أو تعبدية بل اعتبروا أنهم سيكونون في وضع أفضل إذا تخلصوا من يوسف عليه السلام حتى يخلو لهم وجه أبيهم . بل إنهم كانوا على قناعة بأنهم سيكونون بعد التخلص منه "قوما صالحين"!

وبالتالي فإن ثقافة "رفض الآخر" لا تخلو من ضلالات يسوغها الشيطان وترفضها الفطرة كما يرفضها العقل .

وفي ثقافة "رفض الآخر" فإنه يكون موضوع استباحة شاملة تشمل خداعه وإضلاله ورفض الاحتكام لمعايير أخلاقية معه ، وفي صراع إبليس مع آدم كان رب العزة قد وضع لآدم عليه السلام قانونا للحياة ، قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (سورة البقرة) . وفي

سورة الأعراف يخبرنا القرآن بتفصيل أكثر ويكشف عن حقيقة المنهج الأخلاقى لإبليس في تعامله مع الآخر على قاعدة الاستباحة ، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (سورة الأعراف).

ولنتأمل الآيات ، فالله سبحانه وتعالى غضب على إبليس لأنه "متكبر" وإبليس لم يطلب سوى "فرصة للتحدي" ﴿ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ولم تكن الفرصة ليتوب أو ليثبت لرب العزة أنه من خلال فعل الخير أفضل من آدم بل جعل همه الوحيد أن يثبت أن آدم لا يستحق التكريم ، ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وبتعبير أوضح: بدلا من أسير

"أنا" في طريق الخير سأستدرج "الآخر" إلى طريق الشر!

والآيات تفضح حقيقة المنهج اللاأخلاقي لإبليس، قال تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ (سورة النمل ٢٤)، وهذا في شأن قوم سبأ، ويقول تعالى: ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ (سورة العنكبوت ٣٨)، ويقول تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (سورة الأنفال ٤٧) إنها ثقافة الاغترار بالنفس والاستكبار، والشيطان دائما "يزين" للمخدوعين أعمالهم.

ويشير القرآن الكريم إلى حالة من حالات الملاحقة والمحاصرة يقوم بها إبليس منذ خلق الله آدم، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾، وحتى يسقط آدم في خطيئة المعصية بدأ إبليس أو معاركه بسلاح "الوسوسة": ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾، وسمى الوسوسة "نصحا"، يقول صاحب "القاموس القويم للقرآن الكريم": "أقسم: حلف...... وقاسمه: أقسم له" ثم يورد الآية ويقول: "أي إن الشيطان أقسم لآدم وحواء قائلا إني لكما لمن الناصحين" فقد أقسم وأكد قسمه باللام إمعانا في التضليل، ودغدغ في نفسيهما التوق الإنساني إلى الخلود والملائكية.

وجميعها منابع "لثقافة رفض الآخر" في صورتها الحديثة كما سنرى في موضع لاحق.

وفي سورة الإسراء: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾، يقول صاحب "القاموس القويم للقرآن الكريم": "احتنك فلانا: استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز كأنه وضعه في

حـنكه فـلا يفلـت منه" ثم يورد الآية ويقول: "أي لأملكن أمرهم وأستولي عليهم فلا يعـصون أمري" . واستيلاء الشيطان على فئة من الناس حقيقة قرآنية والسمات التى يكـشف عـنها القـرآن في هـؤلاء هـى نفـسها سمـات المـنهج الأخلاقـى للـشيطان: ﴿ وَيَحْلِفُـونَ عَلَى الكَذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . . . . ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَـصَدُّوا عَن سَبِيل اللَّه ﴾ . . . . وهم لا يرتكبون هذا الجرم بحق "الآخر" الناس بل سيفعلون ذلك أمام الله سبحانه وتعالى في الآخرة: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَميعاً فَيَحْلفُونَ لَـهُ كَمَـا يَحْلفُـونَ لَكُمْ ﴾ . . . . ﴿ استَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذكْرَ اللَّه ﴾ (سورة المجادلة ٤١ - ٢٠) .

وقد قامت التصورات السياسية الشمولية بدور خطير في السيطرة على الإنسان ووضعه تحت حصار خانق عبر آليات سياسية واقتصادية تم إخفاؤها وراء مقولات وطنية أو تنويرية تماما كما سمى فعل إبليس عندما سمى "الإضلال" نصيحة ، وهى من التجليات السياسية لمفهوم الاستحواذ والاستيلاء الذي توعد به إبليس .

ويمكننا أن نحدد أهم سمات ثقافة "رفض الآخر" على النحو التالي:

١ - ثقافة استئثار أناني بالخير .

٢ - تـربط الخـير غالـبا بمقـومات غـير قابلـة للكسب حتى تحصرها في "الأنا" وتحـرم مـنها الآخر . وفي مثال إبليس كان هناك ربط الفضل بالتفاضل المزعوم بين الطـين والـنار ، وبـذلك ربـط الخيرية في ذاته بأمر ليس مكتسبا وليس مدار اختيار وهو المادة التي خلق منها وتلك إرادة الله التي لا فضل لـه فيها لا هو ولا آدم ، فلا هـو اخـتار أن يكـون مخلوقا من نار ولا آدم اختار أن يكون مخلوقا من طين ، وهنا يأتـي "الكـبر" ، فمن كان أفضل بسبب ما خلق منه فليس به حاجة لأن يفعل الخير أو يتجـنب الشر لأن الخيرية هي في أصل مادته ، وفي الثقافات المعاصرة تربط ثقافة

رفض الآخر بين الخيرية والانتماء لجنس معين أو ثقافة بعينها وربما لون بشرة معين .

٣ - ثقافة كراهية تهتم بتحطيم الآخر بالإضلال أو الإبادة أو القتل أكثر مما تهتم بنجاة الذات .

٤ - ثقافة كبر واستكبار فرب العزة سبحانه وتعالى حكم على إبليس بسبب هذا الموقف بأنه "متكبر" وقضى بإخراجه من الجنة .

٥ - أخطر سمات ثقافة رفض الآخر انتهاك محرماته وصولا إلى استباحته أحيانا لمجرد أنه الآخر .

٦ - أحيانا تقع جريمة استباحة الآخر لكونه حسب تصور من يستبيحه سبب إقصائه عن موقع الأفضلية حيث يعجز الرافض لقبول الآخر عن حيازة موقع الأفضل بجهده واكتسابه فيتصور أن "التخلص" من "الآخر" يحقق له ذلك .

٧ - ثقافة حسد تتمنى زوال ما عند الآخر وتكره أن يحرز فضلا أو خيرا بجهده أو باصطفاء إلهي وفضل من الله لا دخل للإنسان فيه .

٨ - الآخر الذي يقع عليه الرفض والقهر قد يكون رمز الإيمان الذي يحاصره الكفر أو الفطرة السوية فيقع تحت قهر التضييق من التيار العام السائد ، وكذلك كان لوط عليه السلام في قومه فعندما حاول عليه السلام أن يغير الاتجاه السائد في قومه الذي كان "الأنا" في قوم لوط وهو الشذوذ حاورهم بالحجة فلم يجدوا إلا التخلص منه ردا على الحجة .

٩ - ثقافة رفض الآخر تجعل القوة عندما يقترن رفض الآخر بالاستكبار وغرور القوة فما من أمة أو جماعة أصيبت بمرض الاستكبار إلا توجهت نحو الآخر

بالأذى بدرجاته المختلفة وصولا إلى الإبادة ، ولم تكن القوة يوما في ميزان العدل الإلهي أثقل من الحق .

١٠ - ثقافة رفض الآخر مرتبطة بمرض خطير حاربه الإسلام بقوة وهو "الكبر" ويعني منازعة لله سبحانه وتعالى في شيء من صفات ألوهيته وفي العصور المختلفة كان التأله دائما صفة من يسلكون هذا المسلك أفرادا كانوا أو جماعات أو دول وكذلك الثقافات .

١١ - ترتبط ثقافة رفض الآخر بإنكار أحقية هذا الآخر في التميز وفي أن يكون أفضل .

١٢ - المريض برفض الآخر لا يتحرج من الإساءة إلى أية قيمة مهما كانت قداستها وإخوة يوسف كانوا يصفون أباهم عليه السلام بالضلال .

١٣ - الموقف من الآخر في ثقافة رفض الآخر ليس عقلانيا بل هو تحكمي ، وقد مر كيف أن إبليس اعتبر أن كونه مخلوقا من نار سببا لأن يكون أفضل من آدم عليه السلام وهو تمييز لا يقبله العقل ويقوم على التحكم والأنانية والغرور .

١٤ - المريض برفض الآخر يرى أن ما يصدر عنه هو بالضرورة صحيح وخير ، وفي حالة إخوة يوسف عليه السلام فإنهم رأوا أن اجتماعهم سبب يبرر أن يعتبروا أنفسهم أفضل من يوسف عليه السلام وأنهم أحق بحب أبيهم ، وهو الآخر مبرر للفضل لا يقبله العقل .

١٥ - ثقافة رفض الآخر لا تستند على مبررات مكتسبة للفضل أخلاقية كانت أو تعبدية بل يعتبر أنصارها أنهم سيكونون أفضل بعد التخلص من "الآخر" .

* * * * *

الفصل الثاني:

التنوير الأوروبي والتأسيس الحديث لثقافة رفض الآخر

تمهيد:

مواجهة ثقافة "رفض الآخر" مرهونة في المقام الأول بفهمها دون انحيازات أو أوهام فكما علمنا علماء أصول الفقه "الحكم على الشيء فرع عن تصوره" والتصور هنا يعني الإدراك الصحيح الذي لا قصور فيه ولا خطأ . وما هو سائد أن ثقافة رفض الآخر كانت من أمراض العصور الوسطى "الدينية" وأن الأديان - وعند بعض الأقل تجنيا - تفسيرات متشددة للأديان هي التي تؤسس لثقافة رفض الآخر . وبالتالي فإن التاريخ الحديث الذي بدأ بالثورة الفرنسية هو البداية الحقيقية لثقافة قبول الآخر وما تفرع عنها من قيم: التعددية - التسامح - . . . . وأن هذه القيم هي قيم "غربية" غريبة عن ثقاتنا يراد غرسها في تربتها .

وقبل التعرض للموقف من فكرة "نقل" هذه القيم وغرسها رفضا أو ترددا أو قبولا ، نود هنا أن نقرر بعض الحقائق بوضوح:

أولا: أن للهداية في القرآن معنى يشمل الهداية إلى الحق الذي جعله الله غيبا عن كل خلقه مثل ذاته سبحانه وتعالى والجنة والنار والملائكة وغيرها من حقائق الغيب وإن كانت الهداية تشمل أيضا هداية المؤمنين إلى سنن الأمم السابقة يقول تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم ﴾ (النساء ٢٦) ، وبالتالي فإن في قصص السابقين التي يرويها القرآن عبر ودروس تتجاوز القص وتحفل بالدروس العبر التي قد تنير الطريق أمام اللاحقين إن مرت بهم التجارب نفسها التي مر بها السابقون .

ثانيا: أن الثورة الفرنسية نقطة فاصلة في التاريخ الأوروبي تأسست بناء عليها معظم الدول القائمة الآن ويضاف إليها روسيا ، بينما دول التشكيل الحضاري الإنجلوسكسوني البروتستنتي: بريطانيا - أمريكا - استراليا - كندا (وإن كانت

هويتها مزدوجة فرنكفونية إنجلوفونية) . وفي هذه الدول فإن الدين مقوم رئيس من مقومات بناء الدولة والثقافة معا .

ثالثا: بناء على ما تقدم فسنفرق تفرقة صارمة بين ما هو "أوروبي" تأسس على مثل الثورة الفرنسية ونعني بها القطيعة التامة بين الدين - أي دين - وبين الشأن العام - وما هو "إنجلوفوني" تأسس على مصالحة بين الدين والشأن العام عموما ، وبالتالي سنرصد درجة نجاح وإخفاق كل منهما في التعامل مع الآخر قبولا أو رفضا .

الثورة الفرنسية ملهما للطغاة

منذ ميلادها كانت العلمانية الفرنسية (اللائكية) مرتكزة على الفكر العلماني القومي في صورته الأكثر تشددا قبل أن تخفف الليبرالية السياسية غلوائه بالتدريج ، وتعد هذه الصيغة الأكثر تمثيلا في الغرب للموقف العلماني الكلاسيكي في معاداته للدين . وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض الأبعاد الملازمة للعلمانية الفرنسية التي لم تكن محايدة إزاء شؤون الدين والمجتمع المدني عامة لأنها كانت من طبيعة جذرية مقاتلة ، وذات وجهة معادية للكنيسة الكاثوليكية خاصة وللدين عامة ، فقد كان من أول القرارات التي اتخذها رجال الثورة الفرنسية إلحاق الكنيسة بالدولة وتأميم ممتلكاتها ، وتحويل رجالاتها إلى موظفين رسميين يتقاضون رواتب معلومة ضمن المهمات الموكولة إليهم رسمياً ، بما لا يختلف كثيراً عن أي موظف في أجهزة الدولة .

وهنا أول إخفاق في التعامل مع الأديان بوصفها "الآخر"!

وحتى حينما اضطر نابليون بونابرت إلى إبرام معاهدة وفاقية مع البابوية في روما (معاهدة ١٨٠١) التي اعترف بموجبها بكون الكاثوليكية ديناً لغالبية

الفرنسيين ، فقد كان ذلك مشروطاً بجعل الكنيسة في خدمة الدولة وأجندتها الخاصة . ولحق ذلك شيوع مناخات الرعب ومحاولة اقتلاع الكنيسة من منابتها و"تطهير" المجتمع الفرنسي عامة من المظهر والمؤثرات المسيحية ، واتسع ذلك أكثر مع عودة البوربون الذين كانوا يحكمون قبل الثورة وتحويل ما سمي وقتها بالإرهاب الأبيض إلى إرهاب قانوني مؤسسي تقوم على إنفاذه مؤسسات الدولة الرسمية . وقد اقترنت العلمانية الفرنسية بقدر غير قليل من التسلط السياسي والجذرية الجامحة .

وتتأسس العلمانية الفرنسية على وطأة ثقيلة وواسعة النطاق للدولة ، وتقوم هذه النزعة التدخلية الواسعة على دعامتين نظريتين:

أولاً: اعتبار الدولة العلمانية ضمانة الوحدة والنظام الاجتماعيين ، بحكم قدرتها "الخارقة" على تجاوز الانقسامات الاجتماعية والقيمية التي تنخر الجسم السياسي ، ومن ثم قدرتها على التعبير على المصلحة العامة والمجردة ، وتتأسس هذه الفكرة بدورها على تقليد من تقاليد فلسفة الأنوار مبكر يشدد على شفافية السياسي ، وقدرته على "بلورة" الإرادة الكلية . فقد اعتبر جان جاك روسو الدولة الإطار المعبر والمجسد للإرادة الكلية للمواطنين ، وهي إرادة ناظمة ومتعالية في الوقت نفسه عن مجموع المصالح الفردية والجزئية ، كما أعاد الفيلسوف الألماني هيغل استلهام هذه الفكرة في مرحلة لاحقة في القرن التاسع عشر من خلال تشديده على فكرة الدولة الكلية المجردة والجامعة للفضائل السياسية والأخلاقية ، والقادرة في الوقت نفسه على ضمان وحدة المجتمع المدني المنقسم على نفسه في المصالح والمعايير الأخلاقية .

ثانياً: الدولة عند العلمانيين الفرنسيين ليست مجرد أداة لإدارة الشأن العام بل

هي "صوت الأمة"، وموضع حلول العدالة الكاملة والخير الأعظم، ما يعطيها مشروعية التدخل لفرض قيمها وتصوراتها المفترض فيها أن تكون القيم العامة والكلية للمجتمع. هذا ما يفسر فشل رجالات الثورة الفرنسية في ما نجح فيه أقرانهم من رجالات الثورة الأميركية. فبينما عمل الفرنسيون على وضع السلطة - وضمن ذلك في تعبيرها الأكثر كثافة الدولة - وضعها فوق المجتمع، واعتبارها الضامن الأكبر لقيمة الحرية، فإن الأميركيين حافظوا على درجة عالية من التحفز والتحوط من غائلة السلطة، ومن ثم عملوا على وضع أكثر ما يمكن من الحواجز والكوابح أمامها، مع السعي إلى تحويل مركز الثقل من الدولة إلى الوحدات الصغرى للمجتمع المدني، مستفيدين من فكرة مونتسكيو في توزيع السلطات والحد من تمددها أكثر من أقرانهم الفرنسيين.

الثقافة الدهرية

وتراهن العلمانية الفرنسية على إخلاء المجال العام من سيطرة الدين وملئه بالقيم الثقافية "الدهرية"، وتعد المدرسة والمؤسسات التعليمية عامة من أهم أذرعها في إشاعة هذه الثقافة. فالمدرسة عند العلمانيين الفرنسيين ليست مجرد فضاء للتعلم أو لصقل مواهب الطفل وتهذيب حسه المدني، بقدر ما هي الحقل المثالي لإعادة صنع طبيعة ثانية لدى الطفل تقتلعه من المحيط الاجتماعي والأسري، إذ يراهن العلمانيون على تغيير بنية المجتمع من خلال أدوات المدرسة، ولذلك تتوجس العلمانية الفرنسية من كل مظاهر التعبير الديني سواء في شكله المؤسسي أو حتى الفردي.

هذا ما يفسر المعركة الشرسة التي أثارها حدث بسيط - ربما لا يثير مجرد التساؤل في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وبعض البلاد الأوروبية الأخرى -

وهو إصرار بعض الفتيات المسلمات على ارتداء الحجاب داخل مدارسهن، فقد نظر إلى هذه الظاهرة باعتبارها تهديداً لقيم العلمانية برمتها، الأمر الذي يستوجب تدخل الدولة بكل ثقلها، وهي ظاهرة ما زالت تشق المؤسسة السياسية والفكرية الفرنسية إلى يومنا هذا، وما زالت تثير معارك ساخنة لا يهدأ لهيبها بعد.

فالعلمانية الفرنسية لا تكتفي بتحرير السياسي من سيطرة الكنيسة بل تراهن على مقارعة الدين عامة وطرده من الفضاء العام لتحل محله "القيم العلمانية الصلبة"، وهنا تحل المدرسة محل الكنيسة في إعادة صوغ الوعي الفردي والجماعي. فقد كتب فردينان بويسون في معرض دفاعه عن مشروعية المدرسة العلمانية بديلاً عن المدرسة الكنسية زمن الجمهورية الثالثة سنة ١٩١٢ ما يلي:

"إن للكنيسة معقوليتها الخاصة، ومن ثم ليس أمام المرء إلا أن يكون معها أو ضدها، كما أن المدرسة العلمانية هي الأخرى ليست شيئاً بلا اسم أو شخوص محددة، وبالتالي على المرء أن يختار بين المدرسة العقلانية أو المدرسة الإكليروسية لأن لا توجد منطقة وسطى بينهما".

والثقافة السياسية الفرنسية - على نحو ما - تشكلت في مبدأ العلمانية ومرادفها الجمهورية وقامت على نزوعات جذرية مدمرة لا تعرف معاني التوسط والوفاق، ويبرز ذلك جلياً من خلال صعود اليعاقبة وتحويلهم الساحة السياسية والثقافية الفرنسية الى ساحة حرب مفتوحة في إطار ما سمي وقتها سنوات الرعب أو ما سماه روبسبيير "إرهاب الحرية"، وحال الرعب هنا لا تعني مجرد حقبة من حقب الثورة الفرنسية - خصوصاً تلك التي تمتد بين مجازر ايلول (سبتمبر) ١٧٩٢ حتى سقوط روبسبيير في تموز (يوليو) ١٧٩٤ - بقدر ما هي نمط كامل في إدارة الحكم وفي تصور السياسي لازم الثورة، أي نمط الحكم الذي يستدعي القوة

والحسم الجذري باسم ادعاءات حداثوية وتنويرية .

وفعلاً كانت مخاوف الفيلسوف الإنكليزي المحافظ ادموند بورك في محلها حينما كتب في وقت مبكر وقبل أن يكتمل مشهد الثورة على صورته النهائية (سنة ١٧٩٠) قائلاً إنه "يتوقع للفرنسيين رحلة طويلة وشاقة في عالم الفوضى وحلكة الظلمة" .

ويجب التنبيه هنا إلى أن العلمانية الفرنسية تعتبر حالاً خاصة وفريدة من نوعها حتى مقارنة بالتاريخ السياسي الأوروبي والأميركي ، خصوصية تستمد ملامحها العامة من سياقات التجربة الفرنسية ذاتها ، فلا ننسى هنا أن هذا الدور المركزي الموكول للدولة الجمهورية ليس إلا استمراراً وتكثيفاً لدور هذه الدولة في صنع الأمة ، خلافاً لكثير من البلدان الأوروبية الأخرى التي كانت فيها الدولة استجابة لاحقة لتشكل الأمة ، إلى حد القول بأن تاريخ فرنسا الحديث هو بدرجة أولى تاريخ الدولة الصاهرة الصانعة للأمة القومية . وفي بوتقة الصهر هذه احترقت أقليات مذهبية ودينية بلا رحمة تحت شعار "الإخاء والحرية والمساواة"!

فكل ما فعلته الثورة الفرنسية كان تعميق هذه الأبعاد التسلطية المختزنة في التاريخ السياسي الفرنسي ، ففرنسا مثلاً حاولت أن ترأب التصدعات التي خلفتها الحروب الدينية للقرن السادس عشر عبر إقامة ملكية مطلقة ومركزية غير مسبوقة ، في حين أن الإنكليز حاولوا تجاوز مخلفات الحروب الدينية ، وثورتي ١٦٤٠ و١٦٨٨ عبر توسيع سلطة البرلمان والمؤسسات الوسيطة ، مع تخفيف وطأة الملكية ، ففي الوقت الذي ألغى فيه لويس الرابع عشر اتفاقية نانت سنة ١٦٨٥ (الاتفاقية التي تم بموجبها الاعتراف بحقوق البروتستانت) صادق البرلمان الإنكليزي وبعد أربع سنوات فقط على مرسوم التسامح الديني . وقد يقول البعض إن ما فعلته الثورة الفرنسية هو الضريبة الضرورية لدخول عالم الحداثة السياسية لكن مما يسفه هذه

الدعوى قدرة شعوب أخرى كثيرة في العالم الغربي نفسه على نهج مغاير وأكثر هدوءاً وتوازناً ، وتقدم التجربة الأميركية مثالاً على ذلك في هذا الصدد ، من جهة المكانة المهمة التي يشغلها الدين في الحياة الخاصة ، والروح العامة للمجتمع ، أو من جهة مستوى التسامح مع الأقليات الدينية والعرقية .

والثابت في كل ذلك أن التجربة الفرنسية التي كانت نتاج ثورة صاخبة وإرث كنسي كاثوليكي ثقيل تمثل الاستثناء لا القاعدة . بل إن النموذج العلماني الفرنسي ولد مأزوماً ومتوتراً منذ البداية بسبب الوهم الذي لازم هذه الثورة ، وهو وهم البداية الجذرية والعام الصفر بحيث يخيل لأصحاب الثورات أن بمقدورهم تغيير وجه العالم وإعادة بناء طبيعة إنسانية جديدة ، وأنهم خلف بلا سلف وأبناء بلا آباء .

ويبدو أن الكاتبة الألمانية حنة ارندت كانت محقة حينما بينت في معرض مقارناتها بين الثورات الحديثة أن سر نجاح الثورة الأميركية في إقامة حياة مدنية مستقرة وهادئة خلافاً للثورة الفرنسية إنما يعود إلى تخلص الآباء المؤسسين للثورة الأميركية من فكرة القطيعة الجذرية والبداية من صفر ، فقد تصور هؤلاء مهمتهم عبارة عن استئناف وإحياء لروما القديمة وأثينا اليونانية الأمر الذي مكّنهم من الإفادة من الخزان التاريخي وتجنب أخطاء ومطبات سابقيهم ، وكذلك إقامة علاقة متوازنة بالمخزون الديني المسيحي ، في حين أن أقرانهم الفرنسيين أرادوا شن حرب لا هوادة فيها على ما سموه: "مملكة الظلام" فحولوا السياسة تبعاً لذلك إلى ساحة حرب واستقطاب بين الخيارات القاطعة والجذرية .

إن جذور الانحراف الإرهابي الذي لازم الثورة الفرنسية يكمن في تصور رجالاتها للزمن ولحركة التاريخ الذي تقع فيه حادثة الثورة ولعالم السياسة عامة ،

فقد نظروا إلى الثورة باعتبارها تمزقاً مطلقاً في نسيج الزمن ، كما راهنوا على إقامة نظام اجتماعي من الصفر على أنقاض النظام القديم ، وهكذا حولوا السياسة من مجال ادارة الممكن إلى حقل تجريبي خيالي للتطلعات والأحلام من خلال تقاطع نزعة بنائية وإرادية لا علاقة لها بالواقع وممكناته .

وتلك من سمات المنهج الفكري المؤدي لرفض الآخر وهو "التأله" .

ويواجه النموذج العلماني التدخلي ضربين من الضغط الفكري متأتيين من التقليد الأنغلوسكسوني الذي بدأ يلقي بثقله على الكثير من رجال الفكر والساسة الفرنسيين:

أولا: من جهة التيار الليبرالي الذي يشدد على حيادية الدولة في مجال الثقافة ، معتبراً اياه مجرد حكم لا حق له في التدخل في مجال القيم وأنماط حياة الأفراد والجماعات ، وقد لعب الجيل الجديد من الليبراليين دوراً حيوياً في تجريد الدولة من ادعاءاتها الشمولية . الأول من خلال التمييز بين حقلي الخير والعدل ، فالدولة عندهم تقوم على نشر العدل ولا تدخل في المعايير الأخلاقية والجمالية (الخير - الشر والحسن - القبيح)، والثاني من خلال تبني نظرية الحد الأدنى من الدولة ، وإعطاء أوسع الصلاحيات الممكنة للمجتمع المدني .

أما التيار الثاني فهو ما يسمى المدرسة الجماعتية Communitarianism التي تدافع عن حماية الخصوصيات الثقافية للمجموعات الثقافية والعرقية التي ينصهر داخلها الفرد ، مع العمل على كف يد الدولة عن فرض نمطية ثقافية موحدة . وقد تزامن هذا الضغط الفكري مع ضغط واقعي متأت من التعدد الثقافي والديني الذي فرض نفسه على فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية ، بسبب حركة الهجرة التي جلبت معها تعدداً في أنماط العيش ومسالك التفكير والاعتقاد ، ولعل هذا ما حدا ببعض

المفكرين الفرنسيين امثال جون بوبيرو للدعوة إلى صوغ ما سمّاه بعقد علماني جديد، ما يجعل الدولة أقل تدخلية وأكثر حيادية في مجال الخيارات الثقافية والأخلاقية .

من الحياد إلى الإلحاد

وقد كان حصاد الثقافة الدهرية التي فرضتها الدولة الفرنسية على المجتمع الانتقال من الحياد إلى الإلحاد وحسب الإحصاءات فإنه في العام ١٩٦٦ أعلن ٨٩ في المئة من الفرنسيين انتماءهم إلى أحد الأديان فيما أكد ١٠ في المئة انهم لا يعتنقون أي دين ، وبعد ٣٢ عاماً صارت النسب المئوية على التوالي ٥٥ و ٤٥ في المئة . ويشكل الذين لا دين لهم أكثرية واضحة في المجتمع الفرنسي لدى من هم دون الخمسين من العمر لتبلغ نسبتهم ٦٣ في المئة داخل الفئة العمرية ١٨ ـ ٢٤ سنة . في المختصر ونظراً إلى التطور الطارئ منذ ١٩٩٨ يمكن الاعتبار أن هناك للمرة الأولى منذ قرون عدداً متساوياً - إن لم يكن أكثرية - من الفرنسيين خارج الديانات وداخلها .

وإلى جانب الموقف الإلحادي الواضح ظهرت ألوان طيف أخرى في المجتمع الفرنسي تعبر عن الرغبة في تشييد معمار ديني لكل شخص أو فئة بما يناسب الرغبة الشخصية كحل وسط بين الإيمان والإلحاد الصريح فحسب دراسة أجريت عام ١٩٩٩ وجد أن من لادين لهم يعتنقون معتقدات دينية على النحو التالي:

٢٣ في المئة ممن لا دين لهم يؤمنون بالله .

٢٦ في المئة منهم يؤمنون بالحياة بعد الموت .

١٢ في المئة يؤمنون بالجنة .

٧ في المئة يؤمنون بجهنم .

١٥ في المئة يؤمنون بالخطيئة .

٢٣ في المئة يؤمنون بالتجسد .

كما أن لهم مواقف متباينة من الطقوس على النحو التالي:

٣٣ في المئة منهم تبدو لهم الاحتفالات الدينية المرتبطة بالولادة على جانب من الأهمية .

٣٩ في المئة تبدو لهم الاحتفالات الدينية المرتبطة بالزواج على جانب من الأهمية .

٤٦ في المئة تبدو لهم الاحتفالات الدينية المرتبطة بالوفاة على جانب من الأهمية .

أما المعتقدات الموازية ذات الطبيعة البدائية (الفأل الحسن وقارئات الحظ والقادرون على شفاء الأمراض أو علم الأبراج) فرغم أن ٤٩ في المئة يرفضونها ، بحسب دراسة ١٩٩٨ ، فان ٣٣ في المئة مترددون و ١٨ في المئة يؤمنون بها(١٨) .

الوجه الآخر للثورة: لنتذكر فاندي

وفاندي الفرنسية أول إبادة جماعية في التاريخ الحديث ، وتنبع أهميتها الاستثنائية من أن جدل العلاقة بين الإسلام والتنوير وتابعه "الحداثة" مطروح على العقل المسلم منذ ما يقرب من قرنين مترافقا مع مشروعات متعددة لبناء "دول حديثة" على النمط الغربي وتاليا لمشروعات تحديث داخل الدولة العثمانية لم يكن حظها من النجاح أوفر . ويعد المشروع التنويري الأوروبي الذي دشنته الثورة الفرنسية بشعارها الثلاثي الشهير: إخاء ، حرية ، مساواة ، النموذج الذي يفضل

العلمانيون العرب الإشارة إليه والإحالة عليه بل التبشير به طريقا للنهوض لا بديل عنه، مشيعين جوا من الخوف من "الدين" عموما عبر التركيز المبالغ فيه أحيانا على الصراعات الدينية والمذهبية التي شهدها الغرب في العصور الوسطى ومفتتح العصر الحديث بوصفها دليلا قاطعا على أن حضور "الدين" في ساحة الحياة العامة معناه حتما: الدم!.

ولعقود بذل كثير من المثقفين الذين خاضوا معركة الهوية في مواجهة هذا المشروع التغريبي جهودا لتحليل بنيته وكشف نقائصه وهو جهد كان له أثر كبير في بلورة موقف ناقد بل رافض لهذا النموذج إطارا للنهوض، غير أن ما أحسب أنه يمكن أن يكون إضافة هو الكشف عن التاريخ الدموي لحركة التنوير الأوروبية وبخاصة في مهدها فرنسا عبر الكشف عن أول جريمة إبادة جماعية في التاريخ الحديث شهدتها فرنسا في السنوات الأولى من عمر الثورة.

ومنذ بدأ المشروع الاستعماري الفرنسي يتجه جنوبا صوب مصر (١٧٩٨) ثم الجزائر (١٨٣٠) والشعار المرفوع فرنسيا هو "تمدين الشعوب المتخلفة"، وقد أدرك شيخ جزائري الكذب الذي ينطوي عليه الشعار فتساءل متصنعا السذاجة: "إذا **كانوا قد جاءوا لتمديننا، فلماذا أحضروا معهم كل هذا البارود؟** ". وقد كانت الإجابة إشارة في عبارات قليلة أوردها المفكر الإسلامي المعروف الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه "**الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ**" عن جريمة إبادة جماعية ارتكبتها قوات الثورة الفرنسية ضد سكان منطقة فرنسية تسمى فاندي وأنه قرأ عنها سطورا قليلة نقلا عن ضابط شارك فيها وسار في دماء الضحايا التي بلغت ركبتي جواده.

وبدأت محاولات بحث للحصول على أية معلومات بالعربية عن الجريمة فلم أجد وكذلك الحال على شبكة الانترنت (باستثناء إشارات في مقالات لكاتب هذه

السطور لا تتجاوز ما ذكره الدكتور المسيري) وبدأت البحث بالإنجليزية فوجدت ما يشيب لهوله الولدان .

الشهادة الأولى لكاتبة فرنسية هي صوفي ماسون ، وتقول في شهادتها: "في بداية عام ١٧٩٤ قرر الروبيسيريون (أتباع الزعيم روبسبير) إبادة الفنديين (الفانديين) حتى آخر رجل وامرأة وطفل. وإذا كانت الثورة الفرنسية أول أيديولوجية حديثة فإن فنديه (فاندي) تكون مذابح بدائية رهيبة تعد من أعمال الإبادة الجماعية. حقيقة أن فاندي (فنديه) ثارت كانت معروفة للكافة. وهو ما يدعو للتساؤل بشأن طبيعة ثورها التي شارك فيها طبقتها الوسطى وزعماؤها. والجمهورية الفرنسية لم تبدأ إلا حديثا جدا في الاعتراف بالرعب الذي يعنيه أن تكون فاندي (فنديه) أول جريمة إبادة جماعية في العصر الحديث" .

وتكمل صوفي مشيرة إلى التحديث الذي جاءت به الثورة الفرنسية: "عندما جاء نمط حياة جديد في البداية لم يفعلوا شيئا، ولكن سرعان ما فهموا ما تعنيه هذه الهجمة... انتهاك أراضيهم وعقائدهم بل أرواحهم وما كان يمكن أن يقفوا وهم يرون ذلك، سيقاومون للأبد إن لزم الأمر. القادمون بدورهم كانوا يعتقدون أنهم أحضروا معهم التقدم، التنوير، الفكاك من أسر الخرافات، الحرية، الإخاء، والمساواة. وسوف يدخلون هؤلاء البدائيين العصور الحديثة، حتى لو كلفهم هذا بضع معارك.... لكن هذا لم يكن سهلا فالناس قاوموا بشراسة... ولكن سرعان ما كان هناك نقص في الرجال مقابل تقنيات متفوقة ولم تكن هناك ثقافة عسكرية إذ كانوا يعيشون لزمن طويل في حالة سلم. وعندما اكتشف جنود الثورة ذلك عندما هزموا الناس أوحى لهم هذا بأكثر الأفكار وحشية، فهذا التسابق للموت يمكن استغلاله، وهكذا بدأت الإبادة الجماعية" .

الإبادة المنظمة – حسب شهادة صوفي – "بدأت من أعلى القيادات وجرى تنفيذها بسعادة في أدنى المستويات، على الأقل ٣٠٠ ألف إنسان أبيدوا بلا رحمة آنذاك وبعض

الجنود الذين رفضوا القيام بالمهمة اغتيلوا ماديا أو معنويا. لكن الناس ظلوا يقاومون فبعضهم اختبأوا في الغابات ونصبوا الأكمنة وقد حاربوا ببسالة مثالية لكنهم عند القبض عليهم كانوا يذبحون كالخنازير. وكان الإعدام مصير كل القادة إما شنقا أو ذبحا أو رميا بالرصاص بل لم يترك بعضهم لينام في قبره في سلام. جثة آخر قائد تم إعدامه قطعت ووزعت على العلماء أنا رأسه فتم "تمليحها" في إناء زجاجي. أما مخه فتمت دراسته لمعرفة أين توحد بذور العصيان عند البدائيين. كان هذا منذ مائتي عام لكن في الحاضر احتفل الجمهوريون بالذكرى المائتين دون إشارة لـ "الموت" ودون إشارة للإبادة الجماعية، إنهم الضحايا أنفسهم هم الذين تذكروا" .

"والآن هناك اسم لهذه الثقافة التي قاومت وهذا الاسم هو فاندي (فنديه)... إنها قصة التاريخ الفظيع لأهل غرب فرنسا فاندي (فنديه) وبريتاني، فأثناء الثورة الفرنسية حدثت قصة فيها البطولي والبشع تخلفت من رماد فاندي (فنديه). وهي قصة كانت حتى وقت قريب موضوع قمع وإنكار وبتوالي الأكاذيب أصبح كثير من الفرنسيين لا يعرفون عنها شيئا، وحدهم أهل فاندي (فنديه) وبريتاني احتفظوا بها حية، ولم ينسوها أبدا. ومؤخرا وحسب خلال السنوات القليلة الماضية أقيمت نصب تذكارية للضحايا أقامتها الحكومة المحلية وليس الحكومة المركزية. وحديثا جدا بدأت الجمهورية الفرنسية تتحدث عن احتمال أن يكون هذا الترويع أول جريمة إبادة جماعية في التاريخ" .

""لا يبقى رجل حيا"، "وحدها الذئاب ما يجب أن يبقى في أرضهم"، "نار، دم، موت، هو ما نحتاجه لحماية الحرية"، "ممتلكاتهم ومعتقداتهم المتعصبة يجب تحطيمهما"، تلك كانت بعض الكلمات التي وردت في مؤتمرهم عن فاندي. وأطلق علماؤهم الخيال لكل الأفكار الجديدة، تسميم الدقيق والخمر وموارد المياه.... البحث عن طرق لحرق أكبر عدد من الناس في فرن كبير يكون قادرة على إذابة شحومهم بكفاءة" .

"واحـد مـن الجنرالات الجمهوريين (Carrier)كان مستهزئا بهذه الأبحاث، فهذه الطـرق "الحديثة" سوف تستغرق وقتا طويلا. الأفضل أن نستخدم طريقة أكثر عراقة (فيها قداسـة القدم) للإبادة: قداس تعميد لرجال ونساء وأطفال عراة والأفضل تكبيلهم جماعيا فـيما أسميه "زواج جمهوري" وفي قوارب نشيدها لذلك ويتم جرها إلى منتصف نهر اللوار، وعندئذ يبدأ "قداس" طعن بالحراب للرجال والنساء والأطفال، تحطيم رؤوس الصغار بضربها بالجـدران، مذبحـة بإطلاق قذائف المدفعية على المكبلين، أقصى أشكال التعذيب المروع، وإحراق ونهب القرى والمدن والكنائس. ولم يكن هناك حتى أيّ ادعاء أو تظاهر بالتمييّز بين المقـاتلين والمدنيّين وحتى الآن سجلات الجيش في فينسينيس تحكي القصة الباردة، القبيحة، وقـد تكـررت مراراً وتكراراً في قرننا الفظيعِ، الجنرالات يتحدثون ببرود عن "الأهداف المنجزة"، "الإبادة بلطف"، إبادة جماعية بشكل منظم ومستمر وبصرامة .

وقـد تحـولت فانـدي إلى رمـز لأهم الانتقادات التي تحفل الدراسات الإنسانية المعاصـرة للـثورة الفرنـسية ومـثل عـصر التنويـر كطـريق لإقامة مجتمعات متحررة تعدديـة مـتقدمة وفي المـئوية الثانـية كانت فرنسا على موعد مع كتاب أثار لسنوات تلت صدروه جدلا كبيرا جدا في الثقافة الأوروبية ، ففي كتابه: **"إبادة جماعية فرنسية"** لرينالد سيشر تناول كارثة فاندي مستعرضا المقدمات والأحداث والدلالات .

فـبحلول ١٧٩٣ كانـت فرنـسا الـثورية في حالـة حـرب مع النمسا ، بروسيا ، وإسـبانيا ، وكانـت بـريطانيا تَعـدُّ حـصارا بحريا . وردت الجمعية الوطنية على هذه الحالـة العـسكريةِ اليائـسةِ بالأَمْـرِ بفـرض ضـريبة تجنيد ٣٠٠,٠٠٠ مجنّدٍ في غربِ فرنـسا وكانـت هـذه الـضّريبة الذّريعـةَ للتّمرّدِ والحرب الأهليةِ المُسَلَّحةِ الهائلة التي عـرفت بِاسم هذه المنطقة فاندي (فنديه) . العصيان المسلح تسبب في خسائرِ بشرية فظـيعةِ حتـى هزم في ١٧٩٤ تاركا ندوبا دائمة في المجتمع والسياسة الفرنسيين . وما

زال المؤرخون منقسمين، المدرسة التقليدية من مؤرخي الجمهورية ترى القمع عملا مؤسفا لكن لا مفر منه لمواجهة عمل عسكري شكل "طعنة في الظهر" في لحظة كانت الثورة فيها تمر بأخطر أزمة، خلال السنوات العشرين الماضية أصبح القمع يصور بوصفه عملا شريرا أكثر من ذي قبل.

بينما كان هناك محاولات للربط بينها وبين بالإرهاب الأيديولوجي والحكم الشمولي المرعب في القرن العشرين. في ١٩٨٣ صلةِ مختلفةِ بالأحرى قَدْ افترضتْ مِن قِبل بيري تشونو: "فترة اليعاقبة يُمكنُ اليوم فقط اعتبارها الفعل المؤسس لسلسلةِ طويلةِ ودمويةِ تَمتدُّ من ١٧٩٢ إلى الوقت الحالي من الإبادة الجماعية الفرنسية في الغربِ الكاثوليكي إلى الجولاج السّوفيتي. إلى الدمارِ الذي سّببته الثّورةِ الثّقافيةِ الصّينيةِ إلى إبادة جماعيةِ الخمير الحمر في كمبوديا". كَانتْ أطروحة تشونو أن صلة الثورة بالاستبداد كَانتْ عقائدية أكدتها الممارسة الثورية ممثلة في القمع الإبادي في فاندي (فنديه) في ٩٤/ ١٧٩٣ . الأطروحة قدمها طالب دكتوراه هو رينالد سيشر في ١٩٨٥ .

كانت أطروحة سيشير أَنْ يصدر كتابين أحدهما كَانَ دراسة قرية سيشر نفسه (Mer – Basse – Chapelle La) لا تشابيلي باسي مير؛ الآخر، الدّراسة الأوسع بالعنوانِ المذهلِ "إبادة جماعية فرنسية".

وليس هناك شكٌ، بالطبع، في أن فاندي (فنديه) تكبدت خسائر بشرية فادحة، تقديرات حديثة تَراوحتْ بين افتراض تشونو الذي يقدرهم بـ ٥٠٠,٠٠٠ قتيل من المتمرّدين إلى تخمينِ جين كلمينت مارتن بحدود ٢٥٠,٠٠٠ من المتمردين و٢٠٠,٠٠٠ من الجمهوريين. وافتراض سيشر أن هذا الحجم من القتْلِ إبادة جماعيةِ استنادا لسلسلةِ من التّصريحاتِ مِن قِبل الموظفين الثّوريين وقادةِ الجيشِ. في ١ أكتوبرِ ١٧٩٣، وقد صرّحَ "المجمع المقدس" للجيشِ المرسل إلى الغربِ:

"يا جنود الحريةِ

إن لصوص فاندي (فنديه) يَجِبُ أنْ يبادوا

جنود الأمةِ يطلبون ذلك

نفاد صبر الفرنسيين يفرض ذلك

شجاعتهم يَجِبُ أنْ تُتم ذلك... "

تصريحات متوالية لضبّاطِ الجيشِ كَانتْ أكثر صراحة وحدَّة، مثل بيوفورت، الذي تمنى في ينايرِ ١٧٩٤ "تطهير أرض الحرية تماما من هذا الجنس المَلْعُونِ".

ويلاحظ هنا أنه للمرة الأولى في التاريخ الحديث يتبلور فكرة "التخلص من الآخر"!

وحسب سيشر فإن "هذا الانتقام لَيسَ هو المخيفَ فهي أفْعالَ حتمية حَدثَت في حرارةِ المعركةِ في حربِ طويلةِ وشنيعةِ، لكن في الواقع حدثت مذابحَ مُخَطَّطةَ مُنَظَّمةَ، ومبيّتة ارتكبتْ عمداً، وكَانتْ هائلةَ ومنظَّمَ، بالنّيةِ الواعيةِ والواضحةِ لتَحْطيمِ دين وإبادة واضحة المعالم لكل الناس: النِساء والأطفال أولا، بهدف استئصال "الجنس الملعون"، ويهدف سيشر ببساطة لإثبات أن النظام الثوري مثل النّظامِ النّازي كلاهما كان إباديا".

والمفاجأة هنا أن من جعلوا الثورة الفرنسية فاصلا بين عصرين وبداية دخول "الحداثة" لم يشيروا إلى أنهه كانت أيضا بداية دخول عصر المقابر الجماعية!

فقد حفرت ذكريات هذه المذبحة الشّنيعةِ بعمق في الذاكرتين الفردية والجماعية في الغربِ. فمثلا، اكتشاف مقبرة جماعية كتلِ العظامِ في لي لوس (Lucs Les) مِن قِبل الخوريِ الأبرشيِ في ١٨٦٠ التي اكتشفها كاهن الأبرشية عام ١٨٦٠ نتج عنها أسطورة (Vendée" the of "Bethlehem the) " وطبقاً لها فإن ٥٦٤ امرأة و١٠٧

طفل والعديد من الرّجال ذُبحوا يوم واحد هو ٢٨ فبرايرِ ١٧٩٤ .

حرية.. إخاء... ووحشية

وفي إطار المراجعة ومع تصاعد الأعمال الإرهابية التي تلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت هناك كتابات غربية شديدة الأهمية تحاول تقصي العلاقة بين الإرهاب كشكل من أشكال الاستباحة وبين ثقافة "رفض الآخر" كتربة خصبة لثقافة الاستباحة ، ومن هذه الدراسات المهمة كتاب "الإرهاب: حرب أهلية في الثورة الفرنسية" للمؤرخ البريطاني دافيد أندرس .

وحسب أندرس فإنه في العقود القليلة الماضية ، وخصوصاً منذ ١١ سبتمبر ، أصبحت كلمة "إرهاب" تستخدم بشكل مفرط . اليوم ، غالبا عند استخدامه تقفز للذهن صور متعصبين متلحين يحضرون "الرايسين" في شمال لندن ، ومن المفيد أن نذكر بأنه أصلا يعني شيئا مختلفا جدا . الإرهاب في الوعي الحديث استعمل للمرة الأولى لوصف الطرق الدامية والقسرية التي استعملتها الحكومة الجمهورية الفرنسية بين ١٧٩٣ ، ١٧٩٤ لفرض عقيدتها على بلد كان غالبا عنيدا . الإرهابيون الأوائل كانوا رجالا مثل روبسبير ، سان جوس ، ومارات ، الذين خططوا وطبقوا هذه السياسة المخيفة . الإرهاب في التصور الأولي لم يكن سلاحا لمواجهة الحكومات ، بل بوصفه الأداة النهائية في يدها ، وهو في الشكل الثاني ، سواء في ١٧٩٠ في فرنسا ، أو ثلاثينات القرن العشرين في روسيا أو في سبعينات القرن نفسه في كمبوديا ، كان دائما القاتل الأبشع .

الأعمال الأكثر أهمية عن الإرهاب الفرنسي تمت خلال السنوات الماضية على يد مؤرخين فرنسيين وبريطانيين وأمريكيين ، وهناك الآن حاجة لسرد هذا في تاريخ قصصي يسهل وصوله لجمهور أوسع . وكمَا أنه يخلف عددا كبيرا من جثث

الضحايا ، يُحرّكُ الإرهابَ عواطفَ عميقةَ .

ما يكشف عنه الكتاب بشكل واضح الوضع الرهيب الذي وجدت فرنسا نفسها فيه في منتصف طريق الثورة . فمع صيف ١٧٩٢ ، رأس الدولة ، الملك لويس السّادس عشر ، مفتقرا للثقة تماما ، والبلاد زلت قدمها لحرب كارثية مَع النمسا وبروسيا وسرعان ما بدت العاصمة نفسها شبه مهددة . مواجهين بهذا المشهد الرهيب ، قام متطرفو باريس بعمل حاسم ووحشي: الحكم الملكي أُسقطَ العاشر من أغسطس ، وأطلقت عملية تحفيز هائل لتسجيل المتطوعين للجيش ، تم إيقاف الغزو الأجنبي عند فالمي في العشرين من سبتمبر ، واليوم التالي أعلنت أول جمهوريات فرنسا الخمس .

هذا الإنجاز الوطني العظيم ، مهما تم الاحتفال به في عدد لا حصر له من كتب النصوص المدرسة الفرنسية ، كان له في الواقع جانب مُظلم جداً . في اللحظة نفسها ، كان المتطوعون يزحفون للأمام وتم إقناع الحشد الباريسي بأن سجون العاصمة تضم "طابورا خامسا" من أعداء الثورة الخطرين ، واقتحمت السجون وذبح ١٥٠٠ نزيل في مذبحة سبتمبر "سيئة السمعة" .

بهذا الحدث التمهيدي "الجماهيري" ، الإرهاب "الرسمي" أخذ ما يقرب من سنة أخرى ليبدأ . وثانية ، كان مرحبا به بسبب سوء الأوضاع العسكرية على جبهات القتال ، في هذا الوقت تضافر هذا مع تزايد المعاداة للحكومة في ليون ومارسيليا وتولون ، وقبل كل هذا ، وقبل كل شيء ، في فاندي (فندييه) في غرب فرنسا ، رَد الدولة كان التخلي التام عن القانون: سجن أي شخص يشتبه في تعاطفه مع الثورة المضادة - ضمن ذلك النبلاء السابقون بغض النظر عن العمر أَو الجنس - تقرر بموجب "قانون الاشتباه" في سبتمبر ١٧٩٣ ، وتبع ذلك حرمان

المتهمين من حقوقهم كافة في يونيو ١٧٩٤ وبهذه الوسائل الجبانة تم تقديم ٣٠,٠٠٠ شخصَ تقريبا لمحاكم أرسلتهم للمقصلةِ في "إرهاب قضائي".

ما هو معروف على نحو أضيق من هذا لكن أكثر دموية بكثير كان القمع الوحشي للتمردات الإقليمية. ما حدث في فاندي (فنديه) كان أقرب للإبادة الجماعية، المسئولون الحكوميون استعملوا لغة الإبادة بشكل علني، وربما مات ربع مليون شخص. تبرير هذا الرعب شكل دائما مشكلة رئيسة للمؤرخين، وقد استجابوا له بطرق مختلفة. بالنسبة للكثيرين، الإرهاب فظيع أينما كان، وقد كان مجرد رد فعل للظروف القصوى: للتفكك في الداخل والحرب من الخارج.

الاقتراب (المقاربة) الظرفي قد يفسر بعضَ - لكن لا يُمْكِنُه أبداً تَوضيح كُل - الإرهاب. بقراءة خطب روبسبير وسان جوس، يصبح المرء مدركا أنه بالنسبة لهم ولزملائهم، الأزمة الثورية لم تكن ببساطة اختبارا يتغلبون عليه، بل فرصة فريدة لخَلْق مجتمع جديد، مدينة سماوية مستندة على تصاميمِ جين جاك روسو. ودعامتاه الرئيستان ستكونان: الفضيلة والإرهاب - وبعبارة روبسبير الشريرة "الفضيلة بلا إرهاب قاتلة، الإرهاب بلا فضيلة عاجز".

قبل كل شيء، كانت هذه الرؤية تمجد "الفضلاء"، وتنزع الصفات الإنسانية عن أي شخص يتم إدراكه بوصفه "عدوهم"، وتكرس مصادرَ لم يسبق لها مثيلَ لإبادة مثل هؤلاء الأعداء، صحيح أن الصوت لم يكن تام الوضوح، والنتائج كانت في أغلب الأحيان عشوائيةُ، لكن المرء يمكنه التعرف عليها كأول صوت حقيقي للاستبداد الحديث.

وهنا النواة الصبية لثقافة "رفض الآخر" في التاريخ الحديث وذلك من خلال نزعه من سياقه الإنساني واختصاره في صفة واحدة: "العدو".

القصة التي يرويها ديفيد أندرس عن انحدار الثورة الفرنسية من البدايات المثالية إلى الدولة البوليسية ، قصة مظلمة ومحبطة بشكل مفرط . وبسبب طبيعتها الحادة فإن القليل من الضوء يخترق الستر المسدلة عليها . واحدة من القلة التي تفعل ذلك سيدات سان فينسنت المهيبات على اللوار الأعلى . ذات يوم في ذروة الإرهاب ، جمع كل السكان في الكنيسة للاستماع للمسؤولِ المحليِّ ، عضو نادي اليعاقبة الثوري المهيمن ، وهو يبسط مبادئ الدينِ المدنيِ الجديدِ الذي أمر به روبسبير للتو . وما إن بَدأ حتى تحركت كل النساء ليصنعن دائرة وأعطينه ظهورهن واعترضن تعرية مؤخراتهن! .

بينما يعلق أندرس: "**دعوة اليعاقبة لم يكن لها من رد إلا مثل هذه المناورة**" .

وفي مصارحة مهمة كتب الناقد البريطاني روث سكيور منبها لأهمية الكتاب في إنصاف "الآخر" ونقد "الذات" ، فأندرس يُواجهُ مباشرة شبهة أنه لا شيء سوى "سيل منساب مِنْ الكلمات" للربط بين حربنا المُعاصرة على الإرهابِ وبين الإرهابِ سيئ سمعةِ الذي عصف بفرنسا في ١٧٩٣ ، قذف الآلاف للموت تحت المقصلة . وهو محق إذ يرفضُ مثل هذا الشَكّ ، مصرا على أن الماضي يخبر وكذلك يُنيرُ الحاضر - وإهمالنا إياه يعرضنا الدرس المأساوي للثورةِ الفرنسيةِ الذي يُؤكّدُ أندرس أن هذا وقته الصحيح . وهو "**آننا يَجبُ ألا نفترض أننا مستقيمون، وأعداؤنا أشرار**" - احترام حقوقِ الإنسان العالميةِ التي قاتل الثوريون في فرنسا وأمريكا بصعوبة جداً لتأسيسها في القرن الثامن عشر لا يجوز التخلي عنها أبدا .

ويرى سكيور أن فاندي هي قصّة كيف أن المشروع الثوري لبناء نظام حكم مستند على حقوق الإنسان انتهى في فرنسا إلى خطأ كارثي له تأثير سحري لا نهائي . "**الكلمات التي قلناها لن تنسى أبدا**" قالها القديس جوست أحد الثوريين الأكثر

وحشيةً ، على منبرِ الخطابة - وكَانَ ما قاله صحيحا . في الطريق إلى إعدامه ، في السابعة والعشرين من عمره ، يقال إنه أشارَ إلى إعلانِ حقوقِ الإنسان المعلق على حائطِ لجنةِ السلامة العامّةِ ، وقالَ: "مع ذلك، أنا فعلت ذلك" لكن عظمةَ مثل هذه الإنجازِ الباقي تلقي عليه الأعمال الوحشية التي تلته ظلالا قاتمة .

القديس جوست ، كان دائما مع صديقه روبسبير ، أحد مهندسي الإرهاب يدافع عنه كشكل لـ "عدالة صلبة ناجزة" والطريق الوحيد لحماية الثورة من أعدائها . وقد شرع هؤلاء الرجال "قانون الاشتباه" الفظيع ، الذي نظم كل النبلاء السابقين والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون إثبات ولائهم للجمهورية ، وأي شخص آخر عبر عن معارضته للثورة . وفي السجن ، كان طريقه إلى المقصلة قصيرا .

وأندرس يضع هذه الأحداثِ المريعةِ ضمن سياق صراعات الأهلية والأجنبية التي كَانتْ بقسوة تمزق الجمهورية الوليدة إرباً . دَخلتْ فرنسا الثورة حربا مع النمسا في أبريل ١٧٩٢ ، قبل شهور فقط انهيار الحكم الملكي وإعدام لويس السادس عشر لاحقا ؛ وفيما بعد انخرطت معظم بقية أوروبا - مدفوعة باشمئزازها من مشهد إعدام الملك . في هذه الأثناء ، كانت قوات الثورة المضادة ، بتشجيع كهنة عنيدين ، كانت تتجذر في الأقاليم . وعلى خلفية المناخ الذي حاصر باريس من الخوف والذعر وجنون الارتياب المتزايد انقسم الثوريون على أنفسهم . وكانت للفئات المختلفة تصورات مختلفة عما يجب أن تكون عليه الجمهورية الجديدة ، وأصبحت خلافاتهم قتالاً حتى الموت . وانتصر روبسبير على رأس حزب يدعو لمعاداة المسيحية لكن عندما حاول تأسيس دينه الخاص عبادة الكائن الأسمى بوصفه دينا رسميا جديدا أكثر نقاء ، لطخ أوراق عتماده الجمهورية: "انظر إلى التافه؛

أنه غير مكتف بأن يكون سيدا، هو يجب أن يكون إلها" هكذا علق ساخرا شخص ما بين الجمهور المحتشد.

كانت ثقافة "رفض الآخر" إذن مرتبطة بمؤسسي الثورية المعادية للأديان السماوية!

انتهى الإرهاب رسميا بسقوط وإعدام، روبسبير، القديس جوست وأقرب معاونيهم في يوم دافئ في يوليو ١٧٩٤ . لكن انتقام أعداء الإرهابيين الذي أعقبه كان داميا ووحشيا بحكم حقه الشخصي. إنهاء الإرهاب لم يكن بسيطا كقتل الإرهابيين، وستستغرق فرنسا سنوات فرنسا للعودة لشكل مستقر من الحكم.

ولم تكن الكارثة فقط في فاندي التي اتهمت بالعصيان ودفعت في الحقيقة ثم تمسكها بمسيحيتها رافضة عبادة الكائن الأسمى بل كانت عمليات قهر الآخر وصولا إلى إبادته تقع بوحشية في قلب باريس، ففي الثالث من سبتمبر ١٧٩٢ ، ماري تيريز لويز دي كاريجنان سافوي أميرة لامبال، صديقة الملكة ماري أنطوانيت، تم أخذها خارج سجن لا فورس الباريسي وقطع رأسها على يد الغوغاء؛ ثم تم عرض الرأس في الشوارع مثبتا على حربة.

للأيام الثلاثة التالية، وفي جميع أنحاء العاصمة، بين ١٢٠٠ و١٥٠٠ مِنْ سجناءِ الجمهورية الفرنسية الجديدةِ قُتِلوا بقسوة بعد جلسات محاكمة قصيرة في "محاكم" متحيزة متعطشة للدماء، في ما أصبحَ يعرف باسم "مذابح سبتمبر". وأولئك الذين كَانوا مرعوبين من الإرهاب بحيث لم يستطيعوا الرد على أسئلة المحكمة أو لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم دون مساعدة تم تجريدهم من أشيائهم الثمينة ودفعهم خارج الباب ليذبحهم جلادوهم حتى الموت قبل حيث جلاديهم ببساطة ضَربوهم حتى الموت، قبل قذفهم في حفر الجير الحي.

رغم ذلك هل كان الإرهاب (تلك الفترة من الثورة الفرنسية بين ١٧٩٢ - ١٧٩٤ عندما سيطرت المقصلة على راية الحرية بوصفها العلامة المميزة للفترة) انحرافا عن الثورة، أو التعبير الأكثر حقيقيةً والأكثر صدقا عنها؟ أكانت هاتان السنتان كثورة داخل الثورة نتيجة شبه حتمية لمحاولة مأساوية لإحداث تغيير ضخم، اقتصادي وسياسي واجتماعي في مجتمع أوروبي عريق مثل النظام القديم؟

ولا يمكن إنكار أن لويس السّادس عشر أساءَ إدارة الثورةَ بالكامل، خصوصاً عندما حاولَ الهُرُوب من البلاد في يونيو ١٧٩١، لَكنَّه لا يُمْكن أنْ يُلامَ على رعب الإرهاب الذي ارتكبه الغوغاء أعداؤه، (الذين تم تصويرهم دائما بوصفهم "حشودا" من الناس العاملين العاديينِ وعوائلِهم). ماكسيمليان روبسبير ومعاونوه اليعاقبة مَا كَانوا رد فعل بسيط لحماقات البوربون السياسية بل كانوا هم كَانوا يُحاولونَ بشكل نشيط أَنْ يَخْلقوا ما سماه "فضيلة" مزيّةً، ذاكرا: "التخويف بدون فضيلة كارثي؛ الفضيلة بدون تخويف ضعيفة".

كان هذا لبناء عالم جديد شجاع وصنع قطيعة حاسمة مع ما قبل ١٧٨٩، حيث ألغتْ الثورةَ الأحدَ والمسيحيةَ، خالقة بدلا من ذلك تقويما جديدا يبدأ من السنة "صفر". ودينا رسميا جديدا. وهي أعدمت الكثير جدا من الناس لأن هذا كان طريق تطهير وتنقية فرنسا، وصبغها بالفضيلة. لذا فإن تركيز أندرس على الخوف من الثورة المضادة هو نصْف الجواب وحسب، وهو النصف الأقل أهمية. الثوريون كنتيجة لجنون الريبة بل مَا كَانوا يَقْتلونَ خارج الذُعْرِ، لكن لأن اعتقدوا بأنهم كانوا يصنعون عالما أفضل.

وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام الفكرة الشيطانية التي أثمرتها ثقافة "رفض الآخر" وهي أن "التخلص" من الآخر طريق لبناء عالم أفضل.

كوميونة باريس:

وهكذا تحول الثوار إلى رمز للرعب ففي واقعة مثيرة لم يكن لدى المراهق رامبو إلا أن يكتب في مقال مدرسي عام ١٨٧٠ "مارات وروبسبير، الشباب يتنتظرونكما" لتَرويع معلمي إمبراطوريته الثانية . هذان الرجلان كانا ، مع ذلك ، المصممين الأساسيين (مع القديس جوست) للإرهاب الدامي الذي انحدرت إليه المثاليات العالية للثورة الفرنسية قبل حوالي ٨٠ عاما ، والذي كانت كوميونة باريس في ١٨٧٠ تهدد بتكرارها . بعد سَنَوات قليلة ، الجمهورية الثالثة الجديدة كَانتْ تَستعمل شعارات رفعها كل من مارات وروبسبير كشعاره: "حريَّة ، مساواة ، أخوة" ، الجمهورية الخامسة الحالية ما زالت تبقي عليها .

رغم ذلك باسم هذه المقولات ، ومقولات فولتير وتنوير روسو أعدم رسميا حوالي ١٧,٠٠٠ مواطن فرنسي اعتقلوا وحوكموا وسيقوا للموت في دفعات - في أغلب الأحيان في يوم واحد - وربما رأوا عائلاتهم بالكامل قبل نصب منصة محاكمتهم يرسلون قتلى غارقين في دمائهم . لا عجب أن الروح المتسامحة لفرنسا لم تصالح نفسها مع هذه اللحظة التاريخية من الجحيم: إنها لم تزل تغني برقة نشيدها ، المارسيليز (النشيد الوطني الفرنسي) المرعب . وبين كل مفردات الرعب التي حفل بها معجم هذه الفترة كانت لجنة تنفرد بوقع خاص هذه اللجنة الشريرة "لجنة السلامة العامة" التي حسمت المنافسة اعتمادا على المحاكم الثورية التي حَرمت الدفاع من حق الاستعانة بشهود أو دليل مؤكد . ورغم الكلام الرنان عن نور العقل ، وتلك بدعة آخر القرن الثامن عشر المبهجة للوجدان ، وقد تجلت قمة بشاعتها في القاضي فوكيه تينفيل المتعصب بشكل مميت ، فيكفي "شعوره" ليحدد ما إذا كنت تستحق الإعدام ، وكل هذا باسم ما أطلق عليه القديس جوست "المصلحة العامة" .

لكـن هـذا كَـانَ الإرهـابَ "المتأخّرَ" ، عندما التهمت ماكينة القتل أولئك الذين "انتقدوا أتباع روبيسبير حتى تلميحا" وفي الواقـع كل واحد تحرك . بَدأَ الإرهابُ تقريباً قبل ذلك بعامين في ٥ سبتمبر ١٧٩٣ ، في يوم أطلق كسوف كبير شفقا أحمر مخيفا . في صراعها من أجل البقاء ضد أعدائها في الداخل والخارج ، رأت الجمهورية الآن مظاهرة شعبية هائلة ضد ندرة الخبز ، الذي استولى عليه المتجمهرون العراة بالقوة . الجمعية الوطنية (الكائنة في قصرالتويلري سابقا) حوصرت . وأعلن موفد اليعاقبة: "هذا وقت تُعمِل فيه المساواة منجلها في كل الرؤوس. لقد حان وقت ترويع كُلّ المتآمرين. ولذا فإن المشرعين وضعوا الإرهاب على جدول أعمال اليوم" .

ويرسم أندرس صورة مرعبة للمأساة ، فالسجناءُ المنكوبون مرنوا أنفسهم بكل ذرة في أجسامهم حتى لا يصدمهم مواجهته عندما تحين لحظته . أفراد العائلة المالكة كانـوا ، للأسـف ، أبطـالا بـارزين قبل المذبحة الوطنية . وقتلهم – وضمنهم وريث العرش ذو الثمانية أعوام ، الفقير لويس تشارلز ، الذي ذوى وحيدا في زنزانة قذرة مليئة بالفئران وكذلك إحلال **الكائن الأسمى** أو محل إله الكاثوليك ، الخالق الذي كان يؤمن به "الفاضل" المستقيم روبسبيير .

وهـناك بعـد آخـر عـند تـناول فاندي هو وضعها في سياق تاريخ تطور ظاهرة إبـادة الآخـر ، فهناك تقنيتان أساسيتان لتنفيذ القتل الجماعي إحداهما أن تثير ثائرة الغـوغاء لارتكـاب مجزرةٍ عـشوائية ، بيـنما الأسـلوب الأكثـر تعقـيدا يـستخدم الأيديولوجيا لتجريد الناس من إنسانيتهم والمحاكم لإضفاء مشروعية على إعدامهم والتاريخ الإنساني مليء بكلا الأسلوبين . وحديثا جداً ، استخدم الأسلوب القديم لتنفـيذ الإبـادة الجماعـيةِ في روانـدا ؛ بيـنما الأحـدث كـان مفـضلا خـصوصا من سـتالين . لكـنها الـثورة الفرنـسية الـتي اخترعـت التقنـية الـتي تبنتها بعد ذلك كل

الأنظمة الغاصبة للسلطة من سان بطرسبرج ١٩١٧ إلى سانتياغو السبعينات ؛ إرهاب غوغاء للاستيلاء على السلطة ، وإرهاب بيروقراطي لدعمه .

وهذا الإرهاب البيروقراطي شيء قريب من حملات التطهير الأيديولوجي فعند إعدام لويس السادس عشر لم يكن هناك على الأرض سلطة عليا سوى جمعية وطنية منتحبة من الناس بأغلبية هزيلة وهكذا اخترعت فكرة "أعداء الشعب" . ووجدت الفكرة ساقين تمشي عليهما ، فمثلا لينين وتروتسكي تعلما من الفرنسيين اغتصاب السلطة عبر رفع شعارات بلاغية وتعطيل الديموقراطية وفرض الإرهاب . وهم ادعوا الحق في التعبير عن الجماهير الصامتة الأمية وبعد ذلك التخلص من الأعداء نيابة عنهم ، وهو منطق يربط بين روبسبير وبول بوت مرورا بستالين .

والطريقَ بسيطُ: خذ موقعك المتميز وعزز جماهيريتك وإذا أحبطك رد فعل المعارضة تقنع نفسك بأنك نخبة طليعية وبأن معارضيك يفتقرون للاستنارة السياسية والنتيجة بناء على ذلك أن معارضيك أعداء لمبادئ الثورة ثم ابدأ في إعدام الناس . وعلى العكس ، إرهاب فرنسا العظيم ، لم ينفصل أبدا عن جذوره في حركة التنوير في القرن الثامن عشرِ لقد جَعلَ الحرية وثنا ، وهو ما عزز على نحو ظلامي التلاعب بحكم القانون . وينهي أندرس قصّته ، لكن لَيسَ قبل اقتفاء الظِلّ الممتد الإرهاب الفرنسي ، فقد أثبتت الثورةُ الفرنسية بالبرهان أنْ الهمجيةُ المُتعطشة للدماءُ ما كَانتْ فقط نتاج عصور الظلام . فالإنسانية صمّمتْ على جَلْبها إلى العصر الحديثِ وألبستها أثواب القوانين والدساتير .

من ناحية أخرى يتوقف أندرس أمام النموذج القاسي المستكبر كحامل لهذه الثقافة العدوانية ، خُذْ مثالَ روبسبير ، صَعد المحامي الشاب الموهوب إلى السلطة ، محاطا بهالة سمعته كشخص مستقيم بلا أخطاء . وقد أعاد تشكيل الحركةَ التي

انـضم إلـيها ، بـتطهيرها مـن المعارضـين وإحاطـة نفـسه بدائـرة ضـيقة مغلقـة من العقائديين المتشددين . لَكنَّه كَانَ صلبا كان لا يَستطيعُ تحمل فكرةَ قابليته لأن يخطئ بقى أكثر مما ينبغي وفي النهاية قطع رأسه .

الأيديولوجيا وثقافة رفض الأخر:

وفي إطـار التميـز الـذي أشرنا إليه في بداية هذا الفصل بين الثقافتين الأوروبية (الفـرنكفونية) والأنجلوفونـية ظهـرت مدرسـة في الدراسات الإنسانية الإنجلوفونية تحمـل الأيديولوجـيات ذات الخلفـية التنويرية – أي التي تأسست على مثل التنوير الأوروبي وفكر الثورة الفرنسية – المسئولية عن إبادة "الآخر" بوصفها أعلى أشكال "رفـض الآخـر" في الـسلوك الإنـساني . وتحـت عـنوان "**الـتأريخ الاقتصادي للقرن العـشرين: الإبـادة الجماعية**" كتب الأكاديمي الأمريكي جي برادفورد دي لونج عن علاقة الأيديولوجيات التنويرية عن الإبادة في القرن العشرين .

ويـرى بـرادفورد أن التحـسن الملحـوظ في القـدرات التقنية الإنتاجية للإنسان والقـوى التقنية والتنظيمية ظهرت خلال القرن العشرين كان فعليا تحسنا خالية من القـيم ، والقـرن الـذي قـد شـهد الـنمو الاقتـصادي الأسرع والمجتمعات الإنسانية الأغنى على الإطلاق شهد أيضا أعظم جرائم الإبادة الجماعية على نحو مضاعف ، فالجـرائم الأكـبر في الـتأريخ الإنـساني ارتكبت والمجرمون الأكثر بشاعة على مدى التاريخ ، عاشوا خلال المائة سنة الماضية .

وتُقـدّمُ الجـداول التالـية بـضعة تقديـرات مـن "R . J . Rummel's Death by Governments" وهـو كـتاب أخـذ علـى عاتقـه مهمـة متجهمة هيَ مُحَاوَلَةِ تقديم حساب تقريبي لضريبة الموت العنيفة تقريباً في القرنِ العشرين . ورُوميل يستثني من إحصاءاته لضحَايا الإبادة القتلى الذين حصدتهم الحروب وكذلك من ماتوا بشكل

"عرضـي" مـن المدنـيين في أوقـات الحروب (وهي: الوفيات نتيجة ما يمكن تصنيفه عمليات عسكرية ضد القوّات المسلحة للعدو أما التدريبات العسكرية مثل القصف العسكري اللّيلـي البريطانـي للمـدن الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية فيحسب ضـمن حلقـات الإبـادة الجماعـية) . تقديرات روميل لضحايا الإبادة الجماعية هي فقط لمن قتلتهم حكومات في غير أوقات الحرب أو بعيدا عن خطوط القتال .

الوفيات نتيجة العمليات العسكرية في هذا القرن شنيعة بما يكفي: فالحكومات وجنودهم قَتلوا ربما أربعين ومليونا من البشر في الحرب ، كانوا إما جنودا شاء سوء حظهـم أن يكونـوا في جـيوش القـرن العـشرين الـضخمة أو مدنـيين قـتلوا خلال عمليات يعلن القادة أنها استهدفت تقليص القدرة العسكرية للعدو .

المدنيون الذين قتلتهم الحكومات خلال القرن العشرين :

لكـن الأنظمـة الـسياسية العـشرون الأعلـى قـتلا قـتلت - تقـريباً - ١٥٦,٠٠٠,٠٠٠ - مدنـي في هـذا القرن (القرن العشرين) . بينما الحروب كَانتْ خـسائرها أقـل مـن ربـع هذه الضريبة الباهظة بعيدا عن ميادين القتال وفي فترات الـسلم ، فـبعض حكـومات هذا القرن أيديها ملطخة بدماء: أعداء طبقيين ، أعداء عـرقيين ، أعـداء سياسـيين ، أعـداء اقتـصاديين ، أعداء متخيلين سمهم أنت ، وقد ذبحتهم حكوماتهم بالمعنى الحقيقي .

دعـنا نـسمي أولـئك الـزّعماءِ الـذين ذبحـت أنظمتهم أكثر من ١٠ ملايين من إخوتهم في الإنسانية "أعضاء نادي العشرة ملايين" . كل التاريخ السابق على القرن العـشرين قد يكون (وقد لا يكون) قَدْ رَأىَ عضوين فقط من أعضاء "نادي العشرة ملايين": جنكيز خان ، حاكم المغول في القرن الثاني عشرِ ، الذي انطلق في غزوات دّموية كبيرة من قلب آسيا والصين ، ومؤسس سلالةِ يان الصينية الحاكمة (رحلات

ماركو بولو وصلت بلاط إمبراطور يان ، قبلاي خان) ؛ وهونغ كسيوكوان ، مفكر الصين في منتصف القرن التاسع عشر الذي أعلن نفسه أخا أصغر للسيد المسيح وأطلقَ التمرّد المسلح في تيبينج . ولا يوجد فردٌ بعينه لَعبَ دورا هامّا في خلق ونموِ تجارة العبيدِ الأطلسيةِ الحديثةِ المبكّرةِ ، أو في استغلال المرضِ على نحو مخطط لإبادة السكان الأصليين في الأمريكتين . أولى هاتين الحلقتين التّاريخيةِ كَانت إبادة جماعية "سوبر" بامتياز الثّانية - ليس على وجه التأكيد - قد تكون فقط إبادة جماعية .

بالمقارنة ، القرن العشرون شهد ربما خمسة أعضاء من نادي "العشرة ملايين": في أولهم بالترتيب الأبجدي:

أدولف هتلر

تشيانج كاي شيك

فلاديمير لينين

جوزيف ستالين

ماو تسي تونج .

هتلر ، ستالين ، وماو لديهم أوراق اعتماد تؤهلهم لعضوية نادي الثلاثين مليونا بل ربما حتى نادي الخمسين مليونا على نحو جيد . معرفتنا بما حدث داخل الصين ، الاتحاد السوفيتي ، والرايخ الثالث ناقصة جداً . ونظام دموي أياديه ملطخة بالدم مثل نّظام سوهارتو في إندونيسيا الذي تلطخ يديه دماء حوالي ٤٥٠,٠٠٠ شيوعي ، مشتبه في أنهم شيوعيون ، وآخرون كانوا ببساطة في المكان الخطأ في الوقت الخطأ عند نشأته عام ١٩٦٥ ، وربما ١٥٠,٠٠٠ من سكان تيمور الشرقية التي استولىَ عليها بالقوة منتصف السبعينات ، مثل هذا النّظام يَجْعل قائمة الأكثر

في القرن العشرين الأكثر قتلا بالكاد تثير القلق على إبادة المدنيين .

أصول الإبادة الجماعية في القرن العشرين:

ويرجع البعض بدايات ثقافة الإبادة الجماعية في القرن العشرون ، للانقلاب في القواعد التقليدية للحرب الأوروبية التي ميزت بشكل حاد المقاتلين عن غير المقاتلين . في حرب البوير عند منعطف القرن في جنوب أفريقيا وجد الجيش البريطاني نفسه في مواجهة موجه عنيدة من حرب العصابات هزيمة الجيوش النظامية لجمهورية البوير . الجيش البريطاني رَد باختراع معسكر الاعتقال كما نَعْرفه: تقليل سكان الرّيف وحِشد المدنيين معا . وانتشر المرض وكانت الوفيات عالية نسبيا رغم أنها الأقل بين كل الحالات المماثلة في القرن العشرين .

الآخرون اقتفوا آثاره في مدح العنف الذي رَافق دائما الاشتراكية في نسختها الماركسية . في كتابات ماركس ، المؤسسات السياسية الديموقراطية ، الحقوق الفردية ، والحوار العام دائما أقنعةٌ وأكاذيبُ في غياب المساواة الاقتصادية الجوهرية ويجب محاربتها بعنف مثل إقطاعيي القرون الوسطى الذين كانوا يذبحون الفلاحين إذا عجزوا عن دفع إيجارات أراضيهم .

آخرون يرجعونها (ثقافة الإبادة الجماعية) إلى الثّورةِ الفرنسيةِ كبرى ثورات القرن الثامن عشرِ ، إلى فلاسفة سّياسيين مثل جان جاك روسو ، وإلى الفكرة التي مفادها أي حزب سياسي يمثل الأمة يخوض صراع حياة أو موت مع العدو فلا يجوز النقاش بشأن وسائل الصراع . وآخرون يقولون إنها (الإبادة الجماعية) كانت تحدث دائما ، لكن قبل القرن العشرين كانت الحكومات والديانات عموماً بسبب نَقص قدراتها التّنظيمية ، كان النقص بالتأكيد حافزا لإبادة عشرات الملايين من إخوانهم . كان بإمكانهم إدارة مذابح ، تطهير ، إحراق ساحرات بشكل جزئي ،

ووحده غياب تقنيات الاتصال الحديثة والمنظمة ما حال بينهم وبين انتقالهم لهذا الحجم الضخم من مذابح الإبادة الجماعية كالخمير الحمر . كان أسقف كاثوليكي فرنسي هو من قال عندما سئل كيف تمييز الزّنادقة من المؤمنين الحقيقيين في مدينة تم الاستيلاء عليها حديثا ، ويقولون إنه قال: "**اقتلهم جميعا! الله سيتعرف على عباده .** "

وهناك بعض الحقيقة في كل من هذه التّفسيرات . كمثال ، ممارسة لجنةِ روبيسبير للسلامة العامّة خلال الثّورة الفرنسية في إعدام ليس فقط الزّعماء لكن أيضا أبتاع وعائلات معارضيهم السّياسيين (ممارسة روبسبير انقلبت عليه عندما استخدمها ضده خصومه السياسيون بمجرد أن أمكنهم ذلك) ، وممارسات الجيشِ في إخلاء السكان من المناطق المتململة مثل فاندي (فنديه) الفرنسية الغربية ، وممارسة إجراء محاكمات معدة سلفا لإضفاء قشرة رقيقة من "المشروعية" وبناء عليها تنفيذ عمليات قتل سياسي ، كل هذه الممارسات تجد أصلها في الثورة الفرنسية .

الحلقتان الرّئيستان الأوليان الإبادة الجماعيةِ في هذا القرنِ ، ربما المليون فلاح الذين قتلوا في روسيا في العقدين الأخيرين من حكم النّظام القيصري وما يناهز المليون مدني الذين ماتوا في العام الأخير من حكم الرئيس بورفيريو دياز وسنّوات الثّورةِ في المكسيك ، ويشبهان إلى حد بعيد الاستعمال التّقليديِ للعنف على يد أرستقراطية لتحافظ على القوة والثروة .

لكن القدرة الأكبر للحكومات على تخطيط وتنفيذ عمليات تطهير ، وحدة الصراعات الإثنية وصعود العنف القومي لم تكن كافية معا لإطلاق شرارة الإبادة الجماعية التي شهدها هذا القرن . لقد تطلب هذا وجود حركتين سياسيتين: الشيوعية والفاشية وكلتاهما كانت في صميمها حركة ذات عقيدة اقتصادية .

الشيوعية والنازية:

الشيوعية كما نعرف كان مولدها عندما استولي في نهاية ١٩١٧ جناح فلاديمر لينين المنشق عن اليسار الروسي "البلشفي" أو ما كانوا أغلبية الحزبِ الدّيموقراطي الاجتماعي الرّوسي الموحّد، موجهين ضربة لحكومة كيرينسكي المؤقتة. حرب أهلية وحشية تَلت ذلك، فالـ "بيض" مؤيدو القيصر والأوتوقراطية المحلية يَطْلبون استقلالا فعّالا، وأتباع لينين الـ "حمر" ومعهم قوات أخرى ضالّة ضمنها جيش تشيكي وجد نفسه في البداية محاصرا ثم حاكما فعليا لسيبيريا، وكتائب يابانية (الولايات المتحدة أرسلتْ كلا الفريقين بهدف تحرير أرض تكون قاعدة للقوات المعاداة الشيوعية، ولتوفير إمددات غذائية لسكان المناطق التي يحكمها الشيوعيون)، وهؤلاء، قاوموا لثلاث سنوات تالية في معظم روسيا.

عندما انتهت الحرب الأهلية كان نظام لينين يحكم. القادة العسكريون للنظام القيصري كانوا أمواتا أو منفيين في باريس أي وسط ليبرالي ديموقراطي ليبرالي اجتماعي تم تطهيره (التخلص منه) على يد "البيض" أو "الحمر" خلال مسار الحرب الأهلية. والمجموعة الصّغيرة نسبيا من الغوغاء الذين تجمعوا تحت راية لينين قبل الثّورة وَجدوا أنفسهم أمام مشكلة إدارة دولة وبناء مدينة فاضلة (يوتوبيا) بمساعدة أولئك الذين قاموا بالدعاية لـ "الحمر" ومن وقفوا ضد "البيض" ومن ارتبطوا بهتلر خلال الحرب الأهلية.

أول ما واجه نظام لينين كان ضرورة إزالة الرّأسمالية. طبقاً للنّظرية الماركسية التي آمن بها لينين بعمق، الرأسمالية - الملكية الخاصة للأعمال والأرض من الأعمال والأرض، والمنفعة الشخصية - كَانت مصدرَ التّفاوت الطبقي أو الاستغلال. لكن كيف يمكنك إدارة صناعة وحياة اقتصادية في أصحاب الأعمال

ممن تعتمد دخولهم ومستوياتهم الاجتماعية بشكل مباشر على ازدهار المشاريع الفردية ، ومثل هؤلاء لديهم الحافز لأن يصنعوا ، الجزء الذي يخصهم من الاقتصاد والقوة المنتجة .

جواب لينين كان أن تنظم الاقتصاد مثل جيش: من أعلى لأسفل ، مخطط ، هرمي ، خطط معدة ، مدراء أقل كفاءة ينجزون المهام التي تقررها القيادة ، وكان لينين معجبا باقتصاد الحرب الألماني المخطط مركزيا في الحرب العالمية الأولى . الأمر الثاني الذي واجه نظام لينين كان تصنيع روسيا . خائفا من أن القوى الصناعية الكبرى قد تقرر أن تزيل نظامه ، وييأس من يدرك درجة تخلفه الصناعي ، بدا للينين وأتباعه أن جعل النظام العسكري في خدمة التصنيع كان أساسيا .

الأمر الثالث كَانَ أَنْ يبقى نظامه . وكما كتب المؤرخ البريطاني إيريك هوبسباوم عن نظام لينين: "كما يعترف لينين... كل ما كنا نسعى إليه هو ما كان في الواقع... المؤسسة الحاكمة للدولة. ولا شيء غير ذلك. مع هذا، من حَكم البلد في الحقيقة كان ضعف الفئات البيروقراطية الصغار والكبار... " وحتى تبقى حكومة لا يوجد فئات اجتماعية قوية أو جماعات مصالح يربطها بها أسباب للموالاة العقائدية فإن الأمر يتطلب الكثير من القسوة .

قمع هائل مورس ليس فقط ضدّ المجتمع خارج الحزب الشيوعي لكن ضد نشطاءِ الحزب الشيوعي نفسه . أي "اقتصاد بالأمر" ظهر لكونه من متطلبات "حكم بالأمر" أيضاً . ربح الحزب الشيوعي الحرب الأهلية الروسية كحزب دكتاتوري واحد مدعوم بشرطة سرية قوية وعدوانية ، التزمت استعمال الإرهاب الجماعي لقمع أعداء الثورة ، ولمنع ظهور ديمقراطية أو حوار داخلي لمناقشة إدارة الدولة وسياستها .

وكما حذرت الماركسية الألمانية روزا لكسمبورغ ، العملية تبدأ بالحكم باسم الناس ، ثم إحلال عدالة الحزب الشيوعي محل رغبات الناس ثم إحلال قرارات اللجنة المركزية محل العدالة الثورية ، ثم إحلال نزوات الديكتاتور محل قرارات اللجنة المركزية. والدكتاتور الذي ربح الصراع على السلطة بعد موت لينين - جوزيف ستالين - كان شخصية سيكوباتية مصابا بجنون العظمة ، وقد جعل إرهاب لينين يبدو معتدلا ومقبولا .

الفلاحون أطلق عليهم النار وماتوا من المجاعة ونفي الملايين منهم إلى معسكرات السخرة في سيبيريا بالملايين في الثلاثينات . عُمّال مصانع أطلق عليهم النار أو نُفُوا إلى معسكرات السخرة في سيبريا لإخْفاقهم تحقيق معدلات الإنتاج المفروضة من القيادة . مثقّفون أطلق عليهم النار أو نُفُوا إلى معسكرات السخرة في سيبيريا لأن ولاءهم لستالين غير كاف ، أو لانحيازهم لسياسات أعلنها ستالين في العام السابق وتبين أنها ستؤدي لتغيير بطيء . نشطاء شيوعيون ، بيروقراطيون ، وشرطة سريون ، أكثر مِنْ خمسة مليون مسؤول حكومي وأعضاء حزب قتلوا أَو نُفُوا في حملةِ التطهير الكبرى في الثلاثينات أيضاً . كُل أبناء جيل ستالين ممن كانوا في السابق مساعدين للينين رحلوا بنهاية الثلاثينات . المندوبون الـ ١٨٠٠ إلى مؤتمر الحزب الشيوعي عام ١٩٣٤ ، أقل من نصفهم كان على قيد الحياة بحلول عام ١٩٣٩ .

وفي موسوعته "اليهود واليهودية والصهيونية" للدكتور عبد الوهاب المسيري يتوقف أما جرائم ستالين مشيرا إلى عمليات الإبادة التي قام بها النظام الستاليني ضد الشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية) . وكان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا ، أما الآن فهو لا يُكوِّن سوى نسبة مئوية ضئيلة ، ومصيره بهذا لا يختلف كثيراً عن مصير

السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية . وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة لأعدائه الطبقيين مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية ، بل تم إبادة كثير من أعضاء الحزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور . وكانت الإبادة تأخذ أشكالاً مختلفة مثل الإعدام والعمل في معسكرات السخرة . وقد بلغ عدد الضحايا ٢٠ مليون مات منهم ١٢ مليون على الأقل في معسكرات الجولاج: هذا حسب التقديرات المحافظة ، أما أعداء النظام الستاليني فيقولون إن عدد الضحايا بلغ ٥٠ مليوناً! وبعد حوالي نصف قرن لا تزال عمليات الإبادة والتطهير العرْقي على قدم وساق في البوسنة والهرسك والشيشان ولا تزال بعض الدول الغربية تراقب هذا بحياد غير عادي . إبادة الآخر إذن آلية أساسية استخدمها التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي في تحقيق رؤيته ومثالياته .

ونحن حقيقة لا نعرف كم عدد الناس الذين ماتوا على يدي النظام الشيوعي في روسيا . بينما يَكْتبُ باسيل كربلاي في مجتمعِه السوفيتِي الحديثِ ، نَعْرفُ أكثر عن عدد الأبقار والخِراف في الثلاثينات أكثر من معرفتنا عن عدد من ماتوا من معارضي ستالين ، الأعداء الوهميون (المتخيلون) ، والمتفرجون الذين قتلوا . آر . جي . روميل يقدر العدد بـ ٦٢ مليون ميت .

وقصّةَ ماو في الصين مشابهة لقصّةِ ستالين في روسيا: نفس الالتزام عديم الرحمة باسْتِعْمال أي وسائل ضرورية لإعادة صنع المجتمع والإبقاء على حكم الحزب الشيوعي ، نفس الرغبةِ في الهيمنة على كل القوى الاجتماعية الأخرى وبناء الاقتصاد والحياة الاجتماعية بشكل مركزي ذي تنظيم شبه عسكري ، نفس أوهامِ العظمةِ والشعور بالاضطهاد . مُساعدو ماو كانوا ربما أفضل مِن مساعدي ستالين

في محاولتهم إبعاده عن السلطة بهدوء ليصبح منصبه رمزيا: ليو تشاو تشي ودينج سياو بنج اعتقدا بأنّهم أنجزوا ذلك إثر النتائج الكارثية التي نجمت عن السياسات الاقتصادية للخمسينات التي أدّتْ إلى مجاعة ضخمة قَتلتْ عشرات الملايين. لكن رغبةَ مُساعدي ماو في السيطرة على زعيمهم المذعور أطلقت شرارة الثورة الثقافية، ضربة ماو المضادة التي فيها حشّدَ الشباب والعقائديين المتطرفين ضدّ الهيكل التنظيمي للحزب الشيوعي، وفي النهاية ببساطة زادت الخسائر في الأرواح.

ثالث زعماء الأنظمة السياسية الأكثر قتلا في القرن العشرين، أدولف هتلر في ألمانيا النازية، ربما لم يجار أيا من نظيريه: ستالين وماو في طول استبداده، لكنه بالتأكيد كَانَ سيدَهم في الشر. صنع جماهيرية على ساحة السياسة الألمانية باستغلال الاستياء القومي من أولئك الذين هزموا ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ومحنة الكساد الاقتصادي العظيم. اكتسب قوة بهزيمة السياسيين اليمينيين الذين أدخلوه الوزارة لزيادة رصيدهم في الشارع..

وبسرعة حول ألمانيا إلى دكتاتورية شمولية مركزية، وكانت فيها، نظرياً على الأقل، كُلّ المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية "منضوية" تحت الحزب النازي. "ما الذي نحتاجه لجعل الصناعة أو الزراعة جماعية؟ أن نجعل البشر جماعيين"!

وحتى بداية الحرب العالمية الثانية كان الإرهاب، بمعايير القرن العشرين، صغيرا نسبياً: قتل، سجن، مضايقة اليهود، نشطاء معارضون سياسيون، شوادٌ جنسياً، وبعض المعاقين والمرضى العقليين. بعد بداية الحرب العالمية الثانية، دارت ماكينة الإبادة وتحركت على نطاق واسع. البعض عملوا حتى الموت في معسكرات السخرة ووضعوا تحت تصرف شركات ألمانية مثل كروب وآي. جي. فاربن. البعض أطلقت النار عليهم فرق إبادة متنقلة. وكثيرون أطلق الجيش النار عليهم

وهـم بعـيدون تماما عـن خطـوط القـتال . الـبعض تـركوا للمـوت في معسكرات الاعتقال . وكثيرون آخرون على خطوط التجميع في معسكرات الإبادة .

بالنـسبة لـستالين ومـاو يمكـن الإشـارة إلى أسـباب - أسـباب مجنونة وأفكار خاطـئة ، هـذه حقيقة ، لكنها رغم هذا تبرر - فتصرفاتهم وأعمال القتل التي قاموا بهـا يـوجد إحـساس بأنهـا في الـنهاية أهداف نشترك معهم فيها من الازدهار العام والتنمـية الإنـسانية وسبب اختيارهم الطريق الذي يقول عنه الشاعرَ دبليو . إتش . أدن "قـبول تحمـل الـذنب عندما يكون القتل ضروريا" . وكانت هناك حاجة للثورة الثقافـية في الـصين لإبقائهـا بلـدا شـيوعيا يمكـن أن يـصبح يـوما مـا مدينة الحرية والمـساواة الفاضـلة . ولمـنعها مـن الانحطـاط إلى ديكتاتورية بيروقراطية مثل الاتحاد الـسوفيتي . الـذبح الجماعي لفلاحي أوكرانيا كان ضروريا لأن زراعةً مستندة على المـزارع الخاصة والحيازات الصغيرة بدلاً من مزارع جماعية وزراعة مميكنة تكن أبدا لتنـتج الـزيادة الإنتاجية الكافية لإشباع سكان مدن كانت تنمو بسب عملية تصنيع الاتحـاد الـسوفيتي . هـذه التبريـرات كانـت خاطـئة - خاطئة بشكل مجنون - لكن التنمية الاقتصادية وتجنب الاستبداد البيروقراطي أشياء جيدة .

لكـن ماذا عن هتلر؟ قتل في معسكرات الاعتقال ، معسكرات الإبادة ، العمل الإجـباري ، قـتل سـتة ملايـين يهـودي ، وملـيونين مـن جنسيات متفرقة في غرب أوروبـا ، واثـني عـشر ملـيونا تقريبا من أوربا الشرقية بالإضافة إلى الوفيات المترتبة علـى الحـرب العالمـية الثانـية؟ لمـاذا؟ لتقلـيل احتمال أن يكون "العرق" الألماني قد تلوث بفعل الزواج المختلط ، ولتوفير "فضاء للحياة" للمزارعين الألمان .

سـتالين ومـاو مـا زال لـديهما مـن يدافعـون عنهما: الناس الذين يرفعون يدا واحدة معترفين بأنه "ليس هناك شك في أنه تحت حكم قائد أخر [غير ستالين] . . .

معاناة سكان [جمهوريات الاتحاد السوفيتي] كَانَ يمكنُ أَنْ تكون أقل ، عدد الضحايا كان يمكن أن يكون الضحايا" ؛ ومن ناحية أخرى يكتبون باليد الأخرى:

أي سياسة للتحديثِ السريعِ في الاتحاد السوفيتي . . . كانت حتما ستكون قاسية ، ولأنها مَفْرُوضَة قسرا على الأغلبية وتفرض عليهم تضحيات خطيرة ، إلى حد ما قسرية . . . فهي أقرب إلى عملية عسكرية منها إلى مشروع اقتصادي . من ناحية أخرى . . . التَصْنيع الخطر في الخطط الخمسية الأولى (١٩٢٩ - ٤١) صنعه كل "الدم ، الكدح ، الدموع ، والعرق" المفروض على الناس . . . الذين تم تشجيعهم على التضحية بأنفسهم .

هتلر ، على أية حال ، ليس لديه من يدافع عنه ، ليس لديه واحد ليدعي أنه ربما استعمل وسائل مفرطة للوصول لنهايات الجيدة . أهدافه النهائية - النقاء العرقي الآري للشعب الألماني ، و"فضاء حياة كافٍ" تحت تصرف الأمة الألمانية لتتمكن من السيطرة على العالم - بعيدة ، بعيدة ، بعيدة خارج حدود ما يمكن تبريره .

العقيدة الاقتصادية والقتل السياسي:

ما الأثر الذي تفعله هذه الدموية السياسية وهذا التاريخ للبوليس السري في بالتاريخ الاقتصادي ، بقصة كيف ينتج ناس ، ويوزعوا ويستهلكوا سلعا يحتاجونها وأخرى يرغبون فيها لحياة أفضل ماديا .

أولاً ، احتمال أن تطرق الشرطة السرية بابك وتَسْحبُك للتعذيب والموت تهديد خطير لمستواك المادي . فيلسوفُ القرن السابع عشر السياسي توماس هوبز كتب أن الناس يمكن تحفيزهم بالعصا والجزرة: "الخوف من موت وحشي والطموح لحياة أفضل" . وفي قرن يكون فيه احتمال اختيار

شخص عشوائيا ليقتل برصاصة أو ليموت جوعا على يد الحكومة اقتربت من ٥٥% . وحقيقة النطاق الواسع للقتل السياسي أصبحت سمة مهمة جدا للحياة اليومية ، وللحياة المادية الأفضل .

ثانيا: القرن العشرون فريد في أن ما شهده من: حروب ، حملات تطهير ، مذابح ، وإعدامات ، كان جزءا من الصراعات الاقتصادية . قبل القرن العشرين قتل الناس بعضهم بعضا لأسباب دينية: أهل الجنة وأهل النار ، كما قتل بعضهم بعضا في الصراع على القوة: من يكون القوة المهيمنة ، وأيضا للسيطرة على الثروات المادية للمجتمع . وهذه الدوافع ، إلى حدّ ما ، مفهومة . لكن القرن العشرين وحده قتل الناس بعضهم بعضا على نطاق واسع لاختلافهم حول التنظيم الاقتصادي للمجتمع .

الشيوعية رأت نفسها نمطا طوباويا من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي ، فدخلت صراعا مميتا مع الأنماط الأخرى "الرأسمالية" و"الإقطاع" . ومعارضو الأنظمة كان يجب أن يموتوا لأن وجودهم القوي كان يعزز موضوعية أشكال التنظيم الاقتصادي المضادة ، ويمنع إنجاز الازدهار واليوطوبيا العالمية . النازية في أصولها كانت "اشتراكية وطنية": حزب العمال الوطنيين الاشتراكيين الألمان . هؤلاء النازيون اعتبروا "الاشتراكية" دلالة قويا على رغبة جدية من ناحية الحكومة النازية في توزيع متساو لأموال من ماتوا في حملة التطهير عام ١٩٣٤ ، بعد عام ونصف من قوة هتلر . لكن خطاب معاداة الرأسمالية بقي – كان من ثوابت الدعاية الألمانية المقارنة الدائمة بين عمال ألمان مهرة وممولين يهود ذوي دم ملوث . وكان تبرير النازيين لاستيلائهم على السلطة يجد جذوره في كل من: الرغبة في محو عار هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى (معاهدة الحدود المجحفة التي فرضها عليها

المتنصرون) وفي الفقر المحبط الذي سببه الكساد العظيم، دافعا جمهورية فايمار الليبرالية للإفلاس السياسي.

العقائد الاقتصادية للشيوعيين والنازيين لم تلعب دورا هاما لا في تعزيز قوتهم ولا الحفاظ عليها. إن رئيس الحزب الشيوعي السوفيتي في قرية أوكرانية يظل متحكما في كل بقرة مملوكة ملكية فردية أو جماعية. لينين وخلفاؤه واجهوا مشكلة صغيرة في الإبقاء على سيطرتهم السياسية خلال العشرينات، حقبة "السياسة الاقتصادية الجديدة" التي سمح الحزب فيها بإحياء المبادرة الفردية الخاصة. وعيوب محاولة إخْضاع الحياة الاقتصادية للتخطيط المركزي الوطني كانت واضحة منذ وقت مبكر في النظام. قوَّة الحكومة النازية اعتمدت على طريقتها في استخدام الشرطة وعلى الإرهاب. نزع ملكية المشاريع اليهودية، جمع معظم الصناعة في يدي الشخص الثاني في القيادة هيرمان جورنج، ومحاولة فرض التخطيط المركزي لأغراض عسكرية لم تُساعد النظام النازي: نجاحه في تعبئة الموارد الاقتصادية الوطنية للحرب العالمية الثانية كانت أقل مما حقق ستالين في روسيا، وتشرشل في بريطانيا، أو روزفلت في أمريكا.

لكن هذه العقائد الاقتصادية لعبت دورا هائلا في خلق وتنشيط الحركات، وفي توجيه أعمالهم وهم في الحكم. سيطرة دينج زياو بنج على الصين لم تضعف قراره أن يكون واقعيا: بإعلانه أن القط الجيد هو الذي يمسك الفئران وليس الذي يتفق لونه مع الأيديولوجيا. القوة، الحالة الشخصية، والخلاص الأبدي كان تأثيرها قليلا في التحول السوفيتي للزراعة الجماعية، أو القمع الكوبي للأسواق الصغيرة، أو كارثة قفزة ماو الكبيرة للأمام. هذه كانت في معظمها وظهرت بالتأكيد على السطح لتكون محاولات لتغيير الاقتصاد ليلبي الحاجة لإعلان أن هذه العقيدة أو

تلك ضرورية . كوارث القرن العشرين الأخرى كان لها جذور قوية في الأفكار الاقتصادية: من الصعب رؤية الحرب العالمية الثانية في غياب فكرة أدولف هتلر أن الألمان يحتاجون لأرض أوسع سماها "المجال الحيوي" أكثر إذا أرادوا أن يصبحوا "أمة قوية" ؛ معتقدا أن المستعمرات وراء البحار أمدت زودت القوى المتنافسة قبل الحرب العالمية الأولى بقوى اقتصادية جبارة .

لذا فإن جزءا مهما جداً من تاريخ القرن العشرين هو حقيقة أن أسباب إراقة الدماء يرجع معظمها للعقائد الاقتصادية ، والعقائد المتصلة بالعالم: كيف يعمل ، وكيف يجب أن ينظم .

* * * * *

الفصل الثالث:

صورة الإسلام والمسلمين في الغرب كنموذج لثقافة رفض الآخر

في خضم حرب الخليج توجه الإعلامي الفرنسي برنار بيفو إلى المستشرق الفرنسي المعروف جاك بيرك قائلا: "**أمامك ثلاثون ثانية كي تقول للفرنسيين ما إذا كان القرآن أداة حرب أم لا**"، بهذا الابتسار المتعمد بقيت لقرون صورة الإسلام في الوجدان الغربي ترسم. وبشكل عام يعد ملف العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب من أخطر الملفات التي تواجه المثقف المسلم وصانع القرار المسلم على السواء. وقد أكدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تبعها من تداعيات، حقيقة طالما نبهت إليها أصوات من الجانبين هي ضرورة بذل مزيد من الجهد لإعادة صياغة هذه العلاقة دون ركون إلى المقولات الجاهزة والتفسيرات التآمرية المختزلة من الجانبين. فرغم أن الثقافة الإسلامية تأمر كل مسلم أن يعدل حتى مع أعدائه "**يا أيها الذين أمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**" (سورة المائدة ٨)، فإن خطاب العداء الكاسح للغرب انتقل إلى بعض الأدبيات الفكرية والدعوية الإسلامية، كرد فعل لخطاب العداء الغربي وهو رد كان يجب ألا ينجر بعض منا إليه، حتى لو أظهر لنا الآخرون العداء.

فكما أن الإسلام لا يجوزه اختصاره في مفاهيم مشبوهة قاصرة كذلك الغرب، فهو ليس كيانا واحدا مصمتا بل عالم مركب فيه المتحيزون والمنصفون، وفيه المضللون الذين لا يجدون مصدرا يمكنهم عن طريقه تكوين صورة أكثر اقترابا من الحقيقة عن الإسلام والمسلمين. وعموما، تجب التفرقة كذلك بين الشعوب والحكومات، وبين المؤسسات الإعلامية والأوساط الأكاديمية، وهكذا.

ولعل ما شهدته الدعوة الإسلامية من نجاحات عقب هذه الأحداث، متمثلة في دخول آلاف الأمريكيين الإسلام تؤكد أن العداء المتصور "بضاعة" تروج وليس

موقفا مبدئيا كاسحا يلتزم به كل غربي أو كل أمريكي . وإذا أخذنا علم الاستشراق كمثال طالما وضع في إطار تآمري بوصفه عملا عدائيا منظما استهدف تشويه صورة ثقافتنا ، وجدنا التعميم مخلا إلى حد بعيد . فرغم أن صلات وثيقة ربطت بين كثير من المستشرقين وبين مؤسسات سياسية وأمنية غربية بعضها استخدم المستشرقين لخدمة أهداف استعمارية ، إلا أن الظاهرة لم تخل من إيجابيات كثيرة يصر كثيرون على إهدارها .

ومما لفت نظري بشكل خاص إلى هذه الحقيقة ما يقرره واحد من أهم الباحثين الإسلاميين المدققين في النصف الثاني من القرن العشرين ، هو الأستاذ الدكتور حسين مؤنس صاحب العديد من الأعمال الموسوعية في حقلي التاريخ والجغرافيا ، إذ يقول ، في مقدمة الطبعة الأولى من مؤلفه الضخم "تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس":

"كلامنا عن العلوم عند العرب كثير، وحديثنا عن فضلهم على الحضارة العالمية أكثر، ولكننا إذا استثنينا قلائل منا صرفوا العناية إلى التأليف في العلوم عند العرب وخدموا هذا المطلب بالبحث والتأليف من أمثال: أحمد عيسى، ومصطفى نظيف، ومصطفى الشهابي، ونفيس أحمد، وزكي وليدي، وبهجة الأثري، وقدري حافظ طوقان وغيرهم من أجلاء العلماء، وجدنا أن معظم ما نفخر به في هذا المجال إنما هو من كشوف غيرنا، من أمثال: جورج روشكا، وهانز فون مجيك، وجورج سارتون، وكارلو نللينو، وبول كراوس، وألدو ميلي، وهاينريش سوتر، وماكس مايرهوف، وكونراد ميللر، وخوان بيرنيت، وغيرهم كثيرين جدا، ممن أنفقوا – وينفقون – العمر في دراسة المخطوطات العربية في العوم وحل رموزها وإثبات فضل العرب وأهل الإسلام على هذا العلم أو ذاك بالحجة والبرهان الساطع" أ. هـ

واقتصار اهتمامنا على الدوائر التي تصنع صورة "الإسلام العدو" في الغرب من المؤكد أن له ما يبرره ، أولا لأن الغرب هو الذي بدأنا بالعدوان السافر في الحروب الصليبية وما بعدها من موجات الاستعمار العسكري التي توالت لأكثر من قرنين ، ثم تبع ذلك ثانيا هجوم من جانب كثير من المستشرقين على الإسلام عقيدة وشريعة وثقافة ، الأمر الذي جعل تاريخ العلاقة بين الجانبين منذ الحروب الصليبية يحكمه العداء . غير أن ثمة محاولات لإعادة صياغة هذه العلاقة الشائكة على نحو مختلف ينبغي ألا تهمل وسط صخب الخطاب التحريضي .

والدراسات التي تحاول إعادة بناء صورة الإسلام والمسلمين في الذهنية الغربية لا تكاد تنقطع ، وإن كانت لا تلقى الاهتمام الكافي ، وإحدى أهم هذه الدراسات ، صدرت بالألمانية وعنوانها: "الإسلام العدو: بين الحقيقة والوهم" ، وفيه تحذر الكاتبة الألمانية أندريا لويج من ظاهرة من تطلق عليهم "الخبراء الوهميين" أمثال جيرهارد كونستلمان وبيتر شول لاتور الذين سيطرا على أجهزة الإعلام لسنوات دون منازع بوصفهما خبيرين في شؤون الشرق الأوسط . ولا شك في أن سيطرة ما يسمى "ثقافة الصورة" ، والغياب شبه التام لقوى عربية أو إسلامية تقوم بجهد إعلامي مقابل ، يمنح هذه لبضاعة المسمومة فرصة ذهبية لأن تروج على أوسع نطاق .

ورغم الانتشار الكاسح لهذه المقولات لم يعدم العالم الغربي أن يجد أصواتا تزعجها ظاهرة "الخبراء الوهميين" فخاضت ضدها حروبا ، لكن ذلك - للأسف - لم يغير ذلك من الأمر شيئا حتى الآن . وبدلا من التحليل العلمي الجاد رسمت للعالم الإسلامي صورة وهمية من خلال تضخيم المخاوف النفسية والعنصرية . ومن هنا ، وجه المستشرقون في جامعة هامبورج الاتهام لبعض خبراء الإعلام بأنهم يعملون بأساليب غير شريفة على توسيع الفجوة بين الثقافتين الشرقية والغربية

وتعميقها ، بالإشارة دائما استحالة الحوار بينهما .

ولا تقتصر الظاهرة على ألمانيا ففي فرنسا هناك مثلا ألكسندر دل فاله الذي يعد جزءاً ممن تسميهم صحيفة "لوفيغارو" الفرنسية "حلقة الخبراء السحرية" المدعوين في شكل دوري إلى شاشات التلفزة ، وبخاصة منذ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر . فهو كنموذج لهؤلاء الخبراء ، لا يحب التعقيد ويرى أن العالم يمكن تحليله بسهولة ، ومن تحليلاته الواسعة الانتشار: "**إن مبدأ رفض الحكم الكافر هو الذي يفسر غالبية النزعات بين المسلمين و"الكفار" في كشمير والسودان وأرمينيا والشيشان وحتى في كوسوفو ومقدونيا حيث أصبح المسلمون يشكلون الغالبية السكانية**" . وبطبيعة الحال تحدث مثل هذه التفسيرات أثرا خطيرا في الغرب الذي يحتفظ للحروب الدينية بأسوأ الذكريات ويربط بينها وبين مفاهيم سلبية عديدة .

الإسلام ذلك المجهول:

وتكشف أندريا لويج عن جهل فاضح بالإسلام والثقافة الإسلامية بين المتخصصين وتنقل عن اثنين من المتخصصين الألمان هما أرمجارد بين وماليز فيبر قولهما: "إنه لمن التناقض الغريب والمدهش حقا بين عدم معرفتنا بالإسلام والثقافة الإسلامية وبين ثقتنا الشديدة في إطلاق الأحكام عليهما ، ولم يحدث مرة أن استنكر هذا الجهل ولو مرة واحدة ، بل إن النقد والاتهام يوجه باستمرار إلى تلك الثقافة دون أدنى حرج" .

وفي معظم الحوارات التي تدور عن الإسلام تتكرر دوما عبارة "إنني لا أعرف شيئا عن الإسلام ولكن ..." وتعلق لويج قائلة: "إننا لا نفيق عند (لا أعرف) هذه لأنها ببساطة تسمح لنا ببناء عالم آخر ، عالم إسلامي حتى لو لم يتسق هذا البناء مع الواقع ، وهو فعلا كذلك . فهو مطلوب لفصل (نحن) عن (الآخر) والداخل عن

الخارج فصلا لا ينمحي لكي يؤمن حدود الهوية الغربية وحصنها، وهنا تظهر الكلمة السحرية ذات الحروف الخمسة (إسلام) فتنشر الفزع". بل إن أحد أساتذة العلوم السياسية النمساويين يحذر من أن إنسانية الغرب مهددة أكثر من أمنه بسبب العداء للآخر.

ولا تعني مثل هذه الحقائق أن ميراث العداء ذهب إلى غير رجعة أو أن العلاقات القائمة تخلو من عوامل التوتر، فما زال العلاقات بين الشمال والجنوب عموما تفتقر إلى التوازن والعدالة وتغلب عليها إرادة الهيمنة الغربية، وما تعانيه ثقافات الجنوب من هذا الواقع تعاني الثقافة الإسلامية منه النصيب الأكبر، ويشكل الموقف الغربي المنحاز للكيان الصهيوني العقبة الأكبر في طريق قيام علاقات إيجابية بين الطرفين.

كما أن تغير صورة الإسلام والمسلمين في الغرب على نحو إيجابي مرهون بعوامل عديدة أولها ضرورة تحديد منابع السيل الهادر من الصور السلبية وبذل جهد لتصحيحها بالوسائل التي تناسب المجتمعات الغربية وباللغة التي يفهمها المواطن الغربي. كما أن إعادة بناء الصورة مرتبط بشكل مباشر بإعادة بناء واقع العالم الإسلامي نفسه، فمما يلفت النظر أن كثيرا من الغربيين الذين اعتنقوا الإسلام ورأوا في قيمه طريقا للنجاة هالهم حالة التخلف التي يعيشها العالم الإسلامي. وبالتالي فإن قدرتنا على بناء عالم أفضل تأسيسا على قيم الإسلام وثقافته، رد عملي على كل ما يلصق بنا من صفات سلبية، وهو أبلغ من كل رد!!

من نماذج ثقافة رفض الآخر: صورة الإسلام والمسلمين في مناهج الدراسة الغربية:

قد لا نبالغ إذا قلنا إن "الصور النمطية" هي المتهم الأول في المسار الطويل من الصراعات التي خاضتها البشرية في العصر الحديث وصولا إلى

أحداث الحادي عشر من سبتمبر!!

ويقصد بالصورة النمطية: "**مجموعة الصور والأفكار التي تأتي إلى ذهن شخص معين عند تفكيره في أبناء جماعة أخرى، وعادة تتميز الصور النمطية بالعمومية ولا تستند إلى حقائق موضوعية**" . ورغم أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر تشكل منعطفا في تاريخ الولايات المتحدة ودرسا مهما لذلك الكيان الضخم المتنوع الممتد على جانبي الأطلطني ويسمى اصطلاحا "الغرب" ، فإنها في الوقت نفسه تمثل بالنسبة للعالم أجمع إنذارا ينبغي أخذه في الاعتبار . فالتناول المتسرع بل السطحي للحادث بوصفه - فقط - تكريسا لمركزية الغرب وهيمنة الولايات المتحدة لا يأخذ في اعتباره إلا الآثار السياسية المباشرة ، بينما الآثار الثقافية هي الأكثر خطورة ، على المدى المتوسط والطويل على السواء . فقد أكدت الأحداث خطورة غياب الحوار بين سكان هذا الكوكب المهدد ، وشيوع الصور النمطية في الشمال والجنوب على السواء ، فأجهزة الإعلام القادرة على نقل الصورة والخبر لحظيا لم تزدنا إلا جهلا بثقافات بعضنا بعضا ، وعوضا عن "دكتاتورية الجهل" التي كنا نحسب كل منجز تقني خصما من رصيدها ، سقطنا جميعا تقريبا صرعى "دكتاتورية التجهيل" بسبب التقنية نفسها .

ومع المزيد من تجارب الصراع عبر القرن العشرين وما مر من القرن الحادي والعشرين تتأكد حقيقة أن السلم الدولي يحتاج علاقات إنسانية وثقافية تقوم على الاقتراب الحقيقي لا على "تعليب الثقافات" . وهذا الكتاب نموذج لدراسات نحتاج إليها لأجل تصورات ثقافية أكثر قربا من الحقيقة أملا في بناء علاقات سياسية أكثر توازنا . ولنقرأ ما كتبه زياد عبد الله الدريس رئيس تحرير مجلة المعرفة السعودية في تقديمه لكتاب "**صورة العرب والمسلمين في مناهج الدراسة حول العالم**" يقول: "**كان**

الحديث دوما والتلاوم المتبادل بين عالم الشرق وعالم الغرب هو عن الصورة النمطية في وسائل الإعلام.... المحايدة حينا والمتحيزة أحيانا. حتى ظهر بشكل بارز – وضمن الآثار الانسحابية لوباء ١١ سبتمبر – الحديث عن الصورة النمطية في المناهج الدراسية. هذه المرة تغير اتجاه الشكوى فهي تأتي من الغرب للشرق...... الغرب يشتكي من أن الصورة النمطية لـه في مناهجنا هي التي أفرزت ١١ سبتمبر وما بعده وقد يكون محقا في شكواه إلى حد ما، فمناهجنا لا تخلو من التحيز أحيانا والخطاب التعميمي غير الدقيق...... نحن هنا نطرح سؤالا مشروعا كان ينبغي إطلاقه منذ أن انطلقت الحملة الغربية على مناهجنا مفاده: وما هي صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية حول العالم؟ "

صورة العرب والمسلمين في المناهج الأمريكية:

الدراستان الأوليان في الكتاب تتناولان صورة العرب والمسلمين في المناهج الأمريكية الأولى كتبها سليمان قناوي تحت عنوان: "الدراسات العلمية تؤكد أن الصورة قاصرة . . سطحية . . متحيزة . . سلبية" وفيها يحاول تتبع هذه الصورة السلبية منذ منتصف القرن الماضي حيث يذكر ميخائيل سليمان أستاذ العلوم السياسية بجامعة ولاية كنساس أن الشرق الأوسط حتى الحرب العالمية الثانية كان محمية أوروبية وكانت الولايات المتحدة بشكل عام تنزل عند إرادة الحلفاء الأوروبيين في تعاملها مع المنطقة . كذلك كانت النظرة الأمريكية إلى الشرق الأوسط وشعوبه موروثة عموما عن أوروبا .

والغريب أن التلفزيون الأمريكي كان – قبل الحرب العالمية الثانية – يعتبر اليهودي "الوغد العالمي" وكانت صورته أنه "ذلك المراوغ . . الفاسد . . المرتشي . . والفوضوي الشره للمال" .

ولكن منذ الحرب العالمية الثانية ولبروز الولايات المتحدة كقوة عظمى ذات

مصالح أساسية وبالتالي ذات حجم كبير في الشرق الأوسط نظرت أمريكا إلى العرب والعروبة (التي يتم تعريفها على نحو غير واضح) كتهديد لمصالحها. ولذا تم نقل الصفات السيئة والصورة البغيضة من اليهودي العربي، وأصبح رمز الشر العربي الذي يرتدي العباءة والكوفية لا اليهودي الذي يرتدي القلنسوة.

ويذكر الدكتور أديب خضور في كتابه "صورة العرب في الإعلام الغربي" أن الاستشراق وجد في المناهج الدراسية المقررة على الطلاب الأمريكيين في المراحل المختلفة وسيلة فعالة لتشكيل وعي الأجيال وتصوير العرب كشعب بدوي مغرم بالغزو والنهب والسلب.. والعربي "وثني كافر" و"الإسلام ديانة غير متسامحة" انتشرت - فقط - بحد السيف.

ويستعرض الباحث عددا من الصور الذهنية السلبية عن العرب والمسلمين في الكتب الدراسية الأمريكية بشكل عام وأهم ملامحها:

- أثرياء كبار يشترون أمريكا ويتسببون في ارتفاع الأسعار لا سيما العقارات.
- يكرهون الغرب ويشكلون خطرا.. والمسلمون يكرهون المسيحيين.
- "أوبك" مرادفة للعرب ودائما تستخدم للإيحاء بمدلول سلبي.
- العرب أعداء العالم ومثيرو الحروب.
- المعالم البصرية لصورة العربي والمسلم هي: "رقص هز البطن"، ولباسه "الكوفية والعقال" والعباءة للرجال والحجاب للمرأة. يضاف لهذه المعالم البصرية: آبار النفط وسيارات الليموزين الطويلة والنظارات الشمسية السوداء.

وقد عبر عن ذلك أفضل تعبير نيكولاس فون هوفمان الصحفي بجريدة واشنطن بوست حين قال: "لم تشوه سمعة جماعة دينية أو ثقافية أو قومية ويحط من قدرها بشكل مركز ومنظم كما حدث للعرب" .

وبالعودة إلى الدراسات التي تمت لكتب المدارس الابتدائية والثانوية الأمريكية نجد بداية أن هذه الكتب ، وبخاصة ما يتناول منها العلوم الاجتماعية والإنسانية ، تعد مصدرا أوليا يستمد منه الطالب مواقفه واتجاهاته إزاء كثير من الجماعات العرقية المختلفة فهذه الكتب تزود الطلاب بما يحتاجون إليه من معلومات عن التاريخ والحضارات . ويمثل المدرسون العنصر الآخر في عملية التعليم، ليس فقط بتلقين المعلومات ، بل بما يقدمونه من تفسيرات وما يختارونه من نصوص وما يولونه اهتماما خاصا من موضوعات . كل ذلك يؤثر في نظرة الطالب الثقافية لنفسه وللجماعات العرقية الأخرى . ويتبين من الدراسات المتعلقة بعملية التشكيل الاجتماعي أن التعليم المكتسب في المدرستين الابتدائية والثانوية له تأثير دائم ويمكن إرجاع المواقف التي يتخذها الكبار تجاه جماعات معينة إلى التجارب التربوية الأولى .

وكما يؤدي التعليم المقصود لتعزيز المواقف الإيجابية كذلك يمكن أن تنشأ الصور النمطية عن الشعوب الأجنبية من أخطاء الحذف أو التحريف خلال التعليم . ويرى عالم التربية لوثر إيفانز أن: **"الكتب المدرسية والمدرسين يمكن أن يكونوا بمنزلة البذرة لحصول من التفاهم الدولي والصداقة الدولية من خلال عرض الحقائق عرضا صحيحا من الناحيتين الكمية والنوعية وبمنظور سليم. ويمكن أيضا أن يكونوا بذرة لحصول من سوء التفاهم والكراهية والازدراء بين – وتجاه – أنماط الحياة الأخرى من خلال عرض المقولات غير الدقيقة وغير المتوازنة بوصفها حقائق"** .

ويـورد الـباحث سـليمان قـناوي نـتائج ثمـان دراسات تناولت صورة العرب والمسلمين في المـناهج الدراسـية في الـولايات المـتحدة وكـندا كمـا تـناولت دور المدرسين في صناعة هذه الصورة ، الدراسة الأولى: "تناول الشرق الأوسط في كتب المـدارس العليا الأمريكية" للباحث جليد بيري وتقوم على تحليل مضمون ٢٠ كتابا مدرسيا تستخدمها المدارس الثانوية الأمريكية بمرحلتيها وجاءت النتائج كالتالي:

- خـصص من ١٥ - ٢٥ صفحة في المتوسط للشرق الأوسط في نص يتألف من ٧٠٠ إلى ٩٠٠ صفحة .
- جـاءت معالجة وتفسير الإسلام خليطا من المواد الدقيقة والمبهمة والمفتقرة للاسـتيعاب الكامل . وهناك تأكيد صورة القرون الوسطى والإسلام كدين غـير متـسامح . وأحـيانا يوصـف القـرآن بأنه من جمع النبي صلى الله عليه وسـلم . غـير أن الكـتب تـشرح أفكـار النبي وحياته شرحا صحيحا بصفة عامة .
- تخلط معظم الكتب بين العرب والمسلمين ولا توضح أن نمط الحياة البدوية يمثل الاستثناء لا القاعدة في المنطقة .
- تخلـو الكـتب مـن أي نقـاش لأسـباب معارضـة الفلـسطينيين والعـرب للصهيونية وإسرائيل .

الدراسـة الثانـية: "سـوء الفهـم عند التعامل مع العالم العربي في كتب أمريكية مختارة للأطفال" للباحثة عدوية العلمي ، وهي أول دراسة منهجية تتصدى بالكامل لصورة العرب والمسلمين في كتب المرحلة الابتدائية وهي في الأصل رسالة ماجستير بجامعـة أيـوا بـولاية أوهايـو . وقـد قامت الباحثة أثناء دراستها بجامعة ولاية كنت بـزيارة كـثير مـن المـدارس وألقت محاضرات عن الوطن العربي في ولايات عديدة

فاكتشفت أن المعلومات المتاحة عنه غير دقيقة بل مشوهة وهو ما دفعها لإنجاز دراستها . الدراسة شملت ٥٨ كتابا مدرسيا يستخدمها المدرسون في الصفوف المختلفة في شمال شرق أوهايو من رياض الأطفال حتى الصف التاسع وشمل عرض النتائج موضوعات: حياة البدو ، الزراعة ، حياة المدنية ، التعليم ، الدين الإسلامي ، إسرائيل والوطن العربي ، الوطن العربي بالصور ، وتطور القومية العربية .

وقد سيطرت على العرض موضوعات البداوة وألقت ظلالها على جوانب الحياة العربية الأخرى ويصدق ذلك على النصوص والصور ، وشوه الدين الإسلامي فتركز الاهتمام على ما يسمى "الروح القتالية" وأهملت العقائد إهمالا تاما . وتتشابه النتائج إلى حد كبير في بقية الدراسات .

تأتي الدراسات التي تتناول المدرسين على القدر نفسه من الأهمية بوصفهم العنصر التالي في الأهمية بعد المناهج مباشرة . الدراسة الأولى: **"سوء تناول العالم العربي في عدد من الكتب المختارة لأطفال الولايات المتحدة"** للباحثة عدوية العلمي ويحتوي الجزء الأول منها على تحليل نتائج استبيان أجاب عنه ١١٧٥ مدرسا . الدراسة الثانية: **"الشرق الأوسط في كتاب العلوم الاجتماعية بالمدارس الكندية"** للباحث كيني ويتضمن نتائج ١٢٦ استبيانا أجاب عنها حوالي ١٤٠٠ مشترك في المجلة الكندية للتاريخ والعلوم الاجتماعية ، وتبين من النتائج أن المدرسين تلقوا تدريبا قليلا أو أن خبرتهم المكتسبة بشأن الشرق الأوسط ضئيلة وغالبيتهم تعتمد بشكل مطلق على معلومات الكتب المدرسية .

ونصف من أجابوا على الاستبيان يشعرون أن معلوماتهم عن الشرق الأوسط متوازنة غير أن ٦٠ % منهم يرون الكتب الدراسية تميل نحو اليهود ، و٤٨ % منهم

يـرون المعلـومات تمـيل نحـو إسرائيل . وتبين من النتائج أيضا أن المدرسين يربطون جماعـات معيـنة بـصفات معيـنة ، فيرتـبط العرب بصفات: الوحشية وعدم التمدن والـبداوة والـتخلف وعـدم التنظيم والوقوف ضد إسرائيل . وربط اليهود بصفات التدين وحب التملك والعدوانية والصلف .

الدراسـة الثالـثة: "الـشرق الأوسـط في مناهج التعليم بالمدارس الأمريكية العليا" للـباحث مايكـل سـليمان واسـتندت الدراسـة إلى اسـتبيان كـان قد أرسل إلى عام ١٩٧٢ إلى ٤٢٥ مدرسـا بالمـرحلة الـثانوية في كنـساس اسـتجاب لـه ١٧١ مدرسا (٤٠,٢ %) . وقد أظهرت النتائج ما يلي:

١ - الشرق الأوسط "أرض غير معروفة" لنسبة ٦٦% ممن استجابوا .

٢ - ٦٣ % يشعرون أنهم لم يتلقوا تدريبا كافيا لتدريس هذه المادة

٣ - ١٦ % منهم تلقوا دورة تدريبية واحدة

٤ - ١١ % تلقوا دورتين

٥ - ٦ % تلقوا ثلاث دورات فأكثر .

وعـن المـواد الدراسـية تبين النتائج أن غالبية المدرسين يختارون النص بأنفسهم وعجـز ٨٨ % مـنهم عـن ملاحظـة التحيـز في الكـتب المدرسـية وإن شـعروا بأن المعلـومات غـير كافـية مـع إفـراط ملحـوظ في التعميم . ومما لـه دلالة أن الباحث اكتـشف أن كـونه يحمل اسما شرق أوسطي كان سببا في استجابات أقل موضوعية رغم تأكيدهم أن إجاباتهم موضوعية!

الدراسـة الثالـثة: "الـصورة الموجـودة لـدى الأمـريكيين عـن شـعوب الشرق الأوسط: التأثير في المدارس العليا" للباحث مايكل سليمان وقد استخدم الاستبيان

نفسه الذي استخدمه في الدراسة السابقة ووزعه في المدارس الثانوية في أماكن أخرى . وتبين النتائج وجود التحيز القوالب الجامدة ومعظم المدرسين نقصهم الوعي بها . ولم نحو ثلث المستجيبين عن آرائهم وآراء طلبتهم في شعوب الشرق الأوسط ، وباستثناء اسم الباحث وتأثيره في موقفهم فقد كان عدد البرامج الجامعية التي تلقاها المستجيبون أهم عامل في تفسير استجاباتهم ، فالمدرسون الذين تلقوا قدرا أكبر البرامج كانوا أكثر ميلا لبيان وجود تحيز وتشويه في المادة . وعموما كانت النظرة إيجابية إلى قدماء المصريين مقابل نظر سلبية للمصريين المعاصرين ، أما الإسرائيليون فيرتبطون عندهم بصفات تدعو للإعجاب مثل قوة العزيمة والذكاء ، وكان رأي الطلبة في الفلسطينيين أنهم إرهابيون بينما يراهم المدرسون ضحايا سيئو الحظ .

الويل للمنصفين:

تحت هذا العنوان يرصد الباحث سليمان قناوي الحملات المكثفة التي تشنها المنظمات الصهيونية على كل من يحاول أن يكون منصفا أو موضوعيا حتى في الجامعات الأمريكية ، حيث وصل الأمر إلى حد تهديد من يعتبرون ناقدين لإسرائيل ومؤيدين للعرب ، وقد ساء الأمر إلى حد قيام اللجنة الإسرائيلية الأمريكية (إيباك AIPAC) بتوزيع لائحة بأسماء من وصفتهم بأنهم معارضو إسرائيل و"مروجو دعايات مؤيدة للعرب" في الجامعات الأمريكية وهي لائحة قام بتوزيعها على أعضائه "المكتب الإقليمي لنيو إنجلاند التابع لحلف مقاومة الافتراء" (بناي بريث) defamation, - Anti the of Office Regional England New (B,irth B,ani of League . وكرد فعل مباشر لهذا السلوك وأمثاله فإن " مؤسسة دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية" (MESA) أصدرت قرارا يدين "تنظيم

أو تخزين أو ترويج اللوائح السوداء" أو "أية دراسات تدعو إلى مقاطعة الأشخاص أو الفئات الأكاديمية أو اضطهادها أو نبذها بما من شأنه أن يخلق جوا من التهديد" .

وبالإضافة لذلك مورست ضغوط عنيفة ونظمت حملات دعائية ضد إنشاء برامج عربية في الجامعات بحجة أنها ستكون ضد بحجة أنها ستكون ضد إسرائيل وستتعاطف مع العرب ، وبالتالي كان على "مركز الدراسات العربية المعاصرة" (Studies Arab Contemporary for Center) في جامعة جورج تاون و"معهد الدراسات العربية والإسلامية المعاصرة" (Institute for Contemporary Arab and Islamic Studies) في جامعة فيلانوفا أن يبذلا جهدا كبيرا ليستمرا . وعموما ينظر للعرب الأمريكيين بوصفهم "متحيزين" ويتم استثناؤهم من إلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العامة وهو موقف يستهدف منع تقديم الأصوات العربية كمصادر صحيحة للمعلومات .

وحسب دراسة "اللجنة العربية لمكافحة التميز" (ADC) فإن الصور النمطية للعرب والمسلمين تنقسم إلى:

أولا: الصور النمطية العامة وتصف العرب جميعا بأنهم: "راكبو جمال" ، "عبيد الرمال" ، "كل العرب مسلمين وكل المسلمين عرب" ، "القبيلة" ، "البدو" ، "الحريم" .

ثانيا: صور نمطية عن العالم العربي ومنها: "ساحة تنافس يعيش فيها الأبطال الغربيون مغامراتهم العاطفية" ، "ألف ليلة وليلة" ، "الجن" ، "البساط السحري" .

ثالثا: صور نمطية عن المسلمين: "سفاحون" ، "إرهابيون" ، "محاربون" ، "مغتصبون" ، "مضطهدون للمرأة" ، "الحرب المقدسة" .

رابعا: صور نمطية عن الفلسطينيين: "يحاولون تدمير إسرائيل وإغراقها في البحر" ، "مفجرو طائرات" ، "إرهابيون" .

خامسا: صـورة العرب الصالحين: "شخصيات ثانوية دونية"، "سلبيون"، "قلما يكونون أبطالا".

سادســا: صورة الرجل العربي: "شيخ بترول"، "ثري جدا"، "مسرف"، "يريد شـراء أمريكا بماله"، "طماع"، "قذر"، "غير متعلم"، "غير أمين"، "ديكتاتور"، "يكره الـيهود والأمـريكيين"، "فاسـد"، "عنـيف"، "خـائن"، "بربري"، "عنده خطط سرية لـتدمير أمريكا"، "قاس"، "مخادع"، " عصبي المزاج"، "غير عقلاني"، "يخطف النساء الشقراوات الغربيات".

ســابعا: صـورة المـرأة العـربية: "مـضطهدة مـن الـرجال العرب والمسلمين"، "راقـصات عاريـات"، "حـريم مترفـات"، "سـيدات جمـيلات يقعن في حب الرجل الغربي الذي ينقذهن من شر الرجل العربي"، "أسيرات المنازل"، "غير متعلمات".

غير أن تناول الصورة النمطية لا يكفي وحده لتقديم صورة منصفة عن الجهود الـتي تـبذلها مـنظمات مختلفة لتحسين الصورة، وبعد استعراض نماذج لهذه الجهود يحدد الباحثان السبيل الأمثل لتحسين الصورة فيقرران أن هناك العديد من الفرص المتاحة أمـام العرب والمسلمين ويمكنهم تحقيق ذلك بالسير على خطوات الأقليات الأمـريكية الأخرى التي نجحت في تحقيق الهدف نفسه قبل ذلك. ويقرران أيضا أن جزءا من مسئولية تدهور صورة العرب والمسلمين يقع على عاتق العرب والمسلمين بـسبب تقـصيرهم في اسـتخدام الوسـائل المتاحة لتحسين صورتهم، ويتطلب ذلك العمـل علـى مـستويات عـدة، **أولا:** مـستوى عمـل المـنظمات التربوية من خلال تأسـيس مجمـوعة من المؤسسات العربية والأمريكية داخل أمريكا تكون قادرة على العمـل في موضـوعي المـناهج والمدرسين. ويشمل عمل مثل هذه المؤسسات توفير الوسائل التعليمية المرئية والمسموعة والمقروءة وتوفير الخبراء عن الإسلام والمسلمين

وإنشاء مدارس ومراكز تعليمية عربية .

ثانـــيا: يحتاج العرب والمسلمون لمزيد من النشاط على مستوى الحقوق المدنية لتسجيل أي تمييز ضد الطلاب العرب والمسلمين والمؤسسات التعليمية العربية والإسلامية . يضاف إلى ذلك العمل على المستويين: الإعلامي العام من خلال التوعية بمضمون وأهداف المناهج التعليمية الإسلامية ، والعمل للاستفادة بأقصى الطاقة من الخدمات التي تتيحها الدولة .

صورة العرب والمسلمين في المناهج الفرنسية:

أما صورة العرب والمسلمين في المناهج الفرنسية فتقدمها الباحثة مارلين نصر في كتابها: "**صـــورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية**" المنشور بمركز دراسات الوحدة العربية (بيروت ١٩٩٥) . وتقرر الباحثة ابتداء أن نصوص الكتب المدرسية في المرحلة الابتدائية لا تفرق بين مفردات ثلاثة هي: "البدو" ، "العرب" ، و" المور Mooor " وتستخدمها بغير تمييز في الدلالة على الشخصيات نفسها ، ويعزز المعجم هذا التماثل إذ يعرف – على سبيل المثال – "البدوي" بأنه: "عربي راحل من الصحراء" .

وفي القصص تتسم شخصيات العرب أو البدو بالدونية إذا كانوا تابعين وعندئذ يوصفون بأنهم "مخلصون أوفياء" ، أو بطابع عدائي إذا هربوا من نطاق نفوذ الشخصيات الفرنسية وعندئذ يوصفون بأنهم "أعداء متمردون" ، "نهابون" ، "مخربون" بل "سفاحون" ، ويبدو نقص الشخصيات العربية خلقيا وعقليا واقتصاديا ومهنيا عند مقارنتهم بشخصيات فرنسية . ويبدو العربي الطيب استثناء شاذا في الكُتب المدرسية . ورغم أن تعليمات وزارة التربية التي أوضحت المبادئ العامة للتعليم الفرنسي تؤكد أنها تهدف إلى "التعرف على الثقافات والحقائق الأجنبية"

فإن الصورة المستخلصة من تحليل كتب المرحلة الابتدائية لن تولد لدى التلاميذ إلا صورة مزيفة عن العرب فهي توحي للفرنسيين بإحساس التفوق الطبيعي كما توحي للتلاميذ ذوي الأصل العربي بإحساس سلبي ناشئ من تحقير هم وتشويه صورتهم .

وترصد الباحثة تطور صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية خلال الجمهوريات الفرنسية بدءا من الجمهورية الثالثة (١٧٨٠ - ١٩١٤) حيث كانت مناهجها الدراسية تصف الإسلام بأنه: "**دين مسخ ابتكره محمد الذي ادعى أنه نبي**" لكن الكتب المدرسية الحالية تبدي احتراما أكثر للإسلام وتقدمه كدين توحيدي عالمي ، وإن كانت تتفق مع كتب الجمهورية الثالثة في تصوير الإسلام كدين عسكري . وتتفق كتب المرحلتين في إبراز دور البطل الفرنسي "تشارلز مارتيل" الذي وضع حدا لاتساع الفتوحات الإسلامية في الغرب . ويمكن تقسيم كتب الناشرين إلى مجموعتين:

- مجموعة تلتزم موقفا إيجابيا ويمثلها الناشران "هاشيت" و"بورداس"
- مجموعة تلتزم موقفا سلبيا أحيانا باردا وأحيانا عدائيا ويمثله الناشر "ناتان"
- وبينهما يقف الناشر "بيلان" موقفا وسطا

وتتناول الكتب المدرسية - باستثناء كتاب واحد - القضية الفلسطينية انطلاقا من تأييد إقامة إسرائيل وهذا التناول يتجاهل وأحيانا يضفي عليهم طابعا سلبيا . فمثلا تحت عنوان "مولد إسرائيل" يرسم أحد هذه الكتب صورة فلسطين تحت الاحتلال البريطاني أرضا بلا شعب . ولا يظهر العرب في هذا النص إلا عند إبرازهم "كعرب معادين" ويستخدم النص عدة وسائل لإضفاء الشرعية على وجود إسرائيل ، بل إن أحد هذه الكتب يتهم العرب صراحة بالتواطؤ مع النازية

واستهداف دولة إسرائيل التي كانت على وشك أن تولد: "... نشأت منذ البداية مجابهات دموية بين اليهود والعرب أخذت تتصاعد عام ١٩٣٣ عندما تلقى العرب مساعدة النازيين، أصبح الكيان الصغير يتلقى من جميع الجهات هجمات الدول العربية التي عقدت العزم على منع مولده".

أما الكتاب الوحيد غير المنحاز لإسرائيل فيلقي المسئولية عن المشكلة الفلسطينية على عاتق الإمبريالية الغربية حيث ذكر أن: "أطماع كل من لندن وباريس دفعتهما إلى تقديم وعد للصهاينة بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين". وبتحليل نصوص الكتب نجد أنها تنقسم إلى قسمين:

- الأول: كتب بورداس وهاشيت وبيلان ونظرتها منحازة حيث تصف الإسرائيليين بصفات إيجابية مثل:

أراد التفاوض - بنى - عمل - دافع عن النفس - قاوم - رد بالمثل - استرد الأرض - انتصر على الدوام.

أما الجانب العربي فينسب إليه من الأفعال: رفض - اعتدى - دمر - امتنع - أجبر على - هاجم - ضم - انهزم بصفة دائمة.

الثاني: كتب ناتان وهي أقل تحيزا وتعد "استثناء".

صورة الإسلام والمسلمين في إسبانيا:

تعتبر صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية الإسبانية حالة معبرة عن العلاقة بين البناء السياسي للدولة والثقافة السائدة في المجتمع وبين درجة قدرة هذا المجتمع على قبول الآخر، ففي الثلاثينات كانت إسبانيا جمهورية شيوعيةوفي هذه المرحلة تم انتزاع حق التعليم والإشراف عليه من الكنيسة وإسناده إلى مؤسسات

الدولة مع السماح للكنيسة والمثقفين الكاثوليك بالاستمرار في تشويه صورة الإسلام من خلال النشاط الكنسي وقصص الأطفال والكتب المتداولة. ولما كانت إسبانيا آنذاك جمهورية شيوعية ماركسية ملحدة فقد عزلت الكنيسة عن الحياة العامة وحذفت تعاليمها من مناهج الدراسة لتحل محلها مناهج إلحادية معادية للأديان السماوية كلها، وعلى مستوى الثقافة الشعبية كانت هناك حايات وأمثال تعمق الكره لكل ما ليس كاثوليكيا.

ثم إن المراجع اللغوية من معاجم وموسوعات لم تغير التعريفات النحرفة والتشويهات المتعمدة ومن أكثرها بشاعة ما ورد في قاموس: Lengua de Tscoro Castellana . Edicion . S . A. حيث يعرف القرآن بما يلي: "**هو ذلك الكتاب اللعين المليء بالسخافات الذي ألفه محمد بمساعدة الأريسي الكافر يحي الأنطاكي وعالم الرياضيات اليهودي أشكول. وهذا ما يجمع عليه المؤرخون الذين تناولوا حياة ذاك الشري الفاسد المسمى (محمد)**". وفي دراسة للمستشرقة الغرناطية إميليا ألونوس على ٢٧ معجما و٧ من الموسوعات المؤلفة خلال حكم فرانكو حول اثني عشر مفردة من المفردات ذات العلاقة بالإسلام انتهت إلى أنها جميعها ذات قيمة ثقافية ضحلة ومعان قذعية.

ومع التحول الديموقراطي بصدور دستور ١٩٧٨ بدأت مرحلة جديدة لكن التحول بقي حبرا على ورق حتى عام ١٩٩٢ عندما وقع الملك خوان كارلوس مع ممثلي الجالية الإسلامية اتفاقية تنظم تعليم الدين الإسلامي فتحولت المناهج إلى وضع أفضل بكثير مما كان في الحقبة السابقة.

صورة الإسلام والمسلمين في ألمانيا:

حسب دراسة رائدة أنجزت في الفترة من ١٩٨٢ - ١٩٨٨ بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الجواد فلاتوري بمعاونة ٤٤ من المتخصصين الغربيين والكثير من

المسلمين بالتعاون مع الأزهر وتم فيها تمحيص محتوى ٣٥٩ كتابا مدرسيا في الدين والتاريخ والجغرافيا وصدرت نتائجها في ١٢٠٠ صفحة ولم يطبق حرف مما نادت به من توصيات ولم تتبعها دراسات أخرى . فإن هناك نماذج صارخة للتشويه الذي تتعرض لـه صورة الدين الإسلامي في مناهج الدراسة ، ففي كتاب التربية الدينية المقرر على الصفين السابع والثامن في إحدى الولايات الألمانية نجد معلومات مثل:

* "كل مسلم مكلف بمقاتلة أعداء الإسلام الذين لا ينصاعون للقرآن"

* "أهداف الحج هي تقبيل الحجر الأسود والحق في ارتداء عمامة خضراء أو حمل لقب حاج وانتهاء موسم الحج بوجبة فاخر في مكان يدعى ميكا"!

* ومقدار الزكاة ١٠ %

* بعثة عيسى عليه السلام لم ترد في القرآن

ولتوضيح وضع العرب في الجاهلية يتم من خلال حوار بين عربي جاهلي ساذج ويهودي حكيم متعلم ، الأمر الذي يؤثر بطريقة غير مباشرة في موقف التلاميذ من القضية الفلسطينية . وفي كتاب آخر توجد صورة كتب تحتها "محمد يتلقى الوحي من جبريل! . وفيه مزاعم مثل أن تحويل القبلة من القدس لمكة سببه خلاف بين النبي واليهود ، وينسب الكتاب الطائفة "الأحمدية" للإسلام وينقل عنها ضرورة الإيمان "برسل الله كلهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وبوذا وكريشنا، ومحمد" .

وتكشف الدراسة عن وجود معلومات صحيحة يبلغ حجمها أضعاف المعلومات المحرفة وهناك أيضا رد على مقولة أن المسلمين عدوانيون ودعوة لاحترام عقيدة زملائهم المسلمين وزيارة مساجدهم وعدم أخذ صورة الإسلام من غير أهله . من ناحية أخرى يلفت الباحث النظر إلى حقيقة أن المناهج الدراسية الألمانية

مهمتها الأولى نقل الرؤية المسيحية عن الإسلام والمسلمين ولا مصداقية لمطالبتهم بتبني الرؤية الإسلامية ، وما تجب المطالبة به هي الموضوعية في التناول وهي متحققة في بعض الكتب فعلا .

وبسبب التمايز الواضح الذي أشرنا إليه في الأسس الثقافية للنموذجين المعرفيين الأمريكي (الإنجلوفوني) والأوروبي (الفرنكفوني) والمتمثل في القطيعة شبه التامة مع الدين ومن ثم "الآخر الديني" في النموذج الأوروبي وفي المقابل التصالح مع الدين في النموذج الأمريكي والاستعداد المبدئي لقبول "الآخر الديني" فيه ، فإن الثقافة الأوروبية نشأ فيها مؤخرا لأول مرة مفهوم التعدد الثقافي على يد عالم أمريكي طيق الفكرة للمرة الأولى في استراليا التي تخلت عن فكرة الأحادية الثقافية من خلال قناة تلفزيون أنشأتها وزارة التعليم تبث بعشرين لغة بينها العربية .

صورة العرب والمسلمين على شاشة هوليود:

في العصر الحديث شكلت السطوة المتزايدة لوسائل الإعلام ولم تزل سمة من سمات العصر حتى دخلت البشرية ما يطلقون عليه "عصر الصورة" ، حيث تختصر الأفكار والمفاهيم على الشاشة الفضية . ويبلغ دور وسائل الإعلام المرئية من الأهمية حد وصف هوليود بأنها أحد أهم وسائل الولايات المتحدة للسيطرة على العالم وإعادة صياغة عقول البشر بلغة الصورة . وحسب الخبير جاك شاهين في كتابه: "العرب السيئون: كيف تشوه هوليود شعبا" وهو متخصص في هذا الموضوع أصدر فيه عدة كتب مثل: "الصورة النمطية السيئة للعرب والمسلمين في الثقافة الشعبية الأمريكية" ، و"صورة العرب في التلفزيون الأمريكي" وغيرهما . وهو أستاذ فخري لعلم الاتصال بجامعة إلينوي ، ومستشار سابق لشئون الأنباء بشبكة سي . بي . إس .

وكتابه المشار إليه حصيلة عقدين من البحث تتبع خلالها المؤلف أكثر من تسعمائة فيلم رتبها وفق الأبجدية الإنجليزية بدءا من عهد السينما الصامتة حتى عام ٢٠٠١ .

وحسب جاك شاهين فإن هوليود دأبت منذ ما يزيد على قرن من الزمان ، على استخدام التكرار كأداة للتعليم حيث تقوم بتلقين المشاهدين مرارا وتكرارا ، ومنذ عام ١٨٦٩ أجمع صناع السينما في هوليود على اتهام العرب بأنهم العدو المشترك للغرب وصوروهم:

متوحشين

قساة القلوب

أغراب

متعطشين للمال

قتلة

مغتصبين

لا أخلاق لهم

متعصبين دينيا

متبلدين

وخلال ما يزيد على قرن من الزمان تغيرت أشياء كثيرة في العالم وفي المجتمع الأمريكي وفي هوليود نفسها ، بينما بقيت صورة العرب والمسلمين ، بل الإسلام نفسه كما هي .

ففي فيلم "الشيخ يتعبد" الذي عرض عام ١٩٣٧ تقول بطلة الفيلم الأمريكية

ساخرة: "إن العرب جميعهم مشابهون في نظري" ، وفي فيلم "الكوماندو" الذي عرض عام ١٩٦٨ يقول بطل الفيلم الجملة نفسها ، وبعد ذلك بعشرات السنين لم يتغير شيء ، ففي فيلم "الرهينة" الذي عرض عام ١٩٨٦ ترد عبارة مشابهة على لسان ممثل كان يقوم بدور سفير أمريكي ، يقول "إنني لا أستطيع أن أميز عربيا من عربي آخر" . ولا يظهر العربي في السينما الأمريكية أبدا شخصا عاديا يعمل عشر ساعات ويعود إلى بيته فيعيش حياة اجتماعية طبيعية مع أسرته ، فهم دائما إرهابيون مهووسون ، أو خاطفو طائرات ، أو بدو يركبون الجمال ، أو شيوخ نفط يشتهون النساء الشقراوات ويعقدون صفقات السلاح وفي نيتهم السيطرة على العالم .

وفي مقابل الصورة النمطية المشوهة يحاول جاك شاهين أن يرسم لقارئه (الكتاب صادر في كندا بالإنجليزية) صورة قريبة من الحقيقة للإنسان العربي تحت عنوان: "العرب الحقيقيون" مشيرا إلى ما قدمه العرب في مسيرة الحضارة الإنسانية من منجزات ، ثم يصف جانبا من واقع المجتمعات العربية - كما رآها بنفسه - في جولاته التي شملت خمس عشرة دولة عربية ، مشيرا إلى أن أسلوب حياة هذه المجتمعات يتحدى الصورة النمطية التي يرسمها لهم منتجو أفلام هوليود . ورغم أن العرب يمثلون ١٢ % فقط من المسلمين فإن هوليود تختصر صورة العالم الإسلامي كله في صورة مشوهة للعرب ، ويلعب التكرار هنا دورا كبيرا في ترسيخ الأفكار في أذهان المشاهدين .

* * * * *

تغييب العرب الأمريكيين

وتحرص هوليود على تغييب العرب والمسلمين الأمريكيين رغم أنهم جزء من المجتمع الأمريكي منذ فترة طويلة ن وهذه الاستراتيجية سبق أن اتبعتها هوليود في الماضي مع الأفارقة الأمريكيين والهنود الأمريكيين واللاتينيين الأمريكيين إذ غيبتهم تماما بشكل أثر سلبا في حياة هذه الأقليات . ويحذر جاك شاهين من أن نزع الناس من سياقهم الإنساني تربة خصبة بل ربما كانت سببا في اضطهادهم ، فبعد أن شوهت هوليود صورة الآسيويين شهد عام ١٩٤٢ أن تم تشريد أكثر من مائة ألف من الأمريكيين المنحدرين من أصل ياباني من مساكنهم وسرقت ممتلكاتهم . والأمر نفسه حدث مع الزنوج مع اختلاف في التفاصيل .

وإذا كان للأساطير فعلها في أي مجتمع فإن أساطير هوليود السينمائية تحكم الثقافة الشعبية الأمريكية ، وبسبب التأثير الضخم لهوليود عالميا بوصفها أكبر مصدر في العالم في هذا المجال ، فإن هذا الأثر السلبي ازداد خلال العقود الأربعة الماضية بدرجة كبيرة . وفي متوالية لا تكاد تتوقف بدأت هذه الصورة المشوهة تصل إلى صناع السينما في دول أخرى عديدة ، كما أصبحت هذه الأفلام ضيفا دائما في محطات التلفزيون في معظم أنحاء العالم ، وبفضل التقدم التقني أمكن إعادة نسخ الأفلام الصامتة في نسخ حديثة ليستمر عرضها ويستمر تأثيرها ، .... وهكذا .

ومنذ منتصف الثمانينات يظهر على شاشات التلفزيون في الولايات المتحدة كل أسبوع ما بين خمسة عشر وعشرين فيلما يعاد عرضها تقدم العرب بصورة مبالغ فيها ، منها:

فيلم "الشيخ" (١٩٢١)

وفيلم "المومياء" (١٩٣٢)

وفيلم "القاهرة" (١٩٤٢)

وفيلم "المرأة الحديدية" (١٩٥٣)

وفيلم "الخروج" (١٩٦٠)

وفيلم "الحصان الأسود" (١٩٧٩)

وفيلم "البروتوكول" (١٩٨٤)

وغيرها كثير .

وفي الحقيقة فإن الوعي بدور وسائل الفن في التأثير في وجدان الشعوب وعقولها قديم ، ففي جمهوريته المثالية أكد الفيلسوف اليوناني القديم أفلاطون أن من يروون القصص يحكمون المجتمع ، والأفلام السينمائية شأنها شأن القصص يستمر تأثيرها طويلا وتسهم في تكوين أفكارنا ومعتقداتنا ، وآن الأوان لأن ندرك أن معلمي أطفالنا هم في الحقيقة صناع الأعمال الدرامية لا معلمي المدارس . ولذا فإن العرب وهم ساميون مثلهم مثل اليهود إلا أن الفريقين ظلا لفترة طويلة موضوع تشويه متعمد من هوليود ، ولم يؤد تحسن صورة اليهود في أفلام هوليود إلى تحسن صورة العرب ومازالوا حتى الآن ضحية عمليات التشويه .

وقد لعب الصهاينة دورا كبيرا في تكريس هذا الواقع وكان لثقلهم النسبي الكبير في هذا المجال دور كبير في ازدياد حجم الظاهرة ، وفي عام ١٩٨٢ ظهر منتجان سينمائيان من أصل يهودي تدفعهما أهداف سياسية ، هما مناحم جولان ويورام جلوباس . أما يورام جلوباس فكان قد تم تعيينه في العام نفسه مديرا لإدارة صناعة السينما في الكيان الصهيوني وهي الجهة التي ترصد كل أفلام السينما التي تنتج في الكيان الصهيوني ، وقد عاد جلوباس للولايات المتحدة مرة أخرى وأسس

مع مناحم جولان شركة إنتاج سينمائي أمريكية مشتركة هي "كانون" .

ومن خلال هذه الشركة عمل الشريكان كما لو كانا جنودا في "فرقة العاصفة" ، حيث أمطرا العالم بستة وعشرين فيلما تدعو إلى كراهية العرب وإبادتهم ، فمثلا في أفلام: "فرقة الجحيم" (١٩٨٥) ، و"القوة المثلثة" (١٩٨٦) ، و"شوارع القتل" (١٩٩١) ظهرت فتيات الاستعراض إلى جانب مشاة البحرية وجنود القوات الخاصة الأمريكية وهم يحصدون الفلسطينيين في شوارع لاس فيجاس . أما فيلم "الحصار" (١٩٩٨) ، فكان يحرض تحريضا مباشرا على من يعادون السامية التي كانت قد تفشت في الثلاثينات من القرن الماضي .

وفي محاولته تتبع منشأ الظاهرة يرى جاك . ج . شاهين أنها تعود إلى مركب من الأسباب من بينها الربح والمناخ السياسي العام كما أن هوليود تكاد تخلو من الأمريكيين العرب ، ولا تستطيع هوليود التي تتمتع بوعي ثقافي حاد أن تستمر في ممارسة ذلك ضد الزنوج واليهود . ومن الحقائق المؤكدة أن عالم الصور الشنيعة التي تقدمها السينما الأمريكية للعرب ينعكس على اتجاهات وسلوكيات المسئولين والعاملين في حقول الإعلام الأخرى . ومن الشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة ، أن الفترة التي أعقبت قصف المقر الفيدرالي بمدينة أوكلاهوما (إبريل ١٩٩٥) تعرض خلالها الأمريكيون المنحدرون من أصول عربية لما يزيد عن ثلاثمائة جريمة من جرائم الكراهية . وهو ما دفع وزير الخارجية الأمريكية السابق هنري كيسنجر إلى أن يقول محذرا: **"إنه في عصر يتلقى فيه معظم الناس فهمهم للأمور من السينما وليس من الكلمة المكتوبة، فإن تقديم الحقائق يكون مسئولية لا يستطيع صناع السينما التهرب منها، إن عديدا من مشاهدي السينما يعتقدون أن الشخصيات الخيالية التي تقدمها السينما للعرب تمثل عربا حقيقيين"** .

وصناع السينما لم يبتكروا هذه الصورة السلبية بل ورثوها من كتابات غربية استهدفت العرب والمسلمين والإسلام طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فكانت صورة المنطقة في هذه الكتابات صورة الصحارى المقفرة التي يعيث فيها الفساد والأسواق القذرة...وأثرت قصص "ألف ليلة وليلة" بشكل خاص على المفاهيم الغربية حيث انتشرت في لغات عديدة بدرجة لم يفقها في الانتشار سوى كتاب واحد هو الإنجيل.

وسعيا وراء مضاعفة الأرباح أعاد منتجو هوليود إنتاج نسخ جديدة من الأفلام التي سبق إنتاجها في فترات سابقة من القرن العشرين ففيلم "المومياء" الذي أنتج عام ١٩٣٢ أعيد إنتاجه عام ١٩٩٩، ثم تم استكماله بجزء آخر تحت اسم "عودة المومياء" عام ٢٠٠١، وهو يغص بالشخصيات البغيضة المبالغ في تصويرها. ويصف الناقد الأمريكي أنتوني لين الظاهرة بقوله: **"إن الشعب العربي لقي على الدوام من جانب هوليود أسوأ معالجة للأمور المتعلقة به على نحو يتسم بالبعد التام عن تصوير هذا الشعب على حقيقته، ومع انتهاء الحرب الباردة فإن الصورة المشوهة التي سبق تقديمها للشخصية العربية يتم تأكيدها بشكل أسوأ"**. ورغم هذه الملاحظات اللاذعة فإن شركة يونيفرسال التي أنتجت الفيلم لم تتأثر بها مطلقا عندما أنتجت الجزء الثاني من الفيلم.

وتعالج صورة الإسلام على نحو خاص معالجة غير منصفة من جانب هوليود ذلك أن صناع السينما دأبوا على الربط بينه وبين الحروب الدينية وأعمال الإرهاب فيصور المسلمون العرب أعداء وأغرابا وداعرين وعقب مشهد لصلاة في المسجد يأتي دائما مشهد يصورهم يقتلون المدنيين وهو ربط يستقر مع التكرار في ذهن المشاهد بشكل لاشعوري. وللنقاد الأمريكيين وصانعي الأفلام التسجيلية

الأمريكيين ملاحظاتهم على الصور النمطية التي تقدمها هوليود للمجموعات العرقية الأخرى، فصدرت كتب عن صورة الهنود واللاتينيين والزنوج وغيرهم في أفلام هوليود، والأمر المروع أنه رغم خطورة الصورة التي يظهر بها العرب والمسلمون، وهي تبلغ الغاية في السوء، لا يكاد ذلك يثير اهتماما يصل إلى حد إصدار دراسة عن الظاهرة، أو التعرض لها في الدراسات النقدية التي تغطي فترات محددة من تاريخ هوليود.

وعلى سبيل المثال أصدر أندرو داودي كتابا حول الأفلام الأمريكية التي أنتجتها هوليود في الخمسينات يعد قراءة تفصيلية لواقع الثقافة السينمائية في تلك الفترة، ولكنه لم يشر إلى فيلم واحد من أكثر من مائة فيلم في الفترة موضوع الدراسة كلها يقدم صورة سيئة للعرب. وخلال الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٤ أنتجت هوليود أكثر من أربعين فيلما خياليا تشوه صورة العرب، وعن هذه الفترة أصدر الناقد توماس دوهرتي كتابا أشار فيه إلى أن العنصرية كانت الدافع وراء إنتاج نسبة كبيرة من الأفلام الخيالية التي أنتجتها هوليود خلال الفترة المشار إليها، وتعرض دوهرتي في كتابه للصور النمطية للهنود والأفارقة الأمريكيين والآسيويين الأمريكيين واليهود الأمريكيين، بينما لم يشر إلى صورة العرب إلى الإطلاق.

ومن بين أكثر من تسعمائة فيلم أنتجتها هوليود ظهرت فيها شخصيات عربية لم يعثر إلا على عدة أفلام كانت صور العرب فيها "لا بأس بها". وتنقسم هذه الأفلام إلى نوعين: أفلام تستهدف الكبار مثل: "الخروج" (١٩٦٠)، و"الأحد الأسود" (١٩٧٧)، و"الحصار" (١٩٩٨). وأخرى تستهدف المراهقين مثل: "خمسة أسابيع في بالون" (١٩٦٢)، و"الأمور صعبة في كل مكان" (١٩٨٢)، و"الصحارى" (١٩٨٣)، و"عملية النسر الأمريكي". ويجمع بين هذه الأفلام عنصر واحد يسيطر

عليها جميعا هو الصورة التي تبلغ الغاية في الوضاعة والانحطاط التي يتم إظهار العرب بها ، وهي صورة يتم تعميمها على مختلف الأعمار ، وباستمرار الظاهرة تم تثبيت ملامح هذه الصورة على مر الأجيال .

ومن الحقائق الصادمة أن منتجي هوليود زجوا بصورة تظهر العرب بلا أخلاق في أكثر من مائتين وخمسين فيلما لا علاقة لها بالعرب أو المنطقة العربية على الإطلاق ، وقد أسهم في الظاهرة كتاب سيناريو مشهورين مثل ستيفن سبيلبرج وفرانسيس كوبولا وغيرهما . بل إن الوقاحة بلغت بصناع السينما في هوليود حد السخرية من لفظ الجلالة ، حيث يخاطب بطل الفيلم أحد العرب باحتقار وازدراء قائلا "الله" قاصدا التشفي ، وقد أصبحت الكلمة نفسها متداولة بالإيحاء القدحي نفسه بين مشاهدي هوليود ، حيث صاروا يعتقدون أن إله المسلمين وثني قبلي .

ومن خلال بحثه رصد الكاتب خمسة أنماط أساسية تنقسم إليها الشخصيات العربية التي تظهر في أفلام هوليود:

١- الأشرار .

٢- الشيوخ .

٣- الجواري والحريم .

٤- المصريون .

٥- الفلسطينيون .

ويشير جاك شاهين إلى أنه في مئات من الأفلام التي أنتجتها هوليود كان العرب قرين الشر ، فبدءا من فيلم "إعمار الخادم" (١٩١٤) حتى فيلم "عودة المومياء" (٢٠٠١) احتل "العرب الأشرار" شاشة هوليود . وفي الأفلام الدرامية يظهر نجوم

هوليود هم يناضلون ضد العرب ويلحقون بهم الهزائم المنكرة بين عامي: ١٩١٧ و ١٩٩٩ شارك نجوم كبار مثل: جاري كوبر ، وهاريسون فورد ، وكيرت راسل ، وغيرهم في أفلام من هذا النوع . ومنذ ظهور فيلم "أسيرة البدو" (١٩١٢) وحتى فيلم "رسالة البجع" (١٩٩٣) يسيطر على صورة العرب نمط البدو الذين يحاولون اغتصاب بطلة الفيلم الشقراء ، أو خطفها أو قتلها .

أما في الأفلام الكوميدية فيظهر العرب في صورة مهرجين ، وبعض من أشهر كوميديانات هوليود يسخرون في أفلامهم من العرب . ومن هؤلاء النجوم: ويل روجرز في فيلم "العمل والمرح" (١٩٣١) ، ولوريل وهاردي وبنج كروسي وبوب هوب في فيلم "الطريق إلى مراكش" (١٩٤٢) ، وبود أبوت ولوكستللو في فيلم "أبو كستللو في الفرقة الأجنبية" (١٩٥٠) وغيرهم كثيرون . وفي هذه الأفلام يشير الأبطال إلى العرب بوصفهم قردة وكلاب ، وتعزز مثل هذه الأفلام لدى المشاهد إحساسا بالاختلاف عن العربي بوصفه "الآخر" .

وفي أفلام الحروب كان العرب وحدهم على الدوام هدفا سهلا للنيل منهم ، فمنذ عام ١٩١٢ ظهرت عشرات الأفلام تظهر فيها قوات عسكرية: أمريكية أو بريطانية أو فرنسية ، ومؤخرا إسرائيلية ، وهي تقوم بسحق العرب . فمثلا في فيلم "الدورية الأخيرة" (١٩٣٤) . يظهر جندي بريطاني وهو يطلق النار على بعض العرب قائلا: "هؤلاء العَرب الحقراء الأقذار السفلة"!! ، وفي فيلم "سيروكو" (١٩٥١) وهو أول فيلم يظهر فيه العرب "إرهابيين" نرى سوريين "متغصبين" وهم يغيرون على جنود فرنسيين .

وفي حوالي عشرة أفلام تم تصوير العرب في صورة من يستعبدون الأفارقة ، وفي أربعة أفلام أنتجت بين ١٩٤٩ و ١٩٩٨ تم تصويرهم يقومون بغزو عسكري

للولايات المتحدة ويبثون الرعب في كل مكان . وفيما لا يقل عن اثني عشر فيلما تمت صناعتها في الكيان الصهيوني بواسطة شركات يمتلكها إسرائيليون في هوليود ، مثل: "النسور يهاجمون عند الفجر" (١٩٧٠) ، و"النسر الحديدي" (١٩٨٦) ، وفيها يظهر جنود أمريكيون وصهاينة وهم يسحقون "العرب الأشرار" .

رغم أن كلمة " شيخ " يقصد بها الرجل الحكيم كبير السن أو رب الأسرة فإن من يشاهد فيلما من أفلام هوليود لن يجد هذا المعنى لا من قريب ولا من بعيد ، إذ تبدو هذه الشخصية مقززة في أكثر من ١٦٠ فيلما أنتجت في هوليود . وبدءا من العشرينات كان يتم رسم صورة "الشيخ" على شاشة هوليود بملامح تنم عن الشهوة ، ولمزيد من الإثارة والمبالغة التي تحفز الخيال يظهرون وهم يرتدون أثوابا قذرة كالملاءات ويبيتون النية لاقتناص الشقراوات لضمهن إلى "الحريم" .

وبدءا من السينما الصامتة ، نجد أفلاما مثل: فيلم "العرب" (١٩١٥) ، وفيلم "الشيخ" (١٩٢١) ، وقد أنتج أكثر من ستين فيلما ما بين صامت وناطق ، بدءا من فيلم "السيف والنار" (١٩١٤) ، حتى فيلم "بروتوكول" (١٩٨٤) يظهر فيها شيوخ عرب "أجلاف" يتناحرون لاختطاف فتاة شقراء . بل إن أفلام الرسوم المتحركة "الكارتون" نفسها لم تخل من وصم العرب بالحقارة!! وتؤكد هذه الأفلام أن استغلال الإسلام لتبرير العنف أصبح الآن يشكل خطورة على الغرب والكيان الصهيوني أكثر من ذي قبل . وخلال عقد الثمانينات من القرن الماضي ظهرت أكثر الأفلام تشويها لصورة "الشيوخ" ، كما ظهرت خمسة أفلام من هذا النوع تمت صناعتها في الكيان الصهيوني ، وكان فيلم "الفردوس" (١٩٨١) الذي أنتجته شركة جولان وجلوباس من أشد هذه الأعمال إساءة في تصوير "الشيوخ" .

ويحصي جاك شاهين في كتابه أكثر من خمسين فيلما أنتجتها هوليود وتضمنت

إساءات للمرأة، ومنذ عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٨١ كانت هوليود ترسم النساء العربيات في صورة من يستخدمن السحر الأسود لغواية الرجال. أما أزياؤهن فتحمل دلالات عديدة، فبعضهن جواري يرتدين ملابس شفافة لا تكاد تستر شيئا من أجسادهن أو متشحات بالسواد بشكل فيه مبالغة مقصودة.

أما النمط الرابع - المصريون - فيظهرون في أكثر من مائة فيلم محتالين ومتسولين يلهثون وراء "البقشيش". ومما يستحق الاهتمام بشكل خاص مجموعة أفلام أعد سيناريوهاتها المخرج الشهير سبيلبرج من بينها: فيلم "شارلوك هولمز الصغير" (١٩٨٦)، وفيلم "أنديانا جونز والحملة الصليبية الأخيرة" (١٩٨٩)، كما يجدر الاهتمام أيضا بفيلم أنتجته شركة جولان وجلوباس، التي سبقت الإشارة إليها، في الكيان الصهيوني هو فيلم "عملية القاهرة" (١٩٦٥). وفي هذا الفيلم ظهر المصريون مهووسين بالأسلحة النووية موالين للنازية!!.

كما أن ثمة مجموعة من الأفلام تصور "المصريين الأشرار" وهم يحاولون القضاء على "اليهود الأبطال"، مثل: فيلم "الوصايا العشر" (١٩٢٣) لسيسيل دي ميل، قد ظهر فيه المصريون وهم يضربون اليهود، الذين أطلقوا عليهم وصف "كلاب بني إسرائيل"، كما يظهر ابن فرعون وهو يجلد النبي موسى، وقد أعيد إنتاج هذا الفيلم عام ١٩٥٦. وفيلم "أمير مصر" (١٩٩٨) لجيفري كاتزنبرج. وذكر اسم مصر أمام منتجي هوليود لا يعني سوى شيئين اثنين: "المومياوات" و"المال"، ومنذ أن أنتجت هوليود فيلم "المومياء" (١٩١٤)، وفيلم "غبار مصر" (١٩٢٦) قدمت هوليود أكثر من ستين فيلما عن المومياوات. وفي فيلم "عودة المومياء" (٢٠٠١) بدت صورة المصريين سيئة لدرجة لا يمكن تصورها أو تصديقها.

أما الفلسطينيون فإن أكثر من نصف الأفلام التي عرضتها هوليود عن الفلسطينيين تم عرضه في الثمانينات والتسعينات ، فبين عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٩ تم عرض تسع عشر فيلما ، وبين عامي ١٩٩٠ و ١٩٩٨ تم عرض تسعة أفلام ، ومن يشاهد هذه الأفلام يشعر أن هناك اتفاق عرفي تلتزم هوليود بمقتضاه بتقديم الفلسطينيين جميعا في صورة الأشرار مقابل صورة إيجابية للصهاينة . وفي أول فيلم ظهر بعد إعلان قيام الكيان الصهيوني ، فيلم "سيف الصحراء" (١٩٤٩) ، ظهرت فلسطين في صورة مطابقة للدعاوى الصهيونية تماما "أرض بلا شعب" . وبعد حوالي عشرة أعوام ، وبالتحديد عام ١٩٦٠ ، أعلن الممثل الأمريكي ذائع الصيت بول نيومان الحرب على الفلسطينيين في فيلم "الخروج" .

وحذا كثير من نجوم هوليود حذوه ، ومنهم: ديفيد جانسن في فيلم "سجين في الوسط" (١٩٧٤) وفيه تشترك قواته مع قوات صهيونية في إطلاق النار على مسلحين فلسطينيين ، وفي فيلمي "القوة الثلاثية" (١٩٨٦) ، و"مطلوب حيا أو ميتا" (١٩٨٧) تقدم هوليود نجوما مثل لي مارفين وشاك نوريس وغيرهما وهم ينسفون الفلسطينيين في لبنان ولوس أنجلوس . وفي سبعة أفلام من بينها "أكاذيب حقيقية" (١٩٩٤) تم تصوير الفلسطينيين إرهابيين يستخدمون الغازات السامة والأسلحة النووية . وفي أحد عشر فيلما من بينها "الرعب في بيفرلي هيلز" (١٩٨٨) يظهر الفلسطينيون وهم يعتدون على أطفال غربيين .

ويرى جاك شاهين أنه ينبغي الالتفات بصفة خاصة لفيلم "يوم الأحد الأسود" (١٩٧٧) ، لأنه أول فيلم تنتجه هوليود ويصور الفلسطينيين يرهبون الأمريكيين ويقتلونهم داخل الولايات المتحدة نفسها ، حيث يظهر فيه فلسطينيون يستهدفون قتل ثمانين ألفا من الأمريكيين ضمنهم الرئيس الأمريكي نفسه . كما أن من

الحقائـق الـتي لفتت نظر شاهين أن أكثر من نصف الأفلام التي أنتجتها هوليود عن الفلـسطينيين تم تصويرها في الكيان الصهيوني ، وفي معظم الأفلام التي تم تصويرها في الكـيان الـصهيوني - وبخاصـة الأفلام السبعة التي أنتجتها شركة كانون - يظهر الفلسطينيون سفلة مهووسين جنسيا يقتلون الغربيين بل رفاقهم العرب .

وفي عام ٢٠٠٠ أخرج الأمريكي ويليام فريدكين فيلم "قواعد الاشتباك" وأسند بطولـته إلى الممـثل الـشهير صمويل جاكسون ، وكان الفيلم موغلا في عنصريته إلى درجـة إظهـار أطفـال يمنـيين في صورة سفاحين معادين للولايات المتحدة . وخلال الحربين العالميتين والحرب الكورية ، رغم ما أديا إليه من حالة من التعصب القومي في المجـتمع الأمريكـي ، لم يظهر في أفلام هوليود قوات أمريكية تذبح أطفالا . ومع ذلـك ففـي المـشهد الختامي يظهر رجال مشاة البحرية الأمريكية وهم يطلقون النار على اليمنيين فيقتلون منهم ثلاثة وثمانين فردا من الرجال والنساء والأطفال .

وخـلال هـذا المـشهد نهـض مشاهدو الفيلم الأمريكيون وقوفا وهم يصفقون يهللـون!! ويباهـي مخرج الفيلم بذلك فيقول: **"لقد رأيت جماهير المشاهدين وهم يهبون وقـوفا ويهللـون إعجابـا في كل دور العرض التي عرض فيها في الولايات المتحدة"!!** ، وحـسبما يـرى جـاك شـاهين فـإن ذلك لا يرجع إلى افتقار المشاهدين التام للحس الـثقافي ، بل هو حصاد ما يزيد على قرن من الزمان كان العرب فيه رمز الشر على شاشـة هولـيود الفـضية . ولذا فإن فيلم "قواعد الاشتباك" كرس فكرة كون العرب أعداء للولايات المتحدة بشكل تضمن تعميما شديد الخطورة .

وفـيلم قـواعد الاشـتباك يـثير قضية شديدة الخطورة ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها تمـثل أخطـر المعلومات الواردة في الكتاب ، رغم غزارة معلوماته التي تحدث لقارئة الـصدمة تلـو الأخـرى ، فمنـتج الفـيلم أعلـن أنـه مـدين بالفـضل لـوزارة الدفاع

الأمريكية "البنتاجون" وسلاح البحرية الأمريكية على ما قدماه من مساعدة . وحتى لا يظن القارئ أن المؤسسة العسكرية الأمريكية تقدم مثل هذه المساعدات بشكل محايد دون أن تخضع مضامين العمل الفني لأي نوع من التقييم، يقدم المؤلف معلومات ونماذج تنفي ذلك تماما . وهناك أربعة عشر فيلما تظهر الأمريكيين وهم يقتلون العرب ، كلها يدين منتجوها بالفضل لوزارة الدفاع الأمريكية لما قدمته من مساعدات فنية وبشرية لإنتاج هذه الأفلام .

وفي حقيقة الأمر فإن ليس ضريبة ما تتمتع به هوليود من حرية ، فوزارة الدفاع الأمريكية لا تقدم مساعدات فنية لأفلام تسيء إلى شعوب غير العرب ، وفي أواخر الخمسينات أحجم مسئولو الوزارة عن تقديم هذا الدعم لفيلم حاول منتجوه أن يقدموا من خلاله صورة نمطية مشوهة لليابانيين . فعندما كان يصور فيلم "جسر نهر كواي" (١٩٥٧) قام دونالد باروتسن ، مدير مكتب الإنتاج السينمائي بوزارة الدفاع الأمريكية ، بتحذير منتجي الفيلم من المبالغة في إظهار اليابانيين في صورة عنيفة قائلا: **"إن استخدام عبارات تحط من قدر المجموعات العرقية أو القومية أو الدينية أمر يضر بمصالحنا القومية، وبخاصة إذا كانت الأفلام تنتج بمساعدة حكومية"** .

بينما كان العرب على الدوام - وحدهم - أهدافا سهلة للنيل منهم في أفلام الحرب ، من المؤكد أن موافقة وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون على تقديم مساعدات لأفلام حربية تسيء للعرب أحد أهم أسباب استمرار الظاهرة بل تفاقمها . فللحكومة الأمريكية سجل حافل في التدخل فيما يمكن عرضه من أفلام يرجع إلى عام ١٩١٧ .

* * * * *

الفصل الرابع:

الجذور المعرفية والفكرية للموقف الأوروبي من الإسلام

معركة الحجاب نموذجا

لعل السؤال البدهي الذي لا يطرحه أحد في السجال الدائر في الغرب حول ما يسمى: "معركة الحجاب" هو: لماذا يصبح الحجاب في أوروبا "معركة"؟!!

الرئيس الفرنسي شيراك صدر عنه (٥ ديسمبر ٢٠٠٣) تصريح مهم أثناء زيارته لدولة مسلمة هي تونس العضو النشط في "تحالف أعداء الحجاب" وهو ما يضفي على تصريحه هذا أهمية خاصة ، وحسب شيراك فإن الحكومة الفرنسية ذات النظام العلماني الصارم لا يمكنها أن تدع التلميذات يرتدين ما وصفه بأنه: **"علامات متباهية للهداية الدينية"** ، وقال: **"في مدارسنا العامة.. الحجاب به شيء عدواني يمثل مشكلة من حيث المبدأ حتى إذا ارتدته أقلية صغيرة"** . وزادت تصريحات شيراك القلق العام بشأن ما يعتبره الفرنسيون مشكلات مثل: الإسلام وحقوق المرأة وهجرة المسلمين ، فعلى سبيل المثال أصدرت أكثر من ٦٠ فرنسية بارزة منهن مناشدة تحث على فرض حظر على "هذا الرمز المرئي لخضوع المرأة" .

ويقول منتقدو هذا الاتجاه إن حظر قطعة قماش يتجاهل السبب الجذري للمشكلة وهو الفشل في دمج خمسة ملايين مسلم بفرنسا . والمشكلة ليست الحجاب ، كما أنها ليست فرنسية بل غربية عامة ، وليست قانونية بل مشكلة حضارية عامة تشبه من وجوه عديدة ما عرف في التاريخ الغربي بـ "المشكلة اليهودية" فهي من زاوية المشابهة إعادة إنتاج للمشكلة اليهودية . وهذه العبارة في الحقيقة مفتاح لفض الاشتباك بين عوامل تاريخية وآنية عديدة فالمسلمون واليهود مرتبطان في الوجدان الأوروبي والهجوم على اليهودية في مطلع عصر التنوير كان في الحقيقة هجوما على الأديان السماوية فكانت "اليهودية" ترمز لكل ما هو سماوي!

ولكي نرسم صورة تقريبية للمناخ الذي أثيرت فيه القضية نتوقف عند بعض

التقارير التي ترسم صورة للإسلام والمسلمين في اللإعلام الألماني كمرآة لصورتهم في الوعي الألماني ففي تقرير للإذاعة الألمانية (دويتش فيلله) جاء أن القناتين الألمانيتين "الحكوميتين" الأولى والثانية تتناولان الإسلام بشكل سلبي حيث ٨٠ % من الحالات التي تناولوها صورت الإسلام كخطر على السياسة والمجتمع .

الدراسة واحدة من سيل من الدراسات المماثلة التى تعكس إلى أي حد أصبحت صورة الإسلام والمسلمين لدي وسائل الأعلام الألمانية محور اهتمام كثير من المؤسسات الأكاديمية في ألمانيا ، وقد أجراها البروفيسور كاي حافظ والأستاذة كارولا ريشتر من قسم الإعلام بجامعة إيرفورت الألمانية وركزا بالتحديد على دراسة كيفية معالجة القضايا الإسلامية في قناتى التلفزيون الحكوميتين الأولى ARD والثانية ZDF على مدار عام ونصف . ومن النتائج التى توصلت إليها الدراسة أن القناتين ساهمتا في الترويج لتصورات سلبية تقوم على أحكام مسبقة عن الإسلام وهو الأمر الذي أدى إلى زيادة المخاوف منه وتكريس أجواء صراع الثقافات داخل المجتمع الألمانى ، ولأن أغلبية المواطنين الألمان لا يرتبطون بعلاقات مباشرة مع جيرانهم المسلمين أو العالم الإسلامى ، فإن تصوراتهم عن الإسلام مستمدة بشكل كبير من تقارير وسائل الإعلام .

وحللت الدراسة صورة الإسلام والمسلمين في ١٣٣ مادة سياسية بثتها القناتان بين يونيو ٢٠٠٥ وديسمبر ٢٠٠٦ وتنوعت هذه البرامج بين تسجيلية ووثائقية وتحقيقات وتقارير أو برامج حوارية شهيرة . وكثير من البرامج التلفزيونية تقدم الإسلام كخطر سياسى اجتماعى ، وتربطه بقضايا العنف والنزاعات وأوضحت الدراسة أن ٢٣ . ٣١ % من المواضيع المتعلقة بالإسلام في برامج القناتين دارت حول الإرهاب والتطرف ولم تشمل تغطيتهما للقضايا الدينية ازدياد

النزاعات العنيفة والمتطرفة في أديان أخرى . كما أن التقارير المحايدة أو الإيجابية حول الإسلام والمنتمين إليه لم تتجاوز ١٩ % مما تم تقديمه تشير النتائج أيضا إلى أن مقدمي البرامج عمدوا في أكثر من ٨٠ % من الحالات التي تناولوها إلى تصوير الإسلام كخطر على السياسة والمجتمع . كما عمدوا إلى تقديمه كأيدولوجيا سياسية ذات منظومة مخالفة للأنماط السلوكية السائدة في المجتمع الألماني ، إضافة إلى ربطه بقضايا العنف والإرهاب واضطهاد المرأة ومشاكل الاندماج والتعصب الديني .

وقد تضمنت الدراسة ملحقاً خاصة بقائمة توصيات للقناتين تطالبهما بمراجعة حيادية وموضوعية للبرامج الخاصة بالإسلام ، وإعادة صياغتها لتغطى واقع المسلمين من أوجه متعددة بدل الاقتصار على عرض السلبيات . وحذرت من مبالغة الأجندة الإعلامية الألمانية في الحديث عن خطر أسلمة المجتمع . ويري حافظ وريشتر أن من الأفضل أولا اجتهاد المؤسسات الإعلامية بشأن فهم خلفية المشكلة المعقدة وأسبابها ، بدلا من النظر إليها من جانب واحد وتحميل الإسلام المسؤولية في تطور قضايا الإرهاب والعنف .

البداية من ألمانيا:

في هذا المناخ كانت بداية طرح قضية الحجاب في ألمانيا قبل أن تمتد ردود الفعل إلى فرنسا ، وقد استمدت القضية أهميتها في الإعلام الألماني من ميراث ثقافي متجذر إلى حد بعيد وإلحاح إعلامي مزمن على العداء للإسلام نفسه . وتصوير الإسلام كعدو ليس جديدا فله جذور تاريخية بعيدة ترجع إلى الحروب الصليبية . ولكي نتبين المشابهة بين هذا الموقف وموجات العداء الغربي لليهود التي امتدت لأكثر من قرنين وأفرزت في النهاية المشروع الصهيوني ننقل عبارة شديدة الدلالة للباحثة الألمانية المعروفة يوخين هيبلر تقول: "**ومن المعروف، وليس من قبيل الصدفة،**

أن تلك العصبية كانت وراء اضطهاد اليهود" .

ولم تكن قضية الحجاب في ألمانيا أبدا قضية قانونية دفع للاهتمام بها الحرص على النظام العام بل بدأت وما زالت قضية ثقافية وحضارية خطيرة يحاول الإعلام الألماني تحريف صورتها وتجاهل خلفياتها الحقيقية التي تشير لمأزق عميق يواجهه الغرب في علاقته بالآخر وهو مأزق مزمن . فالصورة التي يرسمها الإعلام الألماني صورة ثقافة عقلانية تنويرية تتعرض لتهديد خطير من "بربرية الإسلام ولا عقلانيته" وبالتالي فمحاولات حصاره ونفيه مشروعة ، وتطرح في الإعلام الألماني أسئلة من نوع: هل نتعرض فعلا لخطر حرب مقدسة من قبل المسلمين المتعطشين للانتقام؟

وفي دراستها القيمة "العداء للإسلام في الرأي العام الغربي" تحاول الباحثة الألمانية أندريا لويج الخروج من شرنقة الخطاب السائد فتقول: "لقد استعرض الغرب مؤخرا تفوقه العسكري المروع على بلد إسلامي جيد التسليح ذي خبرة بالحرب هو العراق، فمن أين يأتي التهديد الإسلامي إذن؟ أمن جانب نفسي، أم من الدين، أم من الثقافة؟ الواقع أن الرموز الإسلامية تثير فينا القلق، كما توضح حالة التلميذات المحجبات في فرنسا اللواتي فصلن من المدرسة بسبب ارتدائهن الحجاب ورفضن خلعه أثناء فترة الدراسة، وأعلن مدير المدرسة أن ارتداءهن الحجاب بانتظام وبإصرار يحمل سمة "التحدي والعدوانية "..... وبعد نزاع طويل قررت المحكمة الإدارية العليا في فرنسا حق الفتيات الثلاث في ارتداء حجابهن أثناء الدراسة" .

ولعل من المهم أن نسجل أن هذه الحالة التي ضخمها الإعلام الغربي كما هو معهود تعود للعام ١٩٩٢ ، وهو ما تعبر عنه لويج بقولها: "إن مصطلحات مثل "الحريم" و"الحجاب" و"الخادمة التركية المحجبة" هي الكليشيهات التي تعنى بها وسائل الإعلام عناية خاصة.... ولنا أن نلاحظ كيف تحولت "قضية حجاب التلميذات" إلى "حرب

التشادور" في وسائل الإعلام الفرنسية" .

وتورد لويج معلومة تشير بوضوح إلى مركزية الصورة السلبية للمرأة المسلمة في التصور المعادي للإسلام ، ولكن المعلومة نفسها تشير إلى الفرق بين الموقف من الإسلام في أوروبا والولايات المتحدة وهو ما سنتوقف عنده في موضع قادم من هذه الدراسة ، تقول أندريا لويج مشيرة إلى كتاب أصبح ضمن أشهر أدبيات العداء للإسلام في ألمانيا: فتح كتاب"بيتي محمودي" (لكن لا تأخذ ابنتي) الذي وزع في ألمانيا عشرة أمثال توزيعه في الولايات المتحدة الأمريكية (لاحظ أن سكان الولايات المتحدة لا يقلون عن ثلاثة أضعاف سكان ألمانيا) الباب أمام سلسلة طويلة من الإصدارات التي تناقش حياة المرأة في الدول الإسلامية أو حياة اللواتي يتزوجن من مسلمين . وكلما كان موضوع الكتاب دراميا ووحشيا كلما كان أوسع انتشارا .

القانون أم الضمير؟

في تعليق له على أزمة الحجاب في فرنسا أبدى رئيس مجلس أساقفة فرنسا المونسنيور جان بيار ريكار وأبدى قلقه من جراء "**تقدم الدعوة إلى إصدار قانون في هذا الشأن، على تربية الضمائر وعلى نهج تربوي طويل المدى**" . ولكي ندرك السياق الصحيح الذي ينبغي أن توضع فيه أزمة الحجاب في ألمانيا نذكر بأن الإصلاح البروتستنتي الذي قضى على حكم الكنيسة في ألمانيا وقضى معه على سيادة المذهب الكاثوليكي كان هدفه الأول منح الضمير الشخصي مكانة أكثر مركزية من تعليمات الإكليروس الكنسي فإذا بقضية الحجاب تعيد ترسيم إكليروس جديد علماني يمارس وصايته على الإنسان ليمنع مسلمة من ارتداء غطاء رأس!!!

وننتقل من التحليل للوصف معتمدين على - في المقام الأول - ما نشره الإعلام الألماني عن المشكلة حتى لا نتهم بالنقل عن مصادر منحازة ، ففي البداية

أدى الخلاف في أوساط المسؤولين عن التعليم في ألمانيا بخصوص السماح أو عدم السماح للمدرسات المسلمات بلبس الحجاب في المدارس إلى منع بعضهن من ممارسة هذا الحق في ولايات والسماح لأخريات في ولايات أخرى . وقال رئيس مجلس الثقافة الألماني: "**إن الحرمان القانوني ليس الطريق لدمج أكثر من ثلاثة ملايين مسلم يعيشون في ألمانيا**" . وبعد صدور حكم المحكمة أصدر وزراء التعليم في ١٦ ولاية ألمانية بيانا قالوا فيه إن سبعة منهم سيمررون قوانين تمنع المدرسات المسلمات من لبس الحجاب ، في حين رأى ثمانية آخرون - بينهم وزير التعليم في ولاية العاصمة برلين - عدم الحاجة لمثل هذا التشريع .

ويؤدي هذا الوضع إلى ترك ألمانيا دون سياسة موحدة بخصوص هذه القضية التي بدأت تثير جدلا في عموم أوروبا ، كما أنها تثير انقسامات إزاء مسألة اندماج المواطنين المسلمين في المجتمعات الأوروبية . وبرز الخلاف في ألمانيا بعد حصول معلمة ألمانية من أصل أفغاني كانت منعت من ارتداء الحجاب عام ١٩٩٨ على حق لبسه في أعقاب حكم المحكمة الدستورية الاتحادية لها بذلك بوصفه ممارسة دينية لا يمنعها الدستور . ويلزم الدستور الألماني الدولة هناك باتخاذ حيادية صارمة إزاء الشأن الديني ، لكنه لم يحدد رسميا موضوع فصل الدين عن الدولة . بيد أن تحديا برز مؤخرا من ولاية بافاريا الكاثوليكية حيث تسعى السلطات هناك لحق عرض الصليب في قاعة الدرس ، وهو حق حصلت عليه في العام ١٩٩٩ .

وحسب تحليل عنوانه "قضية الحجاب أمام محكمة الدستور الاتحادية" نشره موقع القسم العربي لإذاعة الدويتشه فيلله فإن السجال المحتدم في ألمانيا في أوساط الرأي العام وأمام المحاكم حول الحجاب تعود جذوره إلى منتصف القرن الماضي ، عندما كانت الدول الأوروبية تنهض شيئاً فشيئاً من دمار الحرب العالمية الثانية

وتداوي جروحها وتخطط لبناء حاضر ومستقبل جديدين . ولم يكن الكثيرون قد وضعوا في اعتبارهم حلول تطورات مستقبلية على صعيد هجرة أعداد ضخمة من أبناء شتى شعوب بلدان القارات الأخرى ؛ وهي مجموعات لم تأت فقط على شكل هياكل بشرية إنما حملت معها ثقافاتها وعاداتها وتطلعاتها . في ألمانيا مثلاً التي أنزلت فيها الحرب الكونية الثانية من الدمار ما يصعب رصد حجمه في أسطر قليلة تركز الاهتمام الأول على البناء الاقتصادي وعلى وضع دستور ديمقراطي . من أجل البناء الاقتصادي تم جلب عمال بأعداد كبيرة من تركيا . وقدم أيضاً عدد كبير من العمال من إسبانيا ومن اليونان ومن دول أخرى .

وبالنسبة إلى العمال الذين أتوا من تركيا فقد جلبوا دون عائلاتهم وضمن اتفاقيات عمل محددة زمنياً وكان يطلق عليهم "العمال الضيوف" . وطالما أن زوجات هؤلاء العمال وبناتهم لم يأتوا معهم لم يظهر عندئذ ما يسمى بقضية رداء المرأة المسلمة التقليدي والديني وما قد يسببه من مشاكل لها إن هي تقدمت إلى العمل لدى الهيئات الرسمية . ومن النقاط الهامة الأخرى أن واضعي الدستور الألماني لم يكونوا لدى التحضير له قد حسبوا حساباً على ما يبدو لما سيطرأ على الهيكلية الاجتماعية من تغير ، وضمن ذلك الآثار التي سيخلفها على مجرى الحياة العملية . وبما أن جمهورية ألمانيا الاتحادية دولة علمانية ، فإن دستورها ينص على حق الفرد بالحرية الدينية مع تأكيد ضمان الحيادية في المؤسسات التعليمية وبحيث لا يتعرض التلاميذ إلى تأثيرات دينية مختلفة .

ويحتضن المجتمع الألماني اليوم من خلال المهاجرين الذين يعيشون بين ظهرانيه العديد من الثقافات الأخرى ومن بين هذه الثقافات ما يجد صعوبة في التعامل معها بسبب ضآلة معرفته بها . وقد شبت في هذه الأثناء أجيال جديدة من أبناء

المهاجرين الذين ينخرطون في شتى صور الحياة التعليمية والمهنية وغيرها . ومع ذلك تبقى صورة الرداء الإسلامي التقليدي تشكل في نظره نوعاً من التحدي ويتم الربط بشكل تلقائي بين المظهر وبين ما يجده دعوة إلى الدين . وهكذا تتوالى الحالات التي يتم فيها رفض مسلمة متحجبة للعمل لدى إحدى الشركات أو في المدارس .

الحرية الدينية وحياد الدولة:

وحسب رأي نائب رئيس محكمة الدستور الاتحادية فينفريد هاسيمير تتمثل عقدة القضية التي تبت بها المحكمة في السؤال عن مدى قدرة المجتمع الألماني على تحمل الديانات الغريبة . أما محكمة الدستور الاتحادية فعالجت (حسب تقرير الإذاعة الألمانية) التأثير النفساني لمعلمة متحجبة على التلاميذ وفي هذا الإطار قال عالم نفس الأطفال الأستاذ بيتر ريديسر: "**إذا كانت المعلمة المحجبة ليست ذات تعصب ديني، لا يتمخض عن ممارستها التعليم آثار عاطفية وتعليمية سلبية**" ، لكن المختص في علم النفس من مدينة كيل توماس بليسنر فيقول: "من المحتمل أن يسبب الحجاب انعكاس صراعات خارجية على جو المدرسة" . وقضاة محكمة الدستور الاتحادية التي تبت حالياً في قضية الشابة المسلمة مضطرون في هذه الحالة إلى الاستنارة في حيثيات الحكم الذي يتخذونه بقطبين أساسيين:

١ - الحق بالحرية الدينية .

٢ - واجب الدولة في ضمان الحياد .

وتصل أهمية القضية التي ذهب كثير من الكتاب والمثقفين العرب للتهوين من شأنها إلى حد طرح مسألة تعديل الدستور ، فالخبير القانوني فينفريد هاسيمير يرى أن القرار حول الحجاب في المدارس مناسبة لجعل الدستور يتماشى مع متطلبات

الوقت الحاضر بحيث يتطرق إلى ظاهرة الهجرة وتباين الثقافات ، وهو الوضع الذي لم يكـن موجوداً في ألمانيا أيام وضع الدستور . قاضي الدستور بيرتولد سومر يتكلم بشكل أدق قائلاً: **"الأمر يتعلق بالتوصل إلى نوع من التوازن بين حقوق المعلمات والتلاميذ والأهالي وبين واجب الدولة في ضمان الحيادية"** .

وبعـد بـصدور حكـم المحكمـة الألمانية حدثت ردود فعل متفاوتة تنقلها جريدة القـدس العربـي اللندنـية في تقريـر لهـا جاء فيه: اتخذت المحكمة الدستورية الألمانية وهي أعلي سلطة قضائية في البلاد قرارا مثيرا للجدل يسمح لكل ولاية ألمانية علي حـدة بمـنع المعلمـات المـسلمات مـن ارتـداء الحجـاب أثـناء مزاولتهن لعملهن في المـدارس الحكومـية بـشرط توفـر أسـس قانونـية في الـولاية المعنية . وهكذا تكون المدرسة الألمانية أفغانية الأصل فرشته لودين (٣٠ عاما) حققت انتصارا جزئيا في ما يطلـق علـيه في ألمانـيا بـ "شجار الحجاب" الذي دخل عامه الخامس بعد أن رفضت لـودين عام ١٩٩٨ خلع حجابها أثناء الحصة في إحدى المدارس الحكومية في ولاية بـادن فوتنـبيرغ الألمانـية الجنوبـية مـستندة في اتخاذهـا للقرار إلي القانون الأساسي الألماني الذي ينص علي حرية المعتقد وعلي أنه لا يجوز أن يتضرر أحد أو يميز سلبا عـن غـيره بـسبب عقيدته أو دينه ، علي حد قول المدرسة المسلمة . وقالت المدرسة في حيـنها إن الحجـاب لا يعتـبر مظهرا من مظاهر اضطهاد المرأة ، بل إن ما يحفزها علي ارتدائه هو الحفاظ علي حشمتها وحجب جاذبيتها عن الرجل .

وجاء قرار المحكمة الأولى الذي اتخذ عام ١٩٩٨ ليجبر لودين علي الانتقال إلى بـرلين إذ يمكـنها في العاصـمة الألمانـية مزاولة عملها في إحدى المدارس الإسلامية دون الاضـطرار إلـي خلـع حجابهـا . وفي برلين لجأت الأفغانية التي تحمل الجنسية الألمانـية مـنذ عـام ١٩٩٥ مجددا إلي القضاء ، وخسرت لودين للمرة الثانية القضية

أمـام محكمـة إداريـة في العاصـمة الألمانـية . وعلل القاضي اتخاذه للقرار بان ارتداء الحجـاب في المـدارس الحكومية يضير بمبدأ الحيادية الذي من الضروري الالتزام به أثـناء ممارسـة مهـنة الـتدريس في المدارس الحكومية ليعيد بذلك إلى الأذهان معركة الحجاب التي بدأت عام ١٩٩٨ .

وقـال القاضـي إنـه اعـتمد علي قوانين أساسية كان أهمها القانون الذي يملي علـي الموظـف الحكومـي الالتزام بروح قوانين الدولة وبالتالي الالتزام بالحيادية بما يخص المسائل الدينية ، علي حد تعبيره . من جانبه قال المدعي العام إن المسألة تحمل في طـياتها معانـي سياسـية مستـشهدا بـرفض القـضاء الألماني عام ١٩٩٥ السماح للمـدارس الحكومـية في ولاية بافاريا الألمانية الجنوبية بتعليق الصليب في المدارس . ودافعت المدرسة مرارا عن موقفها بالقول إن الحجاب تعبير عن انتمائها الشخصي الـي ديـنها الإسـلام وأنـه مظهـر مـن مظاهر ارتداء اللباس لدي النساء المسلمات ولـيس أكثـر مـشيرة إلى أن إجـبارها علـي خلعـه أثناء ممارستها لمهنتها هو إهانة لها حسب قولها . من جانبها قابلت الصحف الألمانية قرار المحكمة بالانتقاد متهمة أعلي سـلطة قـضائية في الـبلاد بالتهـرب مـن تحمـل المـسؤولية . ووصفت أسبوعية دي تـسايت قـرار المحكمة بأنه "جبان ويدعو إلى خيبة الأمل" كما اتهمت الصحيفة القضاة بأنهم "خوافون لدرجة الهم لم يكونوا قادرين علي حل التراع الذي دخل عامه الخامس" .

وأضـافت أن مـا يدعـو للقلق هو حرمان المسلمة من معرفة وتوضيح حقوقها قائلة إنه علي ما يبدو أن اتخاذ أي قرار كان بالنسبة للقضاة سيان ، ففي حين نصت الفقـرة الأولى لقـرار المحكمـة علـي الـسماح للمدرسـة بارتـداء الحجاب من أجل تـشجيع التـسامح بـين المـسلمين وغير المسلمين ، نصت الفقرة الثانية علي النقيض تمامـا ، فقـد علـل القضاة إعطاء كل ولاية ألمانية الحق في البت في المسألة علي حدة

بـان مـنع ارتـداء الحجاب ممكن من أجل الحيلولة دون وقوع خلافات مع التلاميذ ومع أهاليهم .

وأصـبحت ردود الفعل على قرار المحكمة الموضوع الرئيس في الإعلام الألماني فأجـرت مجلـة "ديـر شبيغل" الواسعة الانتشار استفتاء حول الموضوع كشف أن نحو ٦٠ في المائـة من الألمان يرون أن قرار السماح بلبس الحجاب في المدارس "خاطئ" . وإذا كان استطلاع الدير شبيجل يشير إلى اتجاه عام معاد للحجاب في أوساط الرأي العـام فـإن هــذا الاتجـاه العـام كـان مفقـودا في ردود فعـل النخـبة مـن مـثقفين ومتخصـصين ، فمـن جانـبه عـبر رئـيس البرلمان الإتحادي "البوندستاغ" وولفجانج تـيرزه عـن خيـبة أمـل مريـرة لامتـناع قضاة المحكمة الدستورية الاتحادية عن حظر ارتـداء غطـاء الـرأس الذي ترتديه المعلمة في قاعة الدرس دون توفر قواعد قانونية حـرفية ، معتـبراً القـرار محبطاً ومفتقراً للشجاعة المطلوبة . وتوقع تيرزه أن لا يؤدي القـرار المذكـور إلى انفـتاح أفـضل للديانـة الإسلامية على الآخرين ، بل أن يكون مـشجعاً لمـا يـسميه "القـوى الـرجعية والمحافظـة في الوسـط الإسلامي" . أما حزب الخضر فاعتبر القرار متميزاً بالحكمة ، لأنه يقرر أن الحقوق الدينية تسري على جميع أتـباع الديانات بغض النظر عن التقاليد الدينية السارية ، وهو في تقدير الخضر قرار مناسب لأنه أوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن من المتعين البدء بحوار حول الموضوع داخـل صـفوف المجـتمع ، إذ ليس بالوسع رفض غطاء الرأس لمجرد أنه غريب على تقالـيدنا ، في الـوقت الـذي نـرى قـرباً حـضارياً يـربطنا بالأخوات المسيحيات مع ارتدائهن الملابس الرسمية الشبيهة ، بمعنى ازدواجية المعايير .

وكمـا هـو كمـتوقع دفـع هذا النقاش قضية دور الدين في الحياة العامة وأظهر الفرق بينها وبين فرنسا في طبيعة موقفها من الدين فهي خلافا لفرنسا ليست دولـة

علمانية وتقيم علاقات ملتبسة مع الكنائس المسيحية . وقد كتبت صحيفة "فرانكفورتر الجماينه تسايتونغ" المحافظة: **"يبدو أن الكثيرين لا يدركون أن الحياد الديني للدولة الذي ينص عليه القانون الأساسي الألماني لا يعادل مفهوم العلمانية في فرنسا.... والدستور الألماني مليء بالأفكار اليهودية المسيحية وكذلك الإغريقية الرومانية"** .

ويضمن القانون الأساسي (الدستور) الذي اعتمد في ١٩٤٩ **"معاملة كل الديانات على قدم المساواة"** ، ويؤكد في مقدمته أنه حرر **"إدراكا لمسؤولية الشعب الألماني أمام الله والبشر"** . ويعود ادخال القوانين المدنية في الدولة الألمانية إلى جمهورية فايمار التي يؤكد دستورها الذي اعتمد في ١٩١٩ أن "ليست هناك كنيسة للدولة" .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، أدرجت جمهورية ألمانيا الاتحادية هذه المادة في قانونها الأساسي ، متخلية بذلك عن فصل يبدو أوضح في فرنسا بموجب الاتفاق في شأن فصل الدين عن الدولة الموقع في ١٩٠٥ . وكانت السلطات الألمانية تأمل حينذاك في أن تساهم الكنيسة في رفع معنويات الشعب بعد الحقبة النازية . وفي الواقع ، تتسم العلاقة بين الدولة والكنائس المسيحية بالالتباس ، فمثلا "ضريبة الكنيسة" التي تجبيها الدولة من المسيحيين الذين يمارسون شعائر ديانتهم ويقدر عددهم بنحو ٥٥ مليون شخص ، موزعين بين كاثوليك وبروتستانت ، وأداء القسم باسم الله في وظائف رسمية أمر شائع ، وكان الاشتراكي الديموقراطي غيرهارد شرويدر ، المستشار الوحيد الذي لم يقسم بهذه الطريقة . ومع ذلك ، لا تقتصر الإشارة إلى القيم المسيحية على الحزب الديموقراطي المسيحي ، فقد أدرج الحزب الاشتراكي الديموقراطي في برنامج مؤتمره الأخير قداسا في الكنيسة .

وهذا الالتباس واضح أيضا في المدارس ، حيث يسمح للراهبات بالتدريس في ملابسهن الدينية ويسمح بوضع الصلبان في الصفوف ، بينما دروس الدين

الاختيارية يجب ان تكون مدرجة في البرنامج . وحسب فرانكفورتر ألجمايـنه تسايتونغ فإن "الالتباس بين الكنيسة والدولة يبرر عدم معاملة كل الديانات على قدم المساواة" ، موضحة من جهة أخرى أن "الحجاب قبل كل شيء مؤشر سياسي يشهد على خضوع المرأة وأنه لذلك يتناقض مع القانون الأساسي" . وهاتان الحجتان يؤمن بهما عدد كبير من الشخصيات من كل الاتجاهات السياسية التي تدافع بقوة - ودون أن تكون بالضرورة مؤيدة لمنع الحجاب - عن "الإرث المسيحي" . وقد ذكر شرويدر أن ألمانيا "ليست علمانية بل تطبق القوانين المدنية" ، وهي مشبعة بـ "مفاهيم اليهودية المسيحية" ، معبرا عن تأييده لمنع الموظفات من ارتداء الحجاب خصوصا المدرسات . وقال رئيس مجلس النواب الاشتراكي الديموقراطي وولفجانج تيرزه إن "الحياد حيال الديانة من واجب الدولة مبدئيا" لكنه رأى أن "الصليب ليس رمزا للقمع خلافا للحجاب للمسلمات" .

وعارض رئيس الدولة يوهانيس راو (وهو أيضا اشتراكي ديموقراطي) كل هذه الحجج وأثار غضب الكنيسة والمحافظين بتأكيده أن منع الحجاب يجب ان يرافقه منع الرموز الدينية الأخرى ، وبينما تقف الجالية المسلمة التي تضم ٢ ، ٣ مليون شخص غائبة تماما عن الجدل ، وقد كتبت مجلة "دير شبيغل" إن "الألمان يجب أن يطبقوا النموذج المعقول جدا المتبع في فرنسا وتركيا" .

من ألمانيا إلى فرنسا:

ورغم أن ألمانيا كانت أسبق في صدور حكم قضائي بشأن الحجاب فأن مشكلته كانت مثارة في فرنسا بدرجة أقل منذ العم ١٩٨٩ ، وفيه اعتبرت الكاتبة الفرنسية ميشيل تريبالات المؤيدة لمنع الحجاب في المدارس الرسمية سنة ١٩٨٩ بأنها "إسلامية" . وهذا عنوان فقرة من كتاب "الجمهورية والإسلام" لميشيل تريبالا

(مديرة أبحاث بالمعهد الوطني الفرنسي للدراسات الديمغرافية، وسبق لها أن كانت عضوا بالمجلس الأعلى للإدماج رفقة صديقتها جان هيلين كالتينباخ التي اشتركت معها في إنجاز الكتاب المذكور). وآخر سنة من عقد ثمانينيات القرن الماضي اعتبرت إسلامية لكثرة قضايا الحجاب في فرنسا وأوروبا وتركيا. وفي خريف تلك السنة تفجرت قضية الحجاب بفرنسا واحتلت كل شاشات التلفاز الفرنسي رغم انشغال أكثر من ٥٣% من الفرنسيين بانهيار حائط برلين وسقوط المعسكر الشيوعي وإسقاط الطاغية الشيوعي الروماني تشاوشسكو (٢٢ ديسمبر ١٩٨٩).

بدأ الانفجار في جريدة "لوكورييه بيكاريو" في الثالث من أكتوبر بعد أن أقدمت إدارة ثانوية "دوكريي" على طرد ثلاث تلميذات محجبات، لتتوالى الأحداث بعد ذلك ابتداء من أسر التلميذات وانتهاء بسيدة فرنسا الأولى يومذاك "دانييل ميتيران" زوجة الرئيس المتوفى فرانسوا ميتران، مرورا بجمعيات مناهضة للتمييز العنصري وجمعيات مسلمي فرنسا: مثل التبليغ واتحاد المنظمات الإسلامية والفيدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا. ومنذ ذلك التاريخ وقضية الحجاب تسخن وتبرد حسب درجة حرارة الأحداث. إلى أن جاءت قضية تمثيلية المسلمين وتنظيم أنفسهم لتعيين مخاطب للحكومة. وما إن قبل المسلمون هذه الفكرة وتوجوا نحو تشكيل "المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية" حتى احتد النقاش من جديد وصوب الإعلام، المكتوب أكثر من غيره، النظر والكتابة نحو "الحجاب".

وفي مقال ظهر يوم ٢٤ شتنبر في يومية "لوفيغارو" الفرنسية كتبت ميشيل تريبالا تشرح لماذا يحتد النقاش حول الحجاب الإسلامي بفرنسا أكثر من غيرها. وأوضحت أن الإجابة عن هذا السؤال مستحيلة من دون جولة تاريخية تعيد رصد المواجهة الحادة بين الكنيسة الكاثوليكية والدولة وكيفية حلها. وقالت الكاتبة عن

هـذا الأمـر: "أنجـزت العلمنة بطريقة عنيفة وقوانين ١٩٠١ و١٩٠٥ أبرزت معارضتها للكنيسة، فقانون ١٩٠١ يلزم الكنيسة بأن تحصل على موافقة من الدولة من أجل وجودها (...) ثم انتزع منها الإشراف على القوانين المدنية والمدرسة التي أصبحت ضدها فيما بعد"، وإذا كـان النـزاع قـد انتهى بين الطرفين وحل السلم فلأن الكنيسة أخذت بالضربة القاضـية، وخـضع الفرنسيون للعلمانية الغالبة وقوانينها وتخرجوا من المدرسة التي تكفلت بهذا الأمر وأفرغت من كل مظاهر التعبير الديني.

ورغـم أن مجلس الدولـة قد أصدر قرارا حول ارتداء الحجاب في المدرسة بعد طلـب مـن رئـيس الـوزراء الاشتراكي الأسبق ليونيل جوسبان، فإن الباحثة تعتبر سـلوك الوزير مناورة تجنب بها أن يكون في الصدارة، كما تعتبر قرار مجلس الدولة الـذي أقـر أن ارتـداء العلامـات الدينـية لا يـضر بالعلمانـية في شيء قرارا يحرف العلمانـية عـن موضـعها ومعناها. وتتحدث الكاتبة باسم الفرنسيين أجمعين معتبرة أنهـم شـعروا بالخـيانة عندما حرف معنى العلمانية ليسمح لمظاهر التعبير الديني أن تحتل المجال العام والمجال المدرسي، وذلك ما استفاد منه الدين الإسلامي وحده، في وقـت كانـت فـيه عملـية استـئصال الـتدين مـن المدرسة قـد تمـت علـى حساب الكاثوليكـية. وتستحـضر الكاتبة حيوية الإسلام وصحوته في مقابل حال الكنيسة المعلـوم وتـدرك أن الكفـة مائلـة لا محالة للأول، فتعبر عن ذلك قائلة بالحرف: "لا يفهم الفرنسيون لماذا طلبت منهم تضحيات كبيرة لما تعلق الأمر بالكنيسة، في حين لا يطلب الحد الأدنى من الإسلام عندما يأتي دوره. المبدأ الجميل للعلمانية الذي تربوا على احترامه لم يكن سوى وصفة لإسقاط الكنيسة ليس إلا".

وليست الخيانة مقصورة على مجلس الدولة في نظر الكاتبة، بل تتهم السياسيين أيـضا بخـيانة الفرنـسيين بتخلـيهم عـن مـسئولياتهم وتورد لهم مواقف وتصريحات

دافعوا فيها عن حرية التدين أو اتخذوا موقفا محايدا . وتعرب تريبالا عن تخوفها من تكرار ما حدث سنة ١٩٨٩ وتتمنى أن يتغلب السياسيون على مجلس الدولة وألا يكلوا لـه النظر في النازلة من جديد ، كما تخوفت من اللجنة الرئاسية المكلفة بمناقشة الموضوع من أن تخنق النقاش السياسي حسب تعبير الكاتبة . والحل في تقديرها هو توسيع النقاش حول الشخصية الوطنية الفرنسية وهضمها للعلمانية . وردت على الذين يقولون إن قانونا يمنع الحجاب سيكون تمييزا ضد المسلمين لأنه سيطبق على الفتيات المحجبات فقالت: **"العكس هو الصحيح. إذا كان المسلمون معنيين بقانون مثل هذا، فلأن كل الآخرين انتهوا إلى الاستسلام لقوانين اللعبة، وإذا ما تخلينا عن هذا ظلم عظيم للفرنسيين غير المسلمين الذين قبلوا الخضوع لهذه القاعدة العامة والتي لا يمكن أن يستثنى منها القادمون الجدد"** .

غير أن للقصة بدايات كانت منذ ١٩٨٥ في "نويون" حيث ظهرت الفتيات المحجبات اللائي يرفضن دروس السباحة والرياضة والرقص ، ثم تصاعدت في ١٩٨٨ باكتشاف الانتماء الديني لعدة تلاميذ يتغيبون جماعيا عن أقسامهم بسبب العيد ، وأخيرا انفجر المشكل عندما أجمع كل أعضاء مجلس إدارة ثانوية كريي على وضع حد لوضعية وصفت بغير المتسامح في شأنها ، وطبقوا يومها منشور ١٥ مايو ١٩٧٣ الذي يمنع كل إعلان عن الانتماء السياسي والديني ، وكذلك كل شكل من أشكال الدعوة في المؤسسات ، ولما قامت الجمعيات المسلمة تحتج وتدافع عن حرية التعبير والتدين ، اعتبرت مواقفها وتصريحاتها وحتى حضورها بمثابة "فتح إسلامي" للأرض الفرنسية ، وتكاثرت الكتابات الصحافية والأكاديمية في هذا السياق ، وتعتبر ميشيل تريبالا صاحبة كتاب **"الجمهورية والإسلام بين التخوف والعمى"** (بالتشارك مع جان هيلين كالتنباخ) نموذجا عن ذلك .

ففي فقرة من كتابها حول الموضوع (فصل الحجاب والجمهورية) سمتها "فاعلون مسلمون جدد: الفاتحون" اعتبرت فيها الجمعيات والهيئات المسلمة المتدخلة مثل اتحاد المنظمات الإسلامية، والتبليغ واتحاد الشباب المسلمين والفيدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا . . . منظمات تسعى لأسلمة فرنسا وإدخال أهلها في الدين القويم (ص ١٩٢- ١٩٤) . ولم تهدأ العاصفة إلا بعد أن رفعت القضية إلى المجلس الأعلى الفرنسي من لدن ليونيل جوسبان (الوزير الاشتراكي ورئيس الوزراء) لتتوقف الحملات والحملات المضادة .

وكانت ٢٠٠٣ سنة الاعتراف الرسمي بالإسلام في فرنسا، إذ تأسس فيها المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية وبالموازاة مع مداولات التأسيس شُنت حملة إعلامية جديدة حول الحجاب الإسلامي من جديد . في هذا السياق الساخن شكل الرئيس الفرنسي لجنة سطازي، وإلى جانبها تشكلت اللجنة البرلمانية برئاسة رئيس البرلمان دوبري . اللجنة الأولى تشكلت من ٢٠ من "الحكماء" وعملت لمدة ٦ أشهر عقدت فيه ١٢٠ جلسة اجتماع وقدمت تقريرها للرئيس مقترحة عليه مجموعة من المقترحات حول الحجاب وحماية العلمانية وإدماج المسلمين .

والتناقض الذي كشف عنه الجدال حول الحجاب كان أعمق من ظواهره، لأنه كشف عن المكون الإلحادي في الصيغة العلمانية الفرنسية وبدا من موقف الكنائس الفرنسية الرافض لحظر الحجاب أن الموقف الفرنسي هو من التدين قبل أن يكون من الإسلام كدين، فقد حثت كنائس مسيحية في فرنسا على عدم فرض حظر على الحجاب باعتبار أن إخفاق فرنسا في دمج مواطنيها المسلمين يعد مشكلة أكثر خطورة، كما انتقدت الرسالة تصاعد نغمة مناهضة التدين خلال الجدل المتعلق بالحجاب وهو ما عبرّ عنه مرة أخرى رئيس مجلس أساقفة فرنسا المونسنيور جان

بيار ريكار إذ من أن يؤدي الخوف "حيال أنواع معينة من التعابير الإسلامية أو الفئوية إلى ريبة حيال كل أشكال التعابير الدينية" .

وقالت الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية والارثوذكسية في رسالة موجهة لشيراك إن فرض قانون ضد ارتداء الحجاب لن يحل نزاعا محتدما حول ما إذا كان ارتداء رموز دينية ينتهك قوانين فرنسا الصارمة للفصل بين الكنيسة والدولة . والفشل في تحقيق اندماج أفضل لخمسة ملايين من مسلمي فرنسا في الدولة البالغ تعداد سكانها ٦٠ مليونا يمكن أن يدفع البعض للجوء للعنف .

وقالت الكنائس الفرنسية في الرسالة: "إيماننا الراسخ هو أن إصدار قوانين ليس السبيل لحل هذه المشاكل بإيجابية" منتقدة مسارعة السياسيين للجوء لخيار فرض حظر مما يمكن أن يعزز من مشاعر المسلمين بأنهم مرفوضون من المجتمع . . . . والقضية الحقيقية في النقاش الدائر هي بالفعل النجاح في الاندماج . . الجماعات التي تستجيب أكثر لمطالب إسلامية تعيش في (الجيتوات) التي سمحنا لها أن تنمو في أحياء حول مدننا الكبيرة . وهنا تظهر ربما للمرة الأولى إحدى الأدبيات الكلاسيكية لمعاداة اليهود لتستخدم لوصف مسلمي فرنسا .

وقد أظهرت نتائج استطلاع للرأي أجري قل سن القانون أن ٥٧ بالمئة ممن استطلعت آراؤهم يرغبون في حظر أشكال الرموز الدينية كافة في المدارس والمؤسسات العامة ولكن ٤١ بالمئة يعارضون فرض حظر . وتنقسم الجالية اليهودية في فرنسا حول مسألة فرض الحظر حيث يعارضه الحاخام الأكبر جوزيف سيتروك ولكن روجر كوكرمان الذي يرأس المجلس الذي يضم المنظمات اليهودية في فرنسا يسانده .

الحجاب ومبادئ العلمانية:

وفي مقارنـة تظهـر الفرق الجوهري بين العلمانيتين الفرنسية والألمانية قال وزير الداخلية نيكول ساركوزي في حوار لمجلة لونوفيل أوبزرفاتور (١٧ - ١٠ - ٢٠٠٣): "أريد أن أقول لمسلمي فرنسا وأنا الذي حرصت على ضمان كل حقوقهم أن يحترموا مبادئ العلمانية في فرنسا؛ فلا للحجاب في المدارس عندما يكون مظهر تفاخر، ولا للحجاب أمام شبابيك الإدارات العمومية" . وقال ساركوزي: "إن الفتيات اللاتي ولدن في فرنسا يرتدين الحجاب لسببين: أولهما أنهن لا يشعرن بالأمن في بعض الأحياء إذا لم يكُنّ متحجبات، وهنا يكمن تقصير الدولة. والأمر الثاني هو النظرة التي ينظر بها غير المسلمين إلى هؤلاء الفتيات، وهذا الأمر يتعلق بإثبات الهوية؛ فيلجأن إلى ارتداء الحجاب" . وقال مسئول فرنسي آخر: "إننا نحترم مدرسة الأمة التي ترفض علامات التمييز الديني والعرقي والطائفي. وعلى من لا يحب الجمهورية الفرنسية الانتقال للعيش في بلد آخر"!!!!

من ناحية أخرى قال النائب في حزب "الاتحاد من أجل الحركة الشعبية" آلان مادلين الذي عارض القانون وصوّت ضده ، وهو وزير ونائب أوروبي سابق إن جوهر معارضته للقانون مرده إلى كونه غير مجدٍ وينطوي على تهديد باستهداف المسلمين من جهة وبتعزيز الأطراف الأكثر تشدداً من جهة أخرى . ورأى أنه بدلاً من إصدار قانون يحظر الحجاب في المدارس كان من الحكمة التشاور مع ممثلي مسلمي فرنسا حول تدابير تتيح للتلامذة المسلمات التوفيق بين التزاماتهن الدينية ومتطلبات العيش المشترك في ظل العلمانية . وشكك مادلين في ما يقال عن أن القانون هدفه حماية القيم الجمهورية ، لأنها برأيه ليست عرضة للتهديد ، فهناك مجابهة قائمة والمهم ألا تتحول إلى حرب دينية بين العلمانيين المتشددين والمسلمين

المتشددين . ومن هذا المنطلق يعتبر أن وجود حوالي ١٥٠٠ تلميذة محجبة في المدارس الفرنسية ليست قضية تستوجب تعبئة الجمهورية وأنه بدلاً من إنشاء لجنة حول العلمانية كان ينبغي إنشاء لجنة حول الإسلام والجمهورية . فالقانون الذي أقر سيحل ربما مشكلة الحجاب في المدرسة ، لكن المسألة في الجوهر تتجاوز عملياً نطاق المدرسة ، إن فرنسا غير قادرة حتى الآن على تقبل التعددية التي باتت جزءاً لا يتجزأ من مجتمعها وإن لديها خطاباً مطولة عن الاندماج لكن الممارسة أدت إلى بروز "غيتوات" . وهنا ومع قاموس "الجيتو" نعود إلى الارتباط في الذهن الأوروبي بين المسلمين كفئتين تدينان بدين سماوي .

* * * * *

الباب الثاني:

في نقد ثقافة التسامح

الفصل الأول:

ماذا يعني التسامح؟

"الإمـبراطورية البيـزنطية" هـو الاسم الذي يُطلَق على القسم الشرقي من الإمبراطورية الـرومانية بعد انقسامها عام ٣٩٥ ثم سقوط الإمبراطورية الغربية عام ٤٧٥ . والقسطنطينية هـي العاصـمة القديـمة لبيـزنطة وهـي الـتي أصبحت فيما بعد إستنبول فيما . وكانت تُوجَد جماعـات يهـودية في الإمـبراطورية البيـزنطية عبر تاريخها ، من أهمها جماعة الرومانيوت (أو الجـريجوس) في المـدن الـتي كانـت تـتحدث اليونانـية . وكانت الإمبراطورية البيزنطية تضم أعداداً كبيرة من السامريين ثم القرّائين ، وكان لكل جماعة يهودية تنظيمها الإداري والقضائي المستقل وهو النظام الذي ورثته الدولة العثمانية واستمر العمل به .

وقـد شـجعت الإمـبراطورية سـكانها علـى تبنّـي المـسيحية باعتـبارها ديـن الدولـة وايديولوجـيا الحكـم فـيها . ولـذا ، اعتُبر التهود جريمة يعاقب عليها القانون ، ومُنع التجار الـيهود مـن خـتان عبـيدهم . وحُرِّم الزواج المختلط بين اليهود والمسيحيين ، كما مُنع الآباء الـيهود مـن حـرمان أولادهـم الـذين يتنـصرون مـن المـيراث . وقد كانت هذه الإجراءات الإمـبراطورية ضـد الـيهود البداية الحقيقية لتبلور فكرة "شارات الهوية" وصرامة الفصل بين "الأنـا" و"الآخـر" ، وفي هـذا المـناخ المـشبع بالعدوانـية ظهـر مفهـوم التـسامح ، فمـاذا يعني التسامح؟

في القـرن الـسابع عشر أراد لويس الرابع عشر توطيد العلاقات التجارية مع بلاد سيام لبيـشر هناك بالدين المسيحي – حسب رواية بول هازار – في كتابه "أزمة الضمير الأوروبي" وعـرض علـى ملـك سيام أن يتقبل الدين الجديد ، فأجاب بأنه: لو شاءت العناية الإلهية أن يسود العالم دين واحد فما كان أيسر تنفيذ ذلك الغرض . ولكن حيث إن الله يسمح بوجود أديـان مختلفة فينبغـي أن يـستنتج أنه يؤثر أن يسبح بحمده عدد لا يحصى من المخلوقات كلٌّ يمجـده طـبقا لأصـوله الخاصة ، فدهش الفرنسيون عندما سمعوا هذه الكلمات ، إذ أن أمير سـيام الـذي لا يعـرف شيئا عن علوم أوروبا ، قد شرح رغم ذلك ما تدين به الفلسفة . إن

السياميين يتقبلون في أرضهم كل أنواع الأديان، وملكهم يسمح للبعثات المسيحية أن تمارس التبشير في بلاده بكل حرية: فهل الأوروبيون في مثل تسامحه؟ هكذا تساءل بول هازار.

وأي حديث عن قيمة التسامح لا يكون لـه مردود حقيقي ما لم تتحول القيمة إلى ثقافة تحرك السلوك الإنساني. والتسامح في "لسان العرب" لابن منظور ثري المعاني ومعظم هذه المعاني مشتق من "سمح"، والسماح والمسامحة: أي الجود والعطاء عن كرم وسخاء وليس تسامحا عن تنازل أو منة. والمسامحة: المساهلة وتسامحوا: تساهلوا، وتقول العرب: "عليك بالحق فإن فيه لمسمحا أي متسعا". فالتسامح حق يتسع للمختلفين، أو قل إنه استواء في الاختلاف. غير أن معظم معاجم اللغة أوردت لفظ "التساهل" باعتبارها مرادفة للتسامح، يقوا الفيروزابادي في القاموس المحيط: "المساهلة كالمسامحة، تسامحوا: تساهلوا". وذكر عبد الرحيم بن عبد الكريم صفي بور في "**منتهى الأرب في لغة العرب**": تسامح: تساهل فيه.

ومن الناحية التاريخية ظهر مفهوم التسامح وتبلور في الغرب ولفظة تسامح "Tolerance" مشتقة من الكلمة اللاتينية Toler أي يعاني أو يقاسي، ومن اللفظة اللاتينيةToleranita تعني لغويا "التساهل"، والتسامح عند علماء اللاهوت: الصفح عن مخالفة المرء لتعاليم الدين. وقد ظهرت كلمة "Tolerence" أولا في كتابات الفلاسفة في القرن السابع عشر أو قل زمن الصراع بين البروتستانت والكنيسة الكاثوليكية حيث نادى: جان بودان، مونتيني، اسبينوزا، روجر وليمز، جون ميلتون، وفي النهاية جون لوك في كتابه: "**رسالة في التسامح**".

وحسب الدكتور عصام عبد الله فإن أولى مفارقات التسامح تبدو في كونه يولد من رحم التعصب ويتم استحضاره غالبا في فترات العنف والإرهاب، وكأنه لابد من تعميده بالدم أولا حتى تكتب لـه الحياة!

فقد أصدر الامبراطور قسطنطين في أوائل القرن الرابع الميلادي مراسيم التسامح والعفو عن المسيحيين بعد أن عانوا أشد أنواع الاضطهاد الديني. والجهود التي بذلت قبل ذلك التاريخ لإرساء مبدأ التسامح كان يقف وراءها رجال غير مسيحيين، من أمثال تمستيوس الذي وجه خطابا للامبراطور فالينس حضه فيه على إلغاء المراسيم الذي أصدرها لاضطهاد مخالفيه المسيحيين وشرح له نظرية في التسامح قال فيها: **"إن سلطان الحكومة لا يستطيع أن يؤثر في معتقدات الإنسان الدينية، والرضوخ للحكومة في هذا الأمر لا ينتج إلا اعترافات يحدوها الرياء والنفاق، وينبغي إفساح المجال لكل مذهب، ومن واجب الحكومة المدنية أن تحقق سعادة الأفراد جميعا سواء من كانت معتقداته صحيحة أو غير صحيحة"**.

ولكن هذه الإعلانات ما كانت لتصنع مناخا من التسامح بل إن هوس التعصب بلغ حد انتزاع الفيلسوفة هيباشيا من عربتها وتعريتها ثم ثيابها وجرها للكنيسة وذبحها بوحشية على يد بطرس القاري والمسيحيين المتهوسين وكشط لحمها عن عظامها بمحار حاد الأطراف وقذف أعضاء جسدها في النار وهي ترتعش بالحياة!

وأوروبا المسيحية لم تعرف التسامح الديني والسياسي إلا في القرن السابع عشر بعد أن دمرت الحروب الطائفية العديد من المدن والقرى. وقد كان بوسويه أكبر أصولي في القرن السابع عشر وهو الذي أضفى المشروعية على سياسة لويس الرابع عشر الهادفة إلى استئصال المذهب البروتستانتي فأصدر فتوى تجيز سحقهم وقتلهم وطردهم جماعيا من فرنسا.

وفي حقيقة الأمر فإن التسامح الديني يعني في النهاية أنه: **"ليس من حق أحد أن يقتحم باسم الدين الحقوق المدنية والأمور الدنيوية"**، وهو ما يترتب عليه أن **"فن الحكم ينبغي ألا يحمل في طياته أية معرفة عن الدين"**، وبالتالي فإن التسامح أحد أهم وسائل العلمنة. وفي حقيقة الأمر لم يكن معظم المنادين بالتسامح مستعدين دائما للسير بهذا المبدأ حتى نهايته أو في كل الاتجاهات وعلى كافة الصعد، فجون لوك أكبر مؤيدي مبدأ التسامح وضع مجموعة

من الضوابط ومن يتعداها لا يمكن التسامح معه بحال من الأحوال:

١ - الترويج لمعتقدات وأصول تهدد بنسف المجتمع نفسه .

٢ - الترويج للإلحاد .

٣ - الأفعال التي تهدف إلى تدمير الدولة أو التعدي على أموال الآخرين .

٤ - الولاء للحكام الخارجيين .

وواضح أن معظم الضوابط تخص الدولة لا الدين ، بل إن فواتير الذي كان من أقوى المنادين بحرة فكر لا تحدها حدود ولكنه فيما يخص الدولة جعل للتسامح "حدودا" ، وحسب راندل فإن عصر التنوير كان مستعدا للتسامح في أمر الاختلاف الديني لا السياسي .

وخلال العصور الوسطى كانت الكنيسة الكاثوليكية تفرض سيطرة عالمية لا تعترف بحدود قومية أما في عصر النهضة فقد ظهرت الملكية المطلقة كنظام سياسي جديد وأصبح الخيار المطروح أمام الأوروبي العادي الأخوة في الدين أو في الوطن ، وهنا نستطيع أن نقف على التحول الكبير الذي طرأ على مفهوم التسامح ، فقد ظل دعوة للتسامح الديني ولكن تحت سقف "المصلحة القومية" ، وبالتالي أخذ صعود النوزع القومي في أوروبا يحول الكاثوليك غير جديرين بالتسامح لأنهم يدينون بالولاء لسيد أجنبي هو "بابا روما" ، وهكذا تحول التسامح الديني إلى تعصب سياسي .

ولكن ما التسامح حقا؟

إن التسامح هو تقنين الاستبداد وإضفاء المشروعية عليه ، فحسب ميرابو فإنه ضرب من الاستبداد فالسلطة قد تتسامح وقد لا تتسامح أيضا فالتسامح نوع من التزييف وحسب آخرين فإن التسامح فعليا يكون مع ما لا نستطيع منعه وهو

بالتالي خلق الضعيف أو القوي فيمنع . وبعبارة أخرى فإنه في مساحة الفضل لا العدل والفضل ليس قاعدة للعلاقات المنضبطة بين الجماعات البشرية المختلفة ، وعلى العكس يبدو التسامح خلق القوي أحيانا ، وقد أثيرت شكوك وتحفظات كثيرة حول مفهوم التسامح في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وتردد صداها في الكتابات الفلسفية ، وحسب الموسوعة الفلسفية للالاند فإن الكلمة: **"تتضمن فكرة اللياقة وأحيانا الشفقة وأحيانا اللامبالاة"** وهي تتمن بحسب نقادها الازدراء والتعالي بل الطغيان وهكذا أصبح للكلمة معنى دونيا ومهينا للكرامة الإنسانية ويطال إميل بوترو عوضا عنها أن نتحدث عن الاحترام .



الفصل الثاني:

التسامح مع اليهود كنموذج للقمع باسم التسامح

يعد التسامح مع اليهود نموذجا صارخا لحقيقة مفهوم التسامح كعملية قمع مقننة فالتسامح من المعايير التي عادةً ما تُستخدَم في دراسة تواريخ الجماعات اليهودية إذ يحدد المؤرخ موقفه من شخصية أو مرحلة تاريخية على أساس مدى التسامح الذي تمتّع به أعضاء الجماعات اليهودية على يد هذه الشخصية أو تلك أو إبّان هذه المرحلة أو تلك . ويذهب الدكتور عبد الوهاب المسيري إلى أن المقدرة التفسيرية لمقولة التسامح ضعيفة للغاية ، فالتسامح قيمة أخلاقية مطلقة يتعين على الإنسان أن يتمسك بها ويدافع عنها ، وهي حالة عقلية وسمة إنسانية يتسم بها بعض البشر دون غيرهم .

فمقولة التسامح مقولة أخلاقية مطلقة بينما الظواهر التاريخية مركبة . والتسامح أمر متعلق بإرادة الإنسان ويتم بحرية الأفراد ورغبتهم ، أما الظواهر التاريخية فكثير من أبعادها يقع خارج نطاق الرغبة والإرادة والاختيار . ولذا ، فإن محاولة تفسير ظاهرة ما تفسيراً مركباً يتطلب منذ البداية رؤية تركيبيتها التاريخية قبل الحكم الأخلاقي عليها .

ولبيان تركيبية الظواهر وعجز مقولة التسامح بمفردها عن تفسيرها سنضرب مثلاً بـ "تسامح ملوك بولندا ونبلائها تجاه اليهود ، فقد قاموا بتوطينهم في بولندا وشجعوهم على الاستيطان فيها . ولكن "التسامح" هنا نابع من رؤية أعضاء النخبة الحاكمة في بولندا لليهود كجماعة يمكن الاستفادة منها . فالهدف عملي إلى حد كبير ، كما أن التسامح هنا يؤدي إلى اضطهاد الآخرين ، فالطبقة الحاكمة أبدت تسامحاً واضحاً مع أعضاء الجماعة اليهودية حتى يتسنى لها استخدامهم كأداة لقمع الفلاحين والأقنان في بولندا وليتوانيا وأوكرانيا .

وفي واقع الأمر ، فإننا نجد أن التسامح الغربي مع اليهود هو في العادة تعبير عن هذا الموقف وهذا الإدراك لنفع اليهود وإمكانية الاستفادة منهم كأداة في استغلال الآخرين ، أي أنه لا يعبِّر عن تسامح أخلاقي حقيقي فيه تَقبُّل للآخر . وأحياناً تكون الرغبة في التسامح حقيقيةً ولكن القوى التاريخية البنيوية (التي تتجاوز النوايا) تكون أقوى منها ، فحينما استولى

كاسترو على الحكم في كوبا كان معروفاً بتعاطفه مع أعضاء الجماعة اليهودية ، كما كان يرغب صادقاً في أن يستفيد من خبراتهم . وللتعبير عن نواياها الحسنة تجاه أعضاء الجماعة اليهودية بذلت الحكومة الكوبية قصارى جهدها لتوفير اللحم المذبوح شرعياً لهم ، غير أن التحولات الاقتصادية الجوهرية ، وتأميم كثير من القطاعات الاقتصادية التي كان اليهود مركَّزين فيها ، دفع أعضاء الجماعة لأن ينزحوا عن كوبا ، ولم يُجد التسامح فتيلاً .

وحينما انتُخب النظام الاشتراكي في شيلي بزعامة ألليندي ، نزح كثير من أعضاء الجماعة اليهودية عنها ، رغم أن النظام منح الأقليات حريات واسعة ، ولكن أعداداً كبيرة منهم عادت مع حكم بينوشيه رغم أنه حكم شمولي . ولكل ذلك ، فإن مقولة التسامح لا يمكن أن تفسر شيئاً . وقد يكون التسامح شكلاً من أشكال عدم الاكتراث بالهوية ، ففي المجتمعات التعاقدية الحديثة لا يدخل الأعضاء في علاقة كاملة جوَّانية وإنما يدخلون في علاقة جزئية برانية وحسب ، فالإنسان يتعامل مع الآخر لا باعتباره إنساناً وإنما باعتباره مهندساً أو بائعاً أو سمساراً ، وبالتالي فالهوية الإنسانية لشخص ، أو سماته المختلفة ، تصبح غير ذات موضوع .

وقد كان هذا وضع اليهود في الحضارة الغربية إذ كان يتم التسامح معهم كتجار ، وكان وضعهم يستند إلى مواثيق خاصة تمنحهم الحماية والمزايا ، وكانوا يوضعون في جيتوات خاصة تخلق المسافة اللازمة للأمن الاجتماعي وتحقق لهم العزلة بحيث يمكنهم التعبير عن هويتهم دون أن يشكل ذلك تحدياً للمجتمع ، بل دون أن يشعر المجتمع بوجودهم .

وما حدث في المجتمع الحديث هو أنه أصبح مجتمعاً ذرياً يحتفظ فيه كل فرد بمسافة بينه وبين الآخر ، بحيث تصبح سماته الإنسانية وهويته المتعينة أمراً شخصياً محضاً لا يعني أحداً ، ويدخل في علاقة تعاقدية مع بقية أعضاء المجتمع (وهذا ما كان يعنيه ماركس بتهويد المجتمع) وهي علاقة خاضعة لقواعد عامة ، ومن ثم تتوارى الهويات الخاصة ويتم التحرك في رقعة

الحياة العامة ، وهي الرقعة التي يفقد فيها الجميع خصوصياتهم والإنسان ، داخل هذا الإطار ، غير مطلوب منه تَقبُّل أية خصوصيات دينية أو إثنية ، فاليهودي لا يقابل المسيحي ويقبله ، كما أن المسيحي لا يقابل اليهودي ويقبله (باعتباره الآخر) وإنما يجب أن يتخلى اليهودي عن يهوديته والمسيحي عن مسيحيته على أن يلتقي الجميع عند مستوى علماني مجرد من رقعة الحياة العامة باعتبارهم مواطنين .

ويتم تَقبُّل اليهودي بمقدار تخليه عن يهوديته أو بمقدار إظهاره الاستعداد للتخلي عن هويته ، فالتسامح هنا ليس تسامحاً مع الآخر وإنما هو تَربُّص به ، وهي ليست عملية مساواة وإنما عملية "تسوية" . وما يقابله الإنسان العلماني في رقعة الحياة العامة هو الإنسان الاقتصادي والإنسان الجسماني ، وهي أنماط عامة يمكن التعامل معها بكفاءة ويمكن التسامح معها بسهولة إذ أن التسامح هنا لا يعني ضبط النفس أو كبح الذات . وهذا ما عناه دعاة التنوير حينما قالوا إن على اليهودي أن يصبح إنساناً في الشارع يهودياً في منزله ، فهي تعني أن على اليهودي أن يصبح إنساناً طبيعياً في رقعة الحياة العامة ، أي في معظم حياته . وحينما قرر دعاة التنوير إعطاء اليهود كل شيء كمواطنين ولا شيء كتجمُّع ديني مستقل نسبياً ، فهم كانوا يطالبون اليهودي بأن يصبح إنساناً طبيعياً ، ومادة بشرية نافعة .

ولكن إخفاء الهوية وعزلها ، والاحتفاظ بها في المنزل ، يؤديان إلى ضمورها واختفائها في نهاية الأمر . وهنا نجد أن التسامح ليس شكلاً من أشكال عدم الاكتراث ، وإنما هو أيضاً محاولة للقضاء على الهويات المختلفة وعلى الآخر حتى يصبح الجميع مواطنين منتجين ومستهلكين (فقط) يتم تنميطهم حسب المواصفات التي تضعها الدولة . ويُلاحَظ أنه ، بعد انتشار التسامح في المجتمع الغربي ، وبعد أن تمت مساواة أعضاء الجماعات اليهودية بغيرهم من الجماعات والأفراد ، وبعد أن

أصبح وجودهم يستند لا إلى المواثيق الخاصة وإنما إلى الحقوق الثابتة (أي بعدما أصبح اليهود مواطنين)، فإنهم آخذون في الاختفاء إذ يترك اليهودي عزلته ويندمج هو وغيره من أعضاء الأقليات مع بقية المواطنين لينصهر الجميع في بوتقة الوطن ويصبحوا نمطاً واحداً. ولذا، يُلاحَظ أنه، مع تزايد التسامح، تتزايد معدلات ما يسمى "موت الشعب اليهودي" وتَناقُص أعداده. ولذا، فإن بعض الصهاينة يرون أن الاضطهاد هو وحده الكفيل بتحقيق وحدة الشعب اليهودي.

وقد عرف التاريخ الأوروبي عمليات مقننة للتسامح تسمى "براءة التسامح" وهو فرمان أصدره جوزيف الثاني في عام ١٧٨٢ وطُبِّق في بادئ الأمر على فيينا والنمسا ثم طُبِّق على سائر مقاطعات الإمبراطورية النمساوية المجرية. وهي واحدة من سلسلة البراءات التي مُنحت للأقليات غير الكاثوليكية، ومن بينها اليهود، تتضمن حقوقهم القائمة وتضيف لها حقوقاً جديدة وتحدد واجباتهم.

كان التيار الفكري الأساسي في هذه الفترة هو فكر حركة الاستنارة، وهو فكر يدعو إلى تحرير الإنسان من الغيبيات بهدف ترشيده. وهي عملية ترشيد أدَّت، فيما أدَّت، إلى تطويع الإنسان لخدمة الدولة المركزية المطلقة. وقد أدَّى ذلك إلى الهجوم على كل أشكال الغيب والخصوصية وكل الجيوب الإثنية. ولا شك في أن هذا الفكر، وكذلك التحولات الاجتماعية التي أدَّت إليه ونجمت عنه في الوقت نفسه، قد تركا أعمق الأثر في أعضاء الجماعات اليهودية في العالم بأسره، فقد استفادوا من هذه التحولات أيما استفادة مع أنهم اصطدموا بها في نهاية الأمر. والواقع أن هذه العملية التاريخية هي التي قضت على الجيتو وأعتقت اليهود، ولكنها قضت أيضاً على دورهم كجماعة وظيفية وسيطة، وزادت من معدلات الاندماج والعلمنة بينهم.

ومع التنوير والعلمنة جاءت الدولة المركزية أو كما يسميها المسيري "الدولة المطلقة" التي تدخلت في أخص خصوصيات الفرد اليهودي: متى يتزوَّج؟ ومن يتزوَّج؟ وأين يقيم؟ وماذا يرتدي؟ وكيف يحلق شعر رأسه؟ ومما يجدر ذكره أن الدولة المطلقة لم تكن تتدخل في شئون اليهود وحسب، بل كانت تتدخل في شئون كل الرعايا . ففي عام ١٦٦٦ ، أصدرت الدولة الفرنسية قراراً يقضي بأن يُعفَى من الضرائب كل من يتزوج وهو دون العشرين ، وذلك حتى يبلغ سن الخامسة والعشرين . كما كان يُعفَى من الضرائب ربُّ كل أسرة يبلغ عدد أفرادها عشرة ، بشرط ألا يكون أحدهم منخرطاً في سلك الرهبان! وصدر قرار عام ١٦٦٩ بفرض غرامة على الآباء الذين لا يزوجون أولادهم قبل سن العشرين ، أو بناتهم قبل سن السادسة عشرة!

كما تدخلت الدولة المطلقة في الأمور الدينية ، فألغت المحاكم الحاخامية ، وحرَّمت دراسة التلمود قبل سن السابعة عشرة ، وهي إجراءات كانت تهدف إلى تحديث أعضاء الجماعة اليهودية وعلمنتهم حتى يصبحوا جزءاً عضوياً نافعاً يساهم في الإنتاج القومي للدولة . وهي كذلك عملية لم تنطبق - كما أسلفنا - على أعضاء الجماعة وحدهم وإنما على أعضاء المجتمع كافة . كما أن السلطات التي كانت تمارسها الدولة لم تختلف في أساسياتها عن السلطات التي كانت تمارسها الإدارة الذاتية اليهودية . بل ربما كانت السلطات الحكومية أكثر ليبراليةً وعقلانية ، ولكنها مع هذا كانت أكثر قسوة بسبب ضخامة حجمها وبُعدها عن الفرد . ويظهر ذلك بشكل أكثر حدَّة في حالة أعضاء الجماعة اليهودية بسبب خصوصيتهم اليهودية ، وبسبب أن عمليتي العلمنة والتحديث استخدمتا في البداية ديباجات مسيحية أخفت الجوهر العلماني التحديثي عن المسيحيين من مواطني الدولة المطلقة ومن ثم زادتها إيلاماً بالنسبة إلى اليهود .

فبالنسبة إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية مثلا وكانت تضم النمسا والمجر وبوهيميا ومورافيا، ثم جاليشيا التي كانت تضم كتلة يهودية كبيرة نوعاً ما، حاول الإمبراطور جوزيف الثاني أن يدمج اليهود في الإمبراطورية فأصدر عدة تشريعات في الفترة من ١٧٨١ إلى ١٧٨٩ كما أصدر عام ١٧٨٢ براءة التسامح التي كانت تهدف إلى تحديث المجتمع ككل وإلى إلغاء انعزالية اليهود المتمثلة في مؤسسات الإدارة الذاتية. وحددت التشريعات حقوق النبلاء، كما استهدفت تحسين أحوال الفلاحين والحد من سلطان رجال الدين الكاثوليكي. وقد أُلغيت الشارة اليهودية التي كان على اليهود ارتداؤها خارج الجيتو. كما أُلغي كثير من القوانين التي كانت تحد من حركتهم، فأصبح من حقهم ممارسة أية حرفة وأن يعملوا بالتجارة والصناعة أو في أية وظيفة مدنية أو عسكرية، وأصبح من حقهم أن يشيِّدوا منازل خاصة بهم في أي مكان. ومُنحوا حق التمتع بشرف الخدمة العسكرية عام ١٧٨٧، كما حُظر عليهم استخدام اليديشية، وبخاصة التجار الذين كان عليهم أن يكتبوا حساباتهم بالألمانية. كما أصبح من المحظور على أعضاء الجماعات اليهودية ارتداء أزياء خاصة بهم، بل فرضت عليهم الأزياء الأوربية، ومُنع الآباء من تدريس التلمود لأبنائهم قبل اكتمال دراستهم، وفُرض عليهم اختيار أسماء جديدة ألمانية. وقد حاولت حكومات الإمارات والدويلات الألمانية تطبيق سياسة ترمي إلى دمج اليهود، فأصدر فريدريك الأكبر ميثاقاً يضمن لهم حرية العبادة ولكنه يحدد في الوقت نفسه مكان سكناهم ونسبة المصرح لهم بالزواج.

وقد تطورت معاداة اليهود إلى بناء فكري متماسك في القرن التاسع عشر فوُلدت الأفكار الحديثة لمعاداة اليهود، وكذلك صورها الإدراكية ومن أهم وأول الإسهامات الغربية في هذا المضمار استخدام التمييز بين الآريين والساميين ونقله من المجال اللغوي إلى المجال الحضاري ثم العرْقي. وهذا ما فعله الكونت جوبينو في

كتابه مقال في التفاوت بين الأعراق الإنسانية (١٨٥٣ - ١٨٥٥)، فبسّط النظريات السائدة، وقسّم البشر إلى أعراق: أبيض (آري)، وأصفر، وأسود. وذهب إلى أن الجنس الآري الأبيض هو مؤسس الحضارة، وأن السمات المتفوقة لهذا العرْق لا يمكن الحفاظ عليها إلا عن طريق النقاء العنصري. وأكد جوبينو أن التيوتونيين هم أرقى العناصر الآرية لأنهم وحدهم الذين احتفظوا بنقائهم.

وتوالت بعد ذلك الأعمال العرْقية الغربية المعادية لليهود، ومن أهمها كتاب ولهلم مار (١٨١٨-١٩٠٤) انتصار اليهودية على الألمانية: من منظور غير ديني (١٨٦٢). وكان مار مواطناً ألمانياً (يُقال إنه كان يهودياً)، ثم انضم إلى جماعة فوضوية إلحادية في سويسرا بعد فشل ثورة ١٨٤٨. وقد طُبعت من الكتاب اثنتا عشرة طبعة حتى عام ١٨٧٩. وتحل في كتابه كلمتا "سامي" و"سامية"، محل "يهودي" و"يهودية". وقد بيَّن في دراسته ما زعم أنه الهيمنة اليهودية على الاقتصاد والثقافة، كما أسس جماعة تضم أعداء اليهود عام ١٨٧٩.

ومن أهم الشخصيات التي أضفت كثيراً من الاحترام على النظريات العرْقية المعادية لليهود الموسيقار الألماني ريتشارد فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣)، وكان صديقاً لجوبينو وقد تركت أفكار فاجنر أثراً عميقاً في هتلر، ومن ثم كانت ذات مكانة خاصة في التجربة النازية (ولهذا، كانت موسيقى فاجنر ممنوعة حتى عهد قريب في إسرائيل).

وكان لإسهام المفكر السياسي والمستشرق الألماني بول أنطون دي لاجارد (١٨٢٧ - ١٨٩١) أبعد الأثر في تضخيم الحالة الثقافية والعلمية حول معاداة اليهود. كان لاجارد يحن إلى حضارة العصور الوسطى التيوتونية الخالصة (العضوية)، كما كان يؤمن بالشعب العضوي (الفولك) الألماني وتفوُّقه على الشعوب الأخرى، ويرفض مبدأ المساواة. بل وكان يرى أن الليبرالية مؤامرة عالمية خطيرة. ولم يشأ التعبير عنها بأي من اللونين الأحمر أو الأسود، فهما لونان لهما

شخصيتهما، بل وقع اختياره على الرمادي، وانتهى به المطاف إلى اكتشاف وجود الأمية الرمادية التي استنكرها لأنها تشكل حجر عثرة في سبيل تحقيق خلاص الأمة الجرمانية وأداء رسالتها "نحو العلم"، على حد قوله، كما تقطع الطريق على الأماني والأطماع الجرمانية الرامية إلى إخضاع أوربا الوسطى للسيطرة الألمانية، والتخلص من إمبراطورية هابسبورج، وإجلاء السلاف عن البلاد بالقوة لأنهم ليسوا من سكانها الأصليين.

وبطبيعة الحال، ربط لاجارد بين الليبرالية الأمية الرمادية واليهود، الذين وصفهم بأنهم يشكلون عبئاً كريهاً ولا مغزى تاريخي لهم، يهدِّدون رسالة ألمانيا ووحدتها القومية. ولم تكن أفكار لاجارد عنصرية سوقية وإنما كانت عنصرية أكاديمية تستخدم ديباجات علمية، فقد كان يؤكد أنه لا يكن أي عداء لليهود كأفراد وإنما يعادي أمة سامية وثنية غريبة يُعرْقل وجودها (الموضوعي) اتحاد أوربا الوسطى تحت قيادة ألمانيا، ولذا فلابد من طرد أعضائها أو ترحيلهم بالقوة.

ومن الشخصيات التي ساهمت في إشاعة هذه الأفكار المعادية لليهود على أساس عرْقي، المؤرخ والسياسي الألماني هنريش فون ترايتشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) الذي كان يُعَدُّ من أهم المفكرين الألمان في عصره، وهو ما أكسب هذه الأفكار قدراً كبيراً من المصداقية والاحترام. وصف ترايتشكه الهجوم على اليهود بأنه هجوم وحشي، ولكنه رد فعل طبيعي للمشاعر القومية الألمانية ضد عنصر غريب (الشعب العضوي في مواجهة الشعب العضوي المنبوذ)، ثم طرح الشعار المشهور "اليهود مصيبتنا". ومن الشخصيات الأخرى التي أشاعت الفكر العرْقي المعادي لليهود هيوستون ستيوارت تشامبرلين (١٨٥٥ - ١٩٢٧)، وهو بريطاني المولد فرنسي النشأة ألماني بالاختيار، فقد كان معجباً بالثقافة الألمانية إعجاباً عميقاً. وقد

تصادق مع فاجنر وتزوج ابنته، وتأثر بأفكار جوبينو ولاجارد، وألَّف أهم كتب العنصرية الغربية أسس القرن التاسع عشر (١٨٩٩). وقد آمن تشامبرلين بتفوُّق الإنسان النوردي الأشقر، وبأن قدر التيوتونيين هو قيادة الإنسانية جمعاء، فكل ما هو عظيم في العالم من إبداعهم. وأكد تشامبرلين أن اختلاط الأجناس هو سبب التخلف.

ومن الملاحَظ أن معظم كتب معاداة اليهود (وأكثرها حدة) ألمانية. ولعل هذا يعود إلى مجاورة ألمانيا للجيب البولندي، وإلى وجود عنصر يهودي قوي في عالم الاقتصاد الألماني، وإلى دخول ألمانيا إلى الساحة الإمبريالية متأخرة من الناحية الزمنية، الأمر الذي أثر في مساحة الرقعة الجغرافية التي استعمرتها. ومن هنا، اضطرت ألمانيا إلى أن تنفث سمها العنصري في أوربا (ضد اليهود والسلاف) لا خارجها (ضد الأفارقة والآسيويين والمسلمين). ومع هذا، فليس بإمكاننا إنكار أن معاداة اليهود ظاهرة غربية تشمل شتى دول العالم الغربي، شأنها في هذا شأن الصهيونية. ولهذا، لم تقتصر كُتب معاداة اليهود على ألمانيا. وقد أشرنا من قبل إلى جوبينو الفرنسي، ويمكن أن نشير الآن إلى إدوار أدولف درومون (١٨٤٤ - ١٩١٧)، وهو أيضاً فرنسي، وقد ضمن أفكاره كتاب فرنسا اليهودية (١٨٨٦) الذي طُبع أكثر من مائة طبعة، وكان من أكثر الكتب الأوربية رواجاً ومبيعاً في القرن التاسع عشر. وقد ألف درومون كتباً أخرى تتضمن الأفكار نفسها والرؤية نفسها. وكان درومون يرى أن يهود فرنسا عنصر أجنبي غريب يستغل النظام الاقتصادي الفرنسي لتحقيق منافعه الخاصة وبسط سيطرته على العالم، وأنهم عنصر تجاري بطبيعته، يسيطر على المشاريع التجارية والصناعية الكبرى التي تعوق نمو الطبقة الوسطى المسيحية الناشئة، فهم يركزون الثروة في أيديهم (مثل روتشيلد) ويشكلون خطراً على مستقبل الطبقة العاملة في البلاد. وهم

يتسمون بخصائص وميزات عرْقية منحطة وغير نقية ، ويعملون على إفساد الروح الفرنسية ، وتقع عليهم تبعة الانهيار والانحطاط السائدين في فرنسا بطولها وعرضها .

واليهود يؤلفون "دولة داخل دولة" و"أمة داخل أمة" ولذلك فإن اندماجهم ليس ممكناً ، كما أن اختلاطهم بالشعب الفرنسي عن طريق التزاوج أمر غير مرغوب فيه . وهم بلا وطن حقيقي ، ولا يخضعون لأية روابط فعلية ، بل سيبقون إلى الأبد كما كانوا دوماً عنصراً غريباً في جسم الأمة يختلف بصورة جوهرية عن الفرنسيين ، ويجب معاملتهم على الأسس التي يقترحها هو والنظر إليهم من تلك الزاوية . فهم لا يستحقون التحرر مطلقاً ، بل يجب وقف تحرُّرهم ومصادرة ممتلكاتهم وأموالهم على أن يُستخدَم ذلك لإيجاد وسائل إنتاجية للطبقة العاملة التي لا تزال مُستَغَلة . وقد ساهم كتاب درومون في صياغة رؤية كثير من المفكرين اليهود وغير اليهود للمسألة اليهودية ومنهم هرتزل .

* * * * *

الفصل الثالث:

من الكراهية إلى الإبادة

يُستخدَم مصطلح "الإبادة" في العصر الحديث ليدل على محاولة القضاء على أقلية أو طائفة أو شعب قضاء كاملاً . ويُطلَق مصطلح "إبادة اليهود" في الخطاب السياسي الغربي على محاولة النازيين التخلص أساساً من أعضاء الجماعات اليهودية في ألمانيا وفي البلاد الأوربية (التي وقعت في دائرة نفوذ الألمان) عن طريق تصفيتهم جسدياً (من خلال أفران الغاز) . وتُستخدَم أيضاً كلمة genocide وهي من مقطعين "جينو" من الكلمة اللاتينية جيناس genus بمعنى نوع وكايديس caedes بمعنى "مذبحة .

وكلمة "إبادة" كما نستخدمها لا تعني بالضرورة التصفية الجسدية ، وإنما تعني "استئصال شأفة اليهود" بجميع الطرق وضمنها التهجير القسري (الترانسفير) وغيره من الطرق . ولذلك فنحن نشير أحياناً "للإبادة بالمعنى الخاص والمحدد للكلمة" أي "التصفية الجسدية المتعمَّدة" ، كما نشير "للإبادة بالمعنى العام للكلمة" وهي عملية "إبادة اليهود من خلال التهجير والتجويع وأعمال السخرة ، وأخيراً التصفية الجسدية المتعمَّدة" . ويمكننا هنا أن نقتبس كلمات أحد أهم خبراء الإبادة في التاريخ ، أي الزعيم النازي أدولف هتلر . فقد عبَّر عن إعجابه بإبادة الهنود الحمر (على يد المستوطنين البيض) عن "طريق التجويع أو القتال غير المتكافئ" .

وتُستخدَم أيضاً عبارة "الحل النهائي" للإشارة إلى "المخطط الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود ، أي تصفيتهم جسدياً" . ويُشار إلى الإبادة في معظم الأحيان بكلمة "هولوكوست" وهي كلمة يونانية تعني "حرق القربان بالكامل" وتُترجم إلى العربية أحياناً بكلمة "المحرقة" . وكانت كلمة "هولوكوست" في الأصل مصطلحاً دينياً يهودياً يشير إلى القربان الذي يُضحَّى به للرب ، فلا يُشوى فقط بل يُحرق حرقاً كاملاً غير منقوص على المذبح ، ولا يُترك أي جزء منه لمن قدَّم القربان أو للكهنة الذين كانوا يتعيشون على القرابين المقدمة للرب . ولذلك ، كان

الهولوكوست يُعَدُّ من أكثر الطقوس قداسة، وكان يُقدَّم تكفيراً عن جريمة الكبرياء. ومن ناحية أخرى، كان الهولوكوست هو القربان الوحيد الذي يمكن للأغيار أن يُقدِّموه.

ويرى المسيري أن ما يميز الإبادة النازية عن غيرها أنها تمت بشكل واع ومخطط ومنظَّم وشامل ومنهجي ومحايد، عن طريق استخدام أحدث الوسائل التكنولوجية وأساليب الإدارة الحديثة (أي أنها تجربة حديثة تماماً، منفصلة عن القيمة). وهذه السمات مرتبطة بتزايد معدلات الترشيد والعلمنة الشاملة وتحييد الواقع كله (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية ليست لها قداسة خاصة، وذلك حتى يمكن التحكم (الإمبريالي) فيه وإخضاعه للتجريب بلا تمييز بين الإنسان والحيوان أو بين الألماني واليهودي، وهو ما نسميه في مصطلحنا «الحوسلة»، أي تحويل كل شيء، وضمن ذلك الإنسان، إلى وسيلة. ومن ثم فهناك فارق ضخم بين الإبادة (الحديثة) وبين المذابح في المجتمعات التقليدية، إذ كانت المذابح تتم عادةً بشكل تلقائي غير منظم وغير منهجي وغير مخطط.

ويمكن في هذا المضمار أن نذكر "ليلة الزجاج المحطم" حينما قامت الجماهير الألمانية في العديد من مدن ألمانيا بالهجوم على أعضاء الجماعة اليهودية. ويُقال إن الغضب الشعبي لم يكن تلقائياً وإنما تم بتخطيط من القيادات النازية التي كانت مجتمعة في ميونخ. كما أن إلقاء القبض على أعداد من اليهود بعد الحادث يدل على أن الأمر لم يكن تلقائياً تماماً. ويصف بعض الدارسين ليلة الزجاج المحطم بأنها هجوم شعبي شبه منظَّم على اليهود، ولكن نظراً لضآلة عدد الضحايا، لم يكن بوسع الدولة النازية أن تتخلص من ملايين اليهود باستخدام هذه الآلية البدائية التقليدية التي تعتمد على إثارة غضب الجماهير. ولذا، كان لابد من اللجوء إلى آليات أخرى أكثر حداثة، ووجد النازيون ضالتهم في مؤسسات الدولة الحديثة مثل التكنولوجيا المتقدمة التي تمتلكها، وأجهزة الإعلام التابعة لها، وأساليب الإدارة الحديثة الرشيدة. ويذهب هؤلاء الباحثون إلى أن الدولة النازية ما كان بوسعها أن تحقق غرضها

بهذه السرعة وبهذه الكفاءة بدون هذه الآليات المتقدمة!

والظاهرة النازية غير مسبوقة من حيث هي ظاهرة أوربية داخل سياق التاريخ الألماني والأوربي، ومن حيث هي ظاهرة لم تحدث في سياق التاريخ العالمي. كما أنها تُضمر الإشارة للإبادة النازية للأقليات والشعوب الأخرى.

ورغم ارتباط عبارة "الإبادة النازية" بكلمة "اليهود" فإنه ليس صحيحا أن النازيين لم يبيدوا سوى اليهود. وقد ساعد الإعلام الغربي والصهيوني على ترسيخ هذه الفكرة حتى أصبح دور الضحية حكراً على اليهود. بل تطور الأمر إلى حد أنه إذا ما أراد باحث أن يبيِّن أن الإبادة النازية لم تكن مقصورة على اليهود، وإنما هي ظاهرة شاملة ممتدة تشمل الغجر والسلاف والبولنديين وغيرهم، فإنه يصبح هدفاً لهجوم شرس. وإحدى لحظات التحقق المتبلورة هي الإبادة النازية للغجر، التي ورد الوصف التالي لها في إحدى منشورات اليونسكو: "**كانت إبادة الغجر مُدرجة في برنامج ألمانيا النازية. وكان لدى شرطة إقليم بافاريا الألماني منذ عام ١٨٩٩ قسمٌ خاص "بشئون الغجر" يتلقى نسخاً من قرارات المحاكم المكلَّفة بالبت في المخالفات التي يرتكبها الغجر. وتحوَّل هذا القسم عام ١٩٢٩ إلى "مركز وطني" مقره ميونيخ، وحُظر على الغجر منذ ذلك التاريخ التنقل بدون تصريح الشرطة. وكان الغجر الذين يزيد أعمارهم على السادسة عشرة ولا يعملون يُجبرون على العمل لمدة سنتين في مركز من مراكز التأهيل. وابتداءً من عام ١٩٣٣، وهو تاريخ وصول هتلر إلى الحكم، زادت تلك القيود شدة وصرامة. وطُرد الغجر الذين لا يحملون الجنسية الألمانية، وزُجّ بالباقين في المعتقلات بحجة أنهم «غير اجتماعيين»**".

ثم بدأ الاهتمام بالبحث في الخصائص العِرقية للغجر، فأعلن الدكتور هانز جلوبكه - أحد المساهمين في صياغة قوانين نورمبرج - عام ١٩٣٦ - أن الدم الذي يجري في عروق الغجر "دم أجنبي ثم صنَّفهم الأستاذ هانز ف. حينثر في فئة مستقلة تمثل مزيجاً عرْقياً غير

محدَّد (إذ لم يستطع نفي أصلهم الآري) . وبلغت الخصائص العرْقية لدى الغجر من الأهمية درجة أهلتها لأن تصلح موضوعاً لرسالة دكتوراه . ومما قالته إيفا جوستين مساعدة الدكتور ريتّر في قسم الأبحاث العِرقية بوزارة الصحة (عند مناقشة رسالتها) إن الدم الغجري يُشكّل خطراً بالغاً على صفاء الجنس الألماني" ، ووجَّه طبيب يُدعَى الدكتور بورتشي مذكرة إلى هتلر يقترح فيها فرض الأشغال الشاقة على الغجر وتعقيمهم بالجملة نظراً لأنهم "يُشكّلون خطراً على نقاء دم الفلاحين الألمان" .

وفي ١٤ ديسمبر عام ١٩٣٦ ، صدر قرار أدى إلى تفاقم أوضاع الغجر إذ وصمهم بأنهم "مجرمون معتادون على الإجرام" وفي نهاية عام ١٩٣٧ وخلال عام ١٩٣٨ شُنت حملات اعتقال جماعية عديدة ضد الغجر وخُصِّص لهم جناح في معتقل بوخنولد ، وكانت قوائم الوفيات في كثير من المعسكرات تحوي أسماء غجرية يُذكَر منها: ماوتهاوسن وجوسن وداوتمرجن وناتلزفايلر وفلوسنبورج . وفي رافنسبروك ، راحت كثيرات من نساء الغجر ضحايا لتجارب أطباء الشرطة العسكرية الهتلرية الإس . إس . (SS) .

وفي عام ١٩٣٨ ، أصدر هملر بنفسه أمراً بنقل مقر المركز الوطني لشئون الغجر إلى برلين . وفي السنة نفسها اعتُقل ثلاثمائة غجري كان قد استقر بهم المقام في قرية مانفويرث حيث كانوا يملكون الحقول والكروم . وقد أمر هملر بتصنيف الغجر في الفئات التالية: غجري صرف (Z) ، وخلاسي يغلب عليه العرْق الغجري (ZM+) ، وخلاسي يغلب عليه العرْق الآري (ZM -) ، وخلاسي يتساوى فيه العرْقان الغجري والآري (ZM) . ويميِّز المؤرخ ح . بلّنج بين أساليب مختلفة لإبادة الجنس تتمثل في الإبادة عن طريق إزالة القدرة على الإنجاب واختطاف الأطفال ، والإبادة عن طريق الزج في المعتقلات ، والإبادة عن طريق الإفناء ، وقد عُقّمت في مستشفى برسلدورف - لبيرنفلد نساء غجريات متزوجات من غير الغجر ، ومات بعضهن على أثر تعقيمهن وهنَّ حوامل . وفي

رافنسبروك، قام أطباء الإس. إس. بتعقيم مائة وعشرين فتاة غجرية صغيرة.

وكان من أمثلة الإبادة الجماعية عن طريق الاعتقال ترحيل خمسة آلاف غجري من ألمانيا إلى جيتو لودز في بولندا، وكانت ظروف المعيشة في هذا الجيتو من الفظاعة بحيث لم ينج أحد من هؤلاء الغجر من الهلاك. ومع ذلك فإن الطريقة التي كان يؤثرها النازيون هي طريقة الإفناء المباشر. ويُعتقد أن قرار إبادة الغجر بالإفناء اتُخذ في ربيع عام ١٩٤١ عندما شُكّل ما عُرف باسم "فرق الإعدام. ولكي يتحقق ذلك كان يتعيّن جمع الغجر في أماكن محددة. فمنذ صدور قرار هملر في ٨ ديسمبر ١٩٣٨، كانت أماكن سكنى الغجر قد أصبحت معروفة لدى الشرطة، ثم جاء قرار ١٧ نوفمبر ١٩٣٩ ليحظر عليهم ترك منازلهم أو ليضعهم تحت طائلة الحبس في معسكرات الاعتقال. ورُحل ثلاثون ألف غجري إلى بولندا فلاقوا حتفهم في معتقلات الموت في بلزك وتربلينكا وسوبيبور ومايدانك، شأنهم شأن آلاف آخرين رُحلوا من بلجيكا وهولندا وفرنسا إلى معتقل أوشفيتس.

ويروي هويس، قائد المعتقل، في مذكراته أنه كان بين المعتقلين شيوخ يناهزون المائة سنة من العمر ونساء حوامل وأعداد كبيرة من الأطفال. كذلك يروي بعض السجناء الذين نجوا من الهلاك، كما يسرد كولكا وكرواس في كتابهما المعنون مصنع الموت، قصة مذبحة الغجر الرهيبة التي وقعت في ليلة ٣١ يوليه عام ١٩٤٤. وفي بولندا، كان الغجر يُقتلون في معسكرات الموت أو يُعدمون في البراري. وامتد نطاق القتل إلى الاتحاد السوفيتي عندما اندلعت نيران الحرب بين الألمان والسوفييت، فكانت فرق الإعدام التابعة للإس. إس. تسير مع الجيوش الألمانية، وكانت القبور الجماعية تملأ مناطق البلطيق وأوكرانيا والقرم. وفي ليلة ٢٤ ديسمبر ١٩٤١ أُعدم رمياً بالرصاص في سيمفيروبول ثمانمائة غجري من الرجال والنساء والأطفال. وحينما زحفت الجيوش النازية، كان الغجر يُعتقلون أو يُرحلون إلى المعسكرات أو يُقتلون. وفي يوغسلافيا، كان الغجر واليهود يُعدمون في غابة باجنيس.

ومن الصعب تقدير عدد الغجر الذين كانوا يعيشون في أوربا قبل الحرب العالمية الثانية وعدد ضحايا هذه الحرب . ويُقدِّر المؤرخ راؤول هيلبرج عدد الغجر في ألمانيا قبل الحرب بأربعة وثلاثين ألف نسمة ؛ أما عدد من بقي منهم على قيد الحياة بعدها فغير معروف . ويتبيَّن من تقارير فرق الإعدام أن عدد الضحايا في روسيا وأوكرانيا والقرم بلغ ثلاثمائة ألف غجري ، بينما تُقدر السلطات اليوغسلافية عدد القتلى من الغجر بثمانية وعشرين ألفاً في الصرب وحدها . أما عدد الضحايا في بولندا ، فمن الصعب تقديره وإن كان المؤرخ تيننباوم يؤكد أن الشعب الغجري فقد على الأقل خمسمائة ألف من أبنائه . هذا ، مع العلم بأن الشعب الغجري شعب عريق وكثير النسل (على عكس اليهود) .

معسكرات الاعتقال.... والإبادة:

ولتنفيذ مشروع "التخلص من الآخر" اليهودي أُقيمت معسكرات الاعتقال في ألمانيا عام ١٩٣٣ بعد استيلاء النازيين على الحكم ، فكان البوليس السري الألماني (جستابو) يقوم بالقبض على خصوم الحكومة النازية واحتجازهم في هذه المعسكرات . وحين عظم نفوذ الجستابو وأُعطي الحرية المطلقة في التصرف ، أصبحت عمليات القبض تتم على نطاق واسع ، فقُبض على جماعات بأكملها ثم أُرسلت إلى معسكرات الاعتقال . ولم تكن هذه العمليات موجهة ضد اليهود بالذات ، وإنما كان يُعتقل كل من يشكل خطراً على الدولة الجديدة بغض النظر عن دينه أو جنسيته . وقد وقعت أول حادثة موجهة ضد اليهود في نوفمبر ١٩٣٨ عندما وُضع عشرون ألف يهودي في هذه المعسكرات في داخاو وبوختنوالد . ومن معسكرات الاعتقال الشهيرة الأخرى ، معسكر برجن بلسن .

وقد أُقيمت ستة معسكرات للاعتقال والإبادة في بولندا، وهذه المعسكرات هي:

١ - كلمنو (بالقرب من لودز) .

٢ - بلزك (بالقرب من لفوف ولوبلين) .

٣ - سوبيبور (بالقرب من لوبلين) .

٤ - مايدانيك (على حدود لوبلين) .

٥ - تربلينكا .

٦ - أوشفيتس - بيركناو ، وهو أشهرها جميعاً .

وقد أُرسل إلى هذه المعسكرات كثير من الضحايا اليهود والغجر والسلاف وغيرهم ، من كل أنحاء أوربا . ويُقال إن كل معسكر كان مزوداً بأدوات متنوعة للإبادة مثل فرق إطلاق النيران ، وأدشاش المياه التي تطلق الغاز ، والمحارق . ومع هذا يثير كثير من الباحثين الشكوك حول وجود أفران الغاز أصلاً وقد صدرت عدة دراسات موثقة في هذا الشأن . كما تُثار الشكوك حول استخدام غاز زايكلون بي B Zyclon . في أفران الغاز . إذ تشير معظم الدراسات إلى أن استخدام مثل هذا الغاز يتطلب احتياطات فنية عالية ، مكلفة للغاية (يجب أن تكون الغرفة محكمة تماماً - لابد من تهويتها لمدة عشر ساعات بعد استخدامها - يجب أن تكون المفاصل مصنوعة من الإسبستوس أو التيفلون) . ومثل هذه الاحتياطات لم تكن متوفرة للألمان تحت ظروف الحرب ، وهو ما يعني استحالة استخدامه على نطاق واسع . وقد ورد كل هذا في تقرير ليوشتر Report Leuchter ، الذي كان يعمل مستشاراً لولاية ميسوري وكان متخصصاً في مثل هذه الأمور (ومما له دلالته أن كثيراً من حكومات الولايات المتحدة ، التي كانت تستخدم هذا الغاز في عمليات إعدام المجرمين ، قررت الاستغناء عنه ، بسبب تكلفته العالية) .

ولم تكن معسكرات الاعتقال مخصصة لليهود وحدهم وإنما كانت أداة من أدوات النظام النازي تُستخدَم لتحقيق أهدافه القومية ، بل إن عدد ضحاياها من غير اليهود يفوق عدد ضحاياها من اليهود . ومن المهم بمكان أن نضع معسكرات الاعتقال والإبادة في سياقها الحضري والمعرفي العام . فمنذ بداية التشكيل الحضاري الغربي الحديث أصبحت

معسكرات الاعتقال والإبادة نمطاً متكرراً ، حيث تم نقل سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) إلى معسكرات اعتقال منعزلة كان يُطلَق على كل واحد منها اسم "ريزيرفيشن reservation" تمهيداً لإبادتهم بشكل مباشر أو غير مباشر . وكانت عملية النقل ذات طابع إبادي . وكان السود ، الذين يجري اصطيادهم في أفريقيا ونقلهم (ترانسفير) إلى أمريكا ، يتم وضعهم في معسكرات أيضاً ويسكنون في مساكن هي أقرب ما تكون إلى معسكرات السخرة . وفي الحرب العالمية الثانية ، وضعت الولايات المتحدة الغالبية الساحقة من المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات مماثلة . وفي جنوب أفريقيا قامت حكومة التفرقة اللونية (الأبارتهايد) البيضاء بوضع المواطنين الأصليين في معازل جماعية يُقال لها "البانتوستان" . وغني عن القول إن هذا الوضع لا يختلف كثيراً عما يحدث في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ .

ولم تكن الإبادة مصير كل من يذهب إلى معسكرات الاعتقال ، التي كانت أساساً معسكرات سخرة ، ولذا نجد أن العدد الأكبر كان يُستخدَم في أعمال السخرة . وقد أُسِّس بجوار أوشفيتس ، على سبيل المثال ، ثلاثة مصانع كبرى لإنتاج بعض المواد اللازمة للعمليات العسكرية . وكانت الشركات الألمانية تستأجر المعتقلين عشر ساعات يومياً من العمل الشاق مقابل دولار واحد يومياً (وهو موقف كولونيالي تماماً) ، ونظراً لحرصها الشديد على الأيدي العاملة الرخيصة كانت توفر لهم بعض الأنشطة الترفيهية (ضمنها بيت دعارة) . كما اختير عدد من نزلاء المعسكرات لإجراء التجارب الطبية والعلمية عليهم .

وكانت المعسكرات تدار بطريقة تتسم بنوع من الإدارة الذاتية ، فكان يتم اختيار بعض العناصر من بين المساجين يشكلون نخبة داخل هذه المعسكرات ، وتكون بمنزلة حلقة الوصل بين المساجين والألمان . ويُطلَق عليهم اسم "كابو" ، وكان بعضهم من اليهود بطبيعة الحال . وكان كثير من هؤلاء يحرصون على إظهار القسوة نحو المساجين حتى يحظوا برضا الألمان .

ومن المعروف أن المساجين الألمان كانوا يُعاملون غالباً بقسوة تفوق ما يعامل به الآخرون لأنهم كانوا يُعتبَرون خونة .

واتسمت معسكرات الاعتقال بكفاءتها الشديدة وتحكُّمها الكامل في المادة البشرية التي كانت تُصنَّف بعناية وتُوظَّف على أحسن وجه وقد حققت عائداً كبيراً للاقتصاد الوطني الألماني . هذا ، بخلاف التخلص من أعداد كبيرة من الأفراد الذين يشكلون عبئاً على ألمانيا ، أي أن التجربة لا غبار عليها البتة إن نظرنا إليها من منظور نفعي مادي لا يكترث بالمطلقات . وبالطبع ، يختلف الأمر تماماً إن نظرنا للقضية من المنظور غير المادي ، أي من منظور قداسة الإنسان وحقوقه المطلقة .

ويُعَدُّ "أوشفيتس" أهم معسكرات الاعتقال وكان يُقال دائماً إن عدد ضحايا أوشفيتس هو أربعة ملايين ، منهم مليون ونصف مليون يهودي ، والباقون غير يهود . والسند الأساسي لأسطورة إبادة هذه الملايين في أوشفيتس هي اعترافات رودولف هس أثناء محاكمات نورمبرج . وقد ثبت أن كثيراً من " أدلة " الاتهامات في محاكمات نورمبرج هي في معظمها اعترافات يدين خلالها المتهمون أنفسهم ، بعد أن ظلوا في الأسر عامين أو يزيد تعرضوا فيها للتعذيب والامتهان . وقد استُبعد عدد كبير من الوثائق والشهادات التي كان من شأنها تحطيم الأساطير التي حاول الحلفاء نسجها . وهناك من البحوث ما يشير إلى أن العدد الإجمالي لا يمكن أن يزيد على ١,٦ مليون ، وأنهم قضوا حتفهم لا من خلال أفران الغاز وإنما بسبب الجوع والمرض والموت أثناء التعذيب والانتحار . وقد أصبح معسكر أوشفيتس (في الخطاب السياسي والحضاري الغربي) رمزاً ودالاً على عدة مدلولات . فهو رمز مباشر على الإبادة النازية لليهود (بمعنى التصفية الجسدية المتعمدة) ، أي أنه الجزء الذي يتبدّى الكل من خلاله . كما أصبح معسكر أوشفيتس دالاً يشير إلى كل

جرائم الإبادة التي تتم بشكل منهجي لا شخصي بيروقراطي .

ويرى الدكتور المسيري أن من الضروري أن نتناول إشكالية تخصنا وحدنا كعرب وكمسلمين ومسيحيين وهي موقفنا من الإبادة النازية لليهود . أما موقفنا من الإبادة النازية كمسلمين وكمسيحيين فهو واضح تماماً لا لبس فيه . فالقيم الأخلاقية الدينية (الإسلامية والمسيحية واليهودية) لا تسمح بقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق . وقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿ **من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً** ﴾ . (المائدة - ٣٢) . ويحاول الغرب إقحام الجريمة النازية داخل التاريخ العربي حتى يُبرِّر غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية في وسط الوطن العربي ، تعويضاً لليهود عما لحق بهم من أذى داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل حدود أوربا الجغرافية . وتحاول الدعاية الصهيونية ، بممالأة الغرب ، **أن تنجز ذلك من خلال آليتين أساسيتين:**

١ - تحاول الدعاية الصهيونية جاهدة أن تصوِّر المقاومة العربية للغزو الصهيوني لفلسطين وكأنها دعم مباشر أو غير مباشر للإبادة النازية ، لأنها حالت في بعض الأحيان دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين . ومثل هذه الحجة لا أساس لها من الصحة . فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى وإنما كانت ضد مستوطنين جاءوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها ، تحت رعاية العالم الغربي ، وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية (ومن النازيين أنفسهم) ، وفي الوقت الذي كانت الدول الغربية توصد أبوابها دون المهاجرين اليهود . ومهما فعل الصهاينة (يؤيدهم في هذا العالم الغربي دون تحفُّظ) يظل حق المقاومة حقاً إنسانياً مشروعاً بل اجباً على كل إنسان يحترم إنسانيته ، ويظل رفض الإنسان للظلم تعبيراً عن نبله وعظمته ، بل إنسانيته .

٢ - تحاول الدعاية الصهيونية أن تبين أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفاً مع

النظام النازي . وهذه أكذوبة أخرى . فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء (فالعالم العربي على أية حال كان يقع في دائرة الاستعمار الغربي) . كما أن النظرية النازية العرْقية كانت تضع العرب والمسلمين في مصاف اليهود ، ولذا فأي تحالف مزعوم كان تحالفاً مؤقتاً لا يختلف عن حلف ستالين/ هتلر . وهؤلاء الساسة (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين فعلوا ذلك لا كُرهاً في اليهود أو حباً في النازيين ، وإنما تعبيراً عن عدائهم للاستعمار الإنجليزي والاستيطان الصهيوني . وهو ، على أية حال ، تعاطف يُعبِّر عن سذاجة وعن عدم مقدرة على القراءة الجيدة للأحداث ، وعن عدم إلمام بطبيعة الغزوة النازية ومدى تَجذُّرها في المشروع الحضاري والإمبريالي الغربي ومدى رفضها العنصري للمسلمين والعرب . ولم يُترجم هذا التعاطف العام نفسه إلى اشتراك فعلي في الجريمة النازية ، التي تحتفظ بخصوصيتها كظاهرة حضارية غربية .

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغيِّر شيئاً من الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية ، الدينية والإنسانية . فالإبادة النازية لا تُشكِّل جزءاً من التاريخ العربي أو تواريخ المسلمين ، ولم يلوث العرب والمسلمون أيديهم بدماء ضحايا النازية من يهود أو سلاف أو غجر . وهذه المحاولات تُبيِّن في نهاية الأمر اتساق الغرب مع نفسه ، الذي يُكفر عن جريمة إبادية ارتكبها في ألمانيا بأخرى لا تقل عنها بشاعة في وطننا العربي .

ومن المعروف أنه حينما حدث احتكاك مباشر بين المسلمين والعرب من جهة والإبادة النازية من جهة أخرى فإن موقف المسلمين والعرب كان يتسم بالإنسانية . فعلى سبيل المثال قامت الأقلية المسلمة في بلغاريا بدور كبير في حماية أعضاء الجماعات اليهودية من الإبادة ، كما أن الملك محمد الخامس عاهل المغرب رفض تسليم رعاياه اليهود إلى حكومة فيشي الفرنسية الممالئة للنازي .

ويروي الدكتور المسيري أنه أثناء كتابته موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" لاحظ تكرار كلمة "مسلم" في مقال عن التدرج الاجتماعي في معسكر أوشفيتس ، وقال مرجع آخر إن الضحايا الذين كانوا يُقادون لأفران الغاز كانوا يسمونهم تسمية "غريبة" . وقد تبيَّن بعد قراءة عدة مراجع وموسوعات إلى أنهم كانوا يسمون في واقع الأمر Muselmann أي "مسلم" بالألمانية ، وقد ورد ما يلي في مدخل مستقل في الموسوعة اليهودية Enyclopedia Judaica (جزء ١٢ ص ٥٣٧ - ٥٣٨) عنوانه مسلم:

"ميزلمان" أي مسلم بالألمانية، هي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تُستخدَم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت، أي الذين بدأت تظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والوهن الجسدي. وكان هذا المصطلح يُستخدَم أساساً في أوشفيتس ولكنه كان يُستخدَم في المعسكرات الأخرى" .

هذه هي المعلومة ، فكأن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر ، والآخر منذ حروب الفرنجة هو المسلم . ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود، وهناك لوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط . إن التجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي ، والنازيون هم حملة عبء هذه الرؤية ، وهم مُمثِّلو الحضارة الغربية في مجابهتها مع أقرب الحضارات الشرقية ، أي الحضارة الإسلامية . وهم لم ينسوا قط هذا العبء حتى وهم يبيدون بعضاً من سكان أوربا . وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن الغزاة الأسبان للعالم الجديد الذين كانوا يبيدون سكانه الأصليين وكانوا يسمونهم «الترك» أي «المسلمين» . كل ما في الأمر أن نطاق الحقل الدلالي لكلمة "مسلم" تم

توسيعه ليشير "للآخر" على وجه العموم، سواء أكان من الغجر أم السلاف أم اليهود (وهذا لا يختلف كثيراً عن توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة "عربي" في الخطاب الصهيوني لتصبح "الأغيار"). وقد حاول كاتب مدخل "مسلم" في الموسوعة اليهودية أن يفسر أصل استخدام الكلمة، فهو يدَّعي أن الضحايا سُموا "مسلمين" استناداً إلى طريقة مشيهم وحركتهم: "إنهم كانوا يجلسون القرفصاء وقد ثُنيت أرجلهم بطريقة "شرقية" ويرتسم على وجوههم جمود يشبه الأقنعة". والكاتب في محاولة التفسير هذه لم يتخل قط عن عنصريته الغربية أو الصور النمطية الإدراكية، كل ما في الأمر حاول أن يحل كلمة "شرقيين" العامة محل كلمة "مسلمين المحددة.

ومؤخرا بدأ يكشف النقاب في ألمانيا عن أن العرب المسلمين كانوا ضمن ضحايا المحرقة النازية حقيقة لا مجازا، صحيح أنهم كانوا في وعي الجلاد ووجدانه رمزا للآخر إلا أنهم كانوا فعليا ضمن ضحايا هذه الآلة الرهيبة. ففي معسكر الاعتقال زاكسن هاوزن قرب برلين يجري "مركز دراسات الشرق المعاصر" أبحاثا جديدة حول علاقة العرب والألمان في التاريخ المعاصر يقوم بها البروفيسور غرهارد هوب صاحب المؤلفات المعروفة عن تاريخ الوجود العربي في ألمانيا في عشرينات وثلاثينات وأربعينات القرن الماضي. ومن خلال هذه الأبحاث تطل للمرة الأولى وجوه عربية بين ضحايا الهولوكوست... المعتقل رقم: ٤١٥٠٦... الاسم: محمد بو إياد... تاريخ الميلاد: الأول من مارس عام ١٩٠٤... مكان الميلاد: الرباط - المغرب... المهنة: تاجر... تاريخ الاعتقال: أوائل عام ١٩٤٤ في باريس... التهمة: المشاركة في المقاومة الفرنسية.... المصير: الموت في غرف الغاز في معسكر الاعتقال ماوت هاوزن في الرابع والعشرين من أبريل عام ١٩٤٥... وبقيت منه صورة!!

الضحايا جاءوا من المغرب والجزائر وتونس ومصر والعراق ولبنان وفلسطين وسوريا واعتُقلوا كغيرهم كأسرى حرب أو لأسباب سياسية أو عنصرية أو لتشغيلهم للسخرة في تصنيع آلة الحرب النازية، ومات كثير منهم قتلاً أو مرضاً في معسكرات أوشفيتس وبوخن فالد ودخاو وبرجن بلزن وماوت هاوزن وزاكسن هاوزن وغيرها، ثم ماتوا ثانية عندما غيبتهم كتب التاريخ. في معسكر زاكسن هاوزن وبين السطور المكتوبة بالألمانية والفرنسية إحياء لذكرى الضحايا تختفي مصائر ٣٧ عربياً وقد أدت الأبحاث التاريخية الجديدة إلى تحديد أسماء أكثر من ١١٣٠ مسلما ضمتهم قائمة واحدة أعدموا بأمر هيملر وزير داخلية النازي. وقد اختار البروفسير جيرهارد هوب لنتائج دراسته التي استمرت ثلاثة أعوام عنوانا موحيا هو "مخاطر التذكر"!

* * * * *

الباب الثالث:

الإسلام وثقافة قبول الآخر

الفصل الأول:

في معنى الثقافة

تمهيد:

ربما لم تثر كلمة في تاريخ المعرفة الإنسانية مشكلة في تعريفها كما فعلت كلمة ثقافة ولم يبالغ الباحث عدنان المبارك حين كتب في جريدة "الزمان" العراقية تحت عنوان: **"متاهات المفاهيم عند تعريف الثقافة"** ورغم ذلك فإن الثقافة أصبحت من المفاهيم الأساسية لما يسمي اليوم بالعلوم الإنسانية ، وأكبر تعميم لقيه هذا المفهوم في القرن العشرين . وكلمة (الثقافة) العربية لا تملك ذات المعني القاموسي الذي تحمله الكلمة اللاتينية (كولتورا) . إلا أن المفهوم السياقي للكلمتين ، العربية واللاتينية ، أصبح منذ أمد غير بعيد ، واحدا علي وجه التقريب . ويعني الأصل اللاتيني للكلمة الزرع ، إلا أن أول من استخدمها بصورة مجازية كان شيشرو الذي سمي الفلسفة بـ (ثقافة) الروح .

ومن الواضح أن هذا الفهم المبكر للثقافة ارتبط بتصور الجهد الداخلي الهادف صياغة التفكير بأسلوب شبيه بالتحولات التي تدخلها يد الإنسان علي الهيكل الطبيعي للعالم الخارجي . وقد شاع استخدام الكلمة عبر قرون طويلة ألي أن استخدم الفرنسيون مصطلح (الحضارة) أو (المدنية) الذي قصدوا به كامل المنجزات الاجتماعية في مجالات التقنية والعلم والفن والأجهزة السياسية . وقبلها كانت تستخدم الصفة: متحضر ، متمدن ومعها كلمتا (بولي) وتعني الصقل ، والثانية جاء أصلها من كلمة(بوليس) اللاتينية وهي ذات منحدر يوناني (بوليتيا) أي النظام الاجتماعي المتعارض مع ما أسموه بشريعة الغاب والفوضى في العلاقات الاجتماعية بين الأقوام البدائية . ويذكر هذا الأمر ، بدوره ، بالتعارض الأقدم بين (الزرع) و(الطبيعة) .

في أوربا القرن الثامن عشر اعتبرت (الحضارة) نقضا للحالة (الطبيعية) التي تعيش فيها الأقوام الفطرية . وكان يؤخذ بهذا التعارض وفق المعايير الأخلاقية الكنسية ، فمرة كان يفسر لصالح الحضارة وفي أخري لصالح الطبيعة كما في مفاهيم جان – جاك روسو . ومن

المرجح أن الفضل في إشاعة كلمة الثقافة يعود الي الشاعر والفيلسوف الألماني يوهان هيردير . ففي مقدمة كتابه "أفكار حول فلسفة التأري" من أعوام ١٧٨٤ - ١٧٩١ كان مترددا في حسم الطابع الإيجابي للثقافة . وحصل ذلك ، وعلي أكبر احتمال ، تحت تأثير فلسفة روسو حول التأثير الانحلالي للفن والعلم علي الإنسان والطبيعة . فقد نظر هيردير إلى الثقافة كأداة تعوّض عن النقص الفيزيقي للإنسان في صراعه من أجل البقاء .

كما نجده يرسم صورة داروينية لكفاح الأنواع ويحدد الشروط التي كان علي الإنسان أن يشق فيها طريق وجوده مستغلا مهاراته . ويري هيريدر أن الأسلوب الذي اتبعه الإنسان هو بمنزلة تأريخ ثقافته التي تملك حصة فيها وحتى أكثر الشعوب بدائية . واعتقد هيريدر أن الآلية الرئيسة للثقافة توجد في التقاليد المعتمدة علي تحديد نماذج السلوك . وبهذا مهّد الطريق لعلم الاجتماع المعاصر القائل بأن الإنسان يتأنسن من خلال التربية .

وهنا تأتي أهمية لفظ "ثقافة" لدراستنا عن ثقافة قبول الآخر ، فهي مفتاح من مفاتيح التغيير نحو الأفضل بسبب دورها في تغيير السلوك الإنساني . وحسب عدنان المبارك فإن تعريف الثقافة تنازعته نزعات شتي حتى وصلنا إلى مفهوم تنوع وتكافؤ الثقافات الذي أصبح العنصر الجوهري للنظريات المعاصرة قد شق طريقه ببالغ الصعوبة في فترة سيادة مفاهيم عصر التنوير الأوربي والأخرى المرتبطة بنظريات التطور والقائلة بالتطور (التقدمي) ذي الخط الواحد للتأريخ . وقد وصف المؤرخ الألماني غوستاف كليم الثقافة – وتحت تأثير فولتير – بأنها: "**مجموعة الظواهر التي نلمسها في العادات والمعتقدات والأشكال النظامية**" .

وكانت كلمة (الثقافة) شائعة في الأدب الإنجليزي رغم تعدد التفاسير . ولنذكر هنا المعركة التي دخلها ماثيو أرنولد في ستينيات القرن التاسع عشر مهاجما أنصار الثقافة الشائعة التي أسماها بالبريق السطحي للتحصيل اللغوي التقليدي . أما هو فوجد الثقافة الحقيقية "**فضولا فكريا وسعيا غير نفعي صوب الكمال ومنطقة للقيم الأخلاقية والجمالية المتناقضة**

مــع قبح حضارة الفحم والفولاذ أخلاقيات الركض وراء الثروة والسطوة السياسية، وعالم البرابــرة الأرستقراطيين ومادية البوروجوازيين و(الرعاع) أيضا.. فالثقافة هي كل ما يكون الأفــضل". وهـذا التعـريف الغائـي الـذي يجعـل الـثقافة "وسـيلة" للأفضل هو من أقرب التعريفات إلى المعنى المقصود بالثقافة في تعبير "ثقافة قبول الآخر".

وإن عـدنان المبارك يعتـبر أن كـتاب الباحـثين الأمريكيين كريبير وكلوك حول مفاهيم الثقافة وتعاريفها من أفضل المؤلفات في هذا الحقل. ووفق هذين المؤلفين هناك ستة تعاريف للـثقافة أو بالأحـري سـتة أبعـاد تـبرزها شـتي الـتعاريف وهـي: الوصـفي والتاريخـي والـسايكولوجي والبنـيوي والمعـياري والـتكويني. أما الوصفي فمثاله تعريفا أدوارد تايلور أولهمـا أن "الــثقافة أو الحضارة هي كلّ مركب يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقوانين والأعراف كذلك القدرات الأخرى والعادات المستحكمة لدي الناس كأعضاء في المجــتمع". وتعـريفه الثانـي، أن الـثقافة: "ذلك الكل المركّب المعقّد الذي يشمل المعتقدات والمعلــومات والفـــن والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات وجميع القدرات الأخرى التي يـــستطيع الإنـــسان أن يكتسبها بوصفه عضواً في مجتمع أما التعريف التأريخي فيؤكد عامل التقاليد كمشرّع للثقافة التي تصبح، هنا، إرثا وحصيلة".

وفي التعـريف المعـياري تكون القواعد هي الخاصية الأساسية للسلوك الثقافي إضافة إلى مـا يـسمي وحـدة أسلوب الحـياة المميّـز لهذه الثقافة عن تلك. أما التعريف السايكولوجي فيراعي الآليات النفسية الناشطة عند تشكيل الثقافة أي عملية التعلم ونشوء العادات. وبين التعاريف السايكولوجية هناك التي تصف الثقافة كجهاز مكيّف (بكسر الياء). أما التعاريف البنـيوية فتتميـز بالتركيـز علي الطابع الكلي للثقافات وترابطاتها الداخلية. فهذه التعاريف تتكلم عن ثقافة معيّنة أو ثقافات مختلفة وليس عن الثقافة عامة. وما يميّز التعاريف التكوينية تأكـيدها إيـضاح أصـل الـثقافة ومـنحدرها وقـضية تعارضـها مع الطبيعة، وطابعها كنتاج

للتعايش الاجتماعي . فتايلور وجد أن جوهر الثقافة يكمن ، رغم كل شيء ، في الأصل الاجتماعي للعادات والأعراف . ويري عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي الكبير رالف لينتن أن الثقافة تشمل طائفتين أساسيتين من الظواهر هما:

١ - السلوك البشري

٢ - الأشياء التي تعتبر نتاجا لـه .

ذلك أن نطاق الثقافة لا يشمل جميع أنواع السلوك بل تلك التي صارت عادة اجتماعية أي السلوك الذي يتميز بالانتظام ومصدره عملية التعلم المميّزة للجنس البشري والتي تعتبر إحدى الآليات الرئيسة لنشوء الثقافة وبقائها وتطورها . فالثقافة هي في قابلية التعلم وتخطي التجربة الشخصية وفق التعاريف المذكورة وغيرها يكون الإنسان قد تعلم جميع الأنشطة الثقافية أي أن السلوك الغرائزي هو خارج نطاقها . ومن الطبيعي أن ليس كل ما يتعلمه الإنسان يعتبر نشاطا ثقافيا . فقابلية التعلم مشتركة ، وعلي نطاق كبير ، بين الإنسان والحيوانات الأخري . إلا ان التعلم لدي الحيوان يبقي تجربة مستقلة لا علاقة لها بالتجارب السابقة والمقبلة علي السواء . فقابلية التعلم وتخطي التجربة الشخصية جعلتا الإنسان خالقا للثقافة ومتكيفا لشروط الحياة فيها .

لكن هذه القدرة على التعلم ومن ثم في مرحلة تالية اكتشاف الإنسان قدرته على خلق الثقافة كانت التربة الخصبة التي نشأت فيها أمراض "رفض الآخر" كموقف مسبق مخطط واع .

والقدرة علي الأخذ والعطاء فيما يخص التراث والتي يتميز بها الإنسان ، سواء أخصّ الأمر الأشياء أم قواعد السلوك ونماذجه ، تكون قائمة في أسس الطابع التراكمي للثقافة . وهناك تعريفان أساسيان الأول حدّده تايلور والثاني المناويء لـه يرفض تفسير الظواهر الثقافية كنوع معيّن من السلوك الاجتماعي ونتاجاته . ولا يمكن ، بالطبع ، تجاهل حقيقة أن

الثقافة هي واقع خارجي ذو تأثير طاغ علي الإنسان .

وهناك تعاريف وسط بين التعريفين المذكورين وأكثرها انتشارا التعريف الذي حدد صيغته النهائية رالف لينتن ويعتمد علي التفرقة بين الثقافة الفعلية والأخري "التجريدية" ويقول إن الثقافة "نظام التصرفات المكتسبة" . ولا يستطيع أي مجتمع أن يتقدم ويزدهر حتى يعرف المكوّنات الثقافية التي تتحكّم به وتُنَمِّط تفكيره وتحدِّد اهتماماته وتوجِّه نشاطه فالثقافة بهذا المعنى أسلوب أو طريقة الحياة التي يعيشها أي مجتمع بما تعنيه من تقاليد وعادات وأعراف وتاريخ وعقائد وقيم واهتمامات واتجاهات عقلية وعاطفية وتعاطف أو تنافر ومواقف من الماضي والحاضر ورؤى للمستقبل ، وهي طريقة تفكير وأنماط سلوك ونُظُم ومؤسسات اجتماعية وسياسية وما يعيشه المجتمع من انفتاح أو انغلاق ، فالثقافة بهذا المحتوى هي في الغالب لا تأتي قصداً من الأفراد وإنما يكتسبها الناس امتصاصاً من البيئة منذ ولادتهم ، وإذا اكتسبوها بالقصد فإن قصْدهم يكون محدَّداً بالبرمجة من الأهل والمجتمع ، فهم يتشرَّبون ثقافة أهلهم ومجتمعهم مثلما يتشرَّبون اللغة الأم ويحكمون على كل شيء وفق المعايير السائدة التي امتصوها امتصاصاً تلقائياً ، وامتزجت بعقولهم ووجدانهم . . فهي تحركهم بمخزون اللاشعور ولكنهم يتوهمون أنهم يفعلون ذلك بمحض اختيارهم وفيض إرادتهم ويجهلون أن مصدر هذه الثقة هو البرمجة الراسخة فيظلون مأخوذين بما تبرمجوا عليه ولا يخطر على بالهم أن يرتابوا فيه أو يراجعوه ، ومن هنا تمايزت أوضاع المجتمعات .

وتنوع الثقافات هو الذي يحدِّد تنوع المجتمعات فإليه تعود الاختلافات الكثيرة والكبيرة في الأحوال والأوضاع وطُرق التفكير وأنماط السلوك ، كما أن التنوع الثقافي هو الذي يحدِّد المستويات الحضارية للمجتمعات وهو السبب في هذا

التفاوت الشاسع في درجات التخلف أو التقدم ، ومع كل هذا التعقيد الشديد لمفهوم الثقافة فإن أكثر القراء يتوهمون بأن (الثقافة) مفهوم شديد الوضوح جَرْياً على ما اعتادوا عليه في الحس العام ، وهو حسٌ مبنيٌ في الغالب على ثقافة المشافهة وليس مبنياً على المعرفة العلمية الممحَّصة فيبقون واثقين من صحة فهمهم ويظلون واهمين بأن المفهوم لا يحتاج إلى بحث ولا تعريف ، ولقد بلغت كثافة مفهوم الثقافة وتعقيدات مضمونه وتعدُّد عناصره وتنوُّع محتواه واختلاف موصوفه وتباين درجات مدلوله أن فرعاً علمياً بأكمله تستغرقه محاولة تعريف هذا المفهوم المحوري وتحديد دلالاته وإبراز نتائجه وتتبُّع آثاره وبسبب هذه الأبعاد الدلالية الزاخرة بات يتردد في الكتابات أن له أكثر من مائة تعريف إمعاناً في تأكيد غموضه والتباسه ولم تقتصر محاولات جلاء هذا الكائن الكُلّي المركَّب على علماء الأنثربولوجيا الثقافية والاتنولوجيا وعلم الاجتماع بتفريعاته المتعدِّدة وإنما واجهت المفكرين في كل مكان معضلةُ عجز كثير من المجتمعات عن التفاهم أو عدم قدرتها على الإفلات من قبضة التخلف ، وكانت هذه المعضلة حافزاً للمفكرين للتعرُّف على محفّزات النمو ومعوّقاته فاحتلَّ مفهوم الثقافة بؤرة الاهتمام وبات قاسماً مشتركاً بين المعنيين بالإصلاح والمهتمين بالتنمية والمشتغلين بالفكر . لقد امتد الاهتمام بالتباينات الثقافية إلى فروع معرفية واسعة ومتنوعة وشارك مثقفون كثيرون من كل الثقافات في محاولات شرح هذا المفهوم وتقريب مدلولاته وتأكيد أهمية المعرفة الفردية الراقية داخل الثقافة الواحدة لأن التكامل بين إبداع القلة واستجابة الأغلبية من أهم عوامل الازدهار .

لكن هذا التفاعل كان دائما سلاحا ذا حدين إذا كان بالإمكان - في حالات كثيرة - بناء عليه أن تتحكم القلة المبدعة في الأغلبية وقد أدت الدراسات على هذا التأثير إلى اكتشاف الفعل الحاسم للثقافة السائدة في أي مجتمع وكونها تتحكَّم بعقول وعواطف

وأوضاع المجتمعات وتعمل على استمرار هذه الأوضاع . إن مفهوم الثقافة إطارٌ عام جامع وتتحرك داخل هذا الإطار الواسع كل الثقافات الإنسانية في دوائر أو أُطُر متمايزة ذات تنوعات شاسعة ومستويات حضارية متباينة وتقوم بينها أحياناً حواجز وعوائق يصعب تجاوزها أو اختراقها أو النفاذ منها . إن الثقافات تتنوع تنوعاً شديداً فبعضها ذو أُطُر أو دوائر مغلقة لا تتفاعل مع الدوائر أو الأُطُر الأخرى وبعضها فضاءات مفتوحة تأخذ وتعطي إنها تتغذى من الثقافات وتغذيها . إن الثقافات عوالم متمايزة تشكَّلَتْ بظروف تاريخية وسياسية واجتماعية وطبيعية مختلفة وتكوَّنت بفعل مؤثرات كثيرة ومتنوعة فجاءت هي بهذا الاختلاف والتنوع .

ورغم أن الفلاسفة قد أدركوا منذ العصر اليوناني أن لكل مجتمع ثقافة يتشكل بها عقله تختلف عن ثقافات المجتمعات الأخرى ، وأن الاختلافات الشديدة الملحوظة بين المجتمعات تعود إلى هذا التنوع الثقافي . فالثقافة إذن أكبر من الأفراد وهي نتاج الاجتماع الإنساني والإنسان يكتسبها ويتطبَّع بها دون اختياره فهي تسيِّره وتحدِّد ماهيته وترسم نمط تفكيره وتبني نماذج سلوكه وتصنع مسارات اهتماماته وترتِّب منظومة قيمه ، فهو يكتسبها امتصاصاً تلقائياً بوصفه عضواً في مجتمع وليس بتخطيط منه سواء كان أمياً أم متعلماً ، أما ما يفعله عن قصد بعد بلوغه الرشد فهو يأتي في الغالب تأكيداً لما كان قد تَشَكَّل به في طفولته فنمو المعرفة يشبه نمو الشجرة . إن النمو في النبات يكون امتداداً للبراعم الأولى وكذلك الإنسان يتشكل عقله في الطفولة أما ما يأتي بعد ذلك من أفكار ومعارف ومعلومات فيتحوَّر ويتكيَّف ليبقى امتداداً للتَّشَكُّل الأول أو يظل طلاءً خارجياً غير ممتزج بالبنية الذهنية فلا مكان في العقل ولا في الوجدان لما ليس امتداداً لما هو مغروسٌ في الطفولة إلا في حالات استثنائية نادرة حين يكون الفرد قادراً على استقلال التفكير والنهوض بعبء المراجعة والتدارك والتصحيح وإعادة بناء الذات .

إن قابليات الأفراد غير المحدَّدة عن الولادة تتحدَّد بالبيئات التي ينشأون بها فيكتسبون تلقائياً بهذه التنشئة المتمايزة لغات مختلفة وطرق تفكير مختلفة وعادات مختلفة واهتمامات مختلفة وقيماً مختلفة وانتماءات مختلفة وأنماط سلوك مختلفة وأخلاقاً مختلفة وتقاليد مختلفة ولكنهم يغفلون عن كل هذه الاختلافات باستثناء إدراك الاختلاف اللغوي فهم يدركونه بداهة لأنه اختلافٌ صارخ ولا يتطلب أي استقصاء فيدركه الأميون مثلما يدركه المتعلمون ولكنهم في الغالب لا يدركون أن كل عناصر الشخصية الفردية الفكرية والسلوكية تتطبَّع بهذه الاختلافات الثقافية. إن اكتشاف ظواهر التمايز الثقافي الأخرى يحتاج أولاً إلى استشكال ثم الاستقصاء حول أسباب وفواعل هذا التمايز.

إن الثقافة هي ذلك الكائن المعقَّد العجيب الذي لا نراه ولكنه يغمرنا كل الوقت بل يسري فينا مسرى الحياة ويحدِّد طبيعتنا بعد أن كانت مجرد قابلية. إن الفرد لا يذكر كيف تعلَّم لغة أهله وقومه فهو حين يكبر يجد نفسه يتكلم بهذه اللغة أو تلك ومثل ذلك يقال عن كل العناصر الثقافية التي شكَّلته فيها يعتقد وبها يفكّر وبها يحب ويكره وبها يوالي ويعادي. إن الثقافة التي تخلَّق بها وعيه هي التي تصوغه وتتحكَّم بعقله وتوجِّه وجدانه، فهو نتاجها واكتسب منها طبيعته الثانية إنه متطبِّع بثقافة أهله وقومه وهو لا يتذكَّر كيف صاغته فجعلته منتمياً إليها وذائباً فيها ومغتبطاً بهذا الانتماء والذوبان.

وبسبب هذا التعقيد والأهمية كثرت تعريفات الثقافة. إن ويسلر يعرِّفها بقوله: **"الثقافة كل الأنشطة الاجتماعية في أوسع معانيها مثل اللغة والزواج ونسق الملكية والاتيكيت والفن"**، ويعرِّفها مرة أخرى فيقول: **"الثقافة هي أسلوب حياة تتبعه الجماعة أو القبيلة تتضمن مجموعة المعتقدات"**، أما روث بندكت فتعرِّف الثقافة بأنها: **"ذلك الكل المركَّب**

الذي يشمل العادات التي يكتبسها الإنسان كعضو في مجتمع"، أما بواز فيعرِّفها بأنها: "ذلك الكل المركَّب الذي يشمل العادات الاجتماعية في جماعة ما وكل ردود أفعال الفرد المتأثرة بعادات المجموعة التي يعيش فيها وكل منتجات الأنشطة الإنسانية التي تتحدد بتلك العادات" أما بوقاردس فيعرِّفها بقوله: "الثقافة هي المجموع الكلي لأساليب الفعل والتفكير لجماعة اجتماعية وهي تمثل مجموع التقاليد والمعتقدات والإجراءات المتوارثة"، أما لووي فيُعَرِّف الثقافة بأنها: "ذلك المجموع الكلي لما يكتسبه الفرد من مجتمعه تلك المعتقدات والأعراف والمعايير الجمالية وعادات الطعام والحرف التي لم يُعَرِّفها الفرد نتيجة نشاطه الابتكاري بل عرفها كتراث الماضي ينتقل إليه بواسطة التعلُّم الرسمي وغير الرسمي"، ويُعَرِّفها مالينو فسكي بقوله: "الثقافة هي ذلك الكل المتكامل الذي يتكوَّن من الخصائص البنائية لمختلف المجموعات الاجتماعية من الأفكار الإنسانية والمعتقدات والأعراف والحرف والأدوات، ويُعَرِّفها هير سكوفيتس بقوله: "الثقافة هي طريقة حياة الناس" في مجتمع معيَّن أما بانزيو فيُعَرِّف الثقافة بأنها "ذلك المجموع الكلي لذلك النسق الكلي من المفاهيم والاستعمالات والتنظيمات والمهارات والأدوات التي تتعامل بها البشرية مع البيئة لإشباع حاجاتها"، أما بدني فيُعَرِّفها بقوله: "الثقافة تتكوَّن من السلوك ومن الأفكار التي يكتسبها الأفراد من خلال المجتمع"، أما راد كليف براون فيرى أن الثقافة: "هي عملية اكتساب التقاليد الثقافية وهي العملية التي تنتقل بها اللغة والمعتقدات والأفكار والذوق والمعرفة والمهارات والاستخدامات في مجموعة اجتماعية معينة أو طبقة اجتماعية من جيل إلى آخر"، ويُعَرِّفها سابير بأنها: "مجموع الممارسات والمعتقدات المتوارثة اجتماعياً التي تحدِّد جوهر حياتنا"، ويُعَرِّف بارسونز الثقافة بقوله: "إن الثقافة تتكوَّن من تلك النماذج المتصلة بالسلوك وبمنتجات الفعل الإنساني التي يمكن أن تورث بمعنى أن تنتقل من جيل لجيل بصرف النظر عن الجينات البيولوجية" فمفهوم الثقافة إذن هو مفهومٌ محوري يتضمن الأفكار والتصورات الموروثة والعادات والقيم والمواقف السائدة في مجتمع معيَّن.

وحسب معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية فإن: "تعريف الثقافة في علم الاجتماع بأنها البيئة التي خلقها الإنسان بما فيها المنتجات المادية وغير المادية التي تنتقل من جيل إلي آخر، فهي بذلك تتضمن الأنماط الظاهرة والباطنة للسلوك المكتسب عن طريق الرموز، والذي يتكون في مجتمع معين من علوم ومعتقدات وفنون وقيم، وقوانين وعادات، وغير ذلك".

وهذه المجموعة من التعريفات التي تركز على الثقافة كفاعل مؤثر في السلوك ودورها الكبير في تحسين سلوك الإنسان وترقيته بشكل مقصود هي مدار بحثنا لثقافة قبول الآخر . أما ثقافة قبول الآخر فقد دخل هذا المصطلح بعد عام ١٩٩٧ بعد صدور مسرحية الكاتب الكبير ادوارد البي عن قصة حديقة الحيوان ، وقد جاء على لسان أحد شخوصها (إن الجحيم هو الآخر) . بعد هذا التاريخ أخذت هذه الثقافة ثقافة قبول الآخر بالظهور لتأخذ حقها من النقاش والحوار وأن الآخر هنا هو كل شئ يقف في خلاف مع الأنا وقد يكون الاختلاف فكريا أو دينيا (أو مذهبيا) أو ثقافيا .

* * * * *

الفصل الثاني:

يا أيها الناس

في أساس النظرية الإسلامية لا يوجد ما يعيق العلاقة السليمة المنفتحة والتبادلية مع الآخر ، حتى في زمن الحروب التي كانت في فترة صدر الإسلام فان الحوار سبق مراراً السيف وحين مضت الفتوحات علي ظهور الخيول وفي ركاب الفرسان لم تكن حروباً نهائية ولا هدفا في ذاتها بقدر ما كان الفتح الإسلامي متوافراً علي معاني إيجاد العلاقة الجديدة مع الآخر في المحيط الجغرافي وعبر أطر تاريخية عميقة الصلة بالأديان الأخرى ، فكان أصحاب الديانات السابقة في مركز اهتمام الإسلام وقد راعت التعاليم والأحكام الإسلامية شروطاً خاصة (لأهل الذمة) في حقوق السلم والحرب وأحوال المعيشة والضرائب والدخل العام .

ويتأسس خطاب "قبول الآخر" في القرآن على أسس ثابتة من قبول التعدد بمستوياته كافة والكشف عن السنن الكونية التي تحكم الاجتماع الإنساني ، وهي:

أولا: وحدة الأصل الإنساني كله بحيث لا يكون مقبولا مع الاختلاف أو الخلاف نفي الإنسانية عن "الآخر" بأي مبرر أو بأية صيغة:

قال تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (سورة الزمر – ٦) .

ثانيا: أن اختلاف الأمم إرادة إلهية وهو من ناحية أخرى اختبار (ابتلاء) شأنه شأن كل الابتلاءات التي تمحص إيمان الإنسان:

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (سورة المائدة – ٤٨)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (سورة هود – ١١٨

) . وتحت سقف هذه السنة الكونية يصبح الاختلاف مساحة لإعمال الإرادة الحرة في الاختيار بين الهدى والضلال قال تعالى: **﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ**

يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (سورة النحل - ٩٣)، وإلى جانب الإرادة الحرة فإن هذا الاختلاف يهتدي فيه الناس برحمة من الله تيسر لهم الهداية: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (سورة الشورى - ٨).

ثالثا: أن الاختلاف في الدين سنة كونية وجزء من حال التعدد في الكون كله:

قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ" (سورة فاطر - ٢٨).

رابعا: أن التعدد الإنساني جاء بعد "وحدة"، وهو مرتكز مهم بني عليه مبدأ آخر مهم هو المساواة في الإنسانية، فكما أننا جميعا من نسل آدم، فإننا جميعا ننحدر من أمة واحدة تفرقت:

قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة البقرة - ٢١٣)، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (يونس - ١٩)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس - ٩٩).

خامسا: أكد القرآن في مواضع عديدة وحدة الأصل الإنساني من حيث المادة التي خلق منها وعملية الخلق والفطرة التي فطر الله عليها الناس:

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ (سورة العلق - ٢)، وقال عنه أيضا: ﴿ خُلِقَ

مِـنْ مَـاءٍ دَافِقٍ ﴾ (الطارق - ٦)، وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (الرحمن: ١٤)، يقـول رب العـزة مخبرا عن ذاته سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (سورة السجدة - ٧)، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِـنَ الْمَـاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ (سورة الفرقان - ٥٤)، "خَلَقَ الإنسان مِـنْ نُطْفَـةٍ" (النحل: ٤). وخاطب رب العزة البشر بنداء: "يا بني آدم" ٥ مرات في القرآن.

سادسـا: عـندما تحـدث القرآن عن الطبيعة النفسية للإنسان لم يفرق في السمات المشتركة بين أمة وأخرى ولا بين مؤمن وكافر:

قـال تعالى: ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ (سورة المعارج - ١٩)، وقال تعالى: ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الأنبياء - ٣٧).

سـابعا: لم يكن إخبار المؤمنين بهذه السنن الكونية في الاختلاف والتعدد مقصورا على مجـرد اتـساع "معرفتهم" فالقرآن كتاب هداية ومن ثم فإنه كما توجه للمؤمنين توجه إلى "الناس" مؤمنين وغير مؤمنين:

وغـير غير المؤمن دائما محل لهداية محتملة ما لم يقرر هو أن يقف في خندق العداء، وقد تكـرر نداء: "يا أيها الذين آمنوا" في القرآن ٨٩ مرة، ونداء: "يا أيها الناس" ٢٠ مرة، ونداء: "يا أهل الكتاب" ١٢ مرة.

قـال تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَـتَّقُونَ ﴾ (سـورة البقرة - ٢١)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّـباً وَلا تَتَّـبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (سـورة البقـرة - ١٦٨)، وقال تعـالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (سـورة النساء - ١)، وقال تعالى يصف مراحل خلق الإنسان

ومراحل حياته: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ (الحج - ٥).

ثامنا: أن العلاقة بين "الناس" في القرآن محكومة بقيود أخلاقية وحدود لا يجوز انتهاكها لأنها أوامر إلهية كرمت "الآخر" أيما تكريم عندما جعلت احترام إنسانيته واجبا شرعيا، بل جعلت العدل معه علامة من علامات التقوى:

فالأصل التعارف: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات - ١٣)، والسنة الكونية التدافع: قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (البقرة - ٢٥١)، وقال تعالى أيضا في سنة التدافع: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ (سورة الحج - ٤٠). وحتى التدافع لا يجيز ظلم هذا الآخر: ﴿ لا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (المائدة ٨)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء - ٥٨) فالعدل وأداء الأمانة حق للمؤمن وغير المؤمن وما سلمك الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة عندما أمر عليا بن أبي طالب رضي الله عنه بأن يرد أمانات كفار قريش لهم بعد أن يهاجر الرسول للمدينة إلا تطبيقا لهذا المبدأ الإيماني الإنساني السامي. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ

تَعْدِلُوا ﴾ (سورة النساء - ١٣٥) .

تاسعا: تأكيد حرمة الحياة الإنسانية على قاعة المساواة في الإنسانية:

قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ (المائدة - ٣٢) .

عاشرا: إقرار مبدأ أن الخير يجوز أن يتجاوز غير المؤمنين ليشمل أكثر فئات "الآخر" عداء:

قال تعالى في وصف الأبرار: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ (سورة الإنسان: ٨) ، فالأسير عدو كان في حالة حرب وصار أسيرا فمن البر أن نحسن إليه دون أن تتغير صفته كـ "عدو" .

وبناء على هذه المبادئ الإيمانية والقواعد التشريعية حدد الله للمؤمنين قواعد أكثر تفصيلا للعلاقة مع الآخر ، بل إن موقع الأمة الإسلامية في البشرية هي أن تكون في الوسط وما الوسط إلا بين "آخرين" فهي ليست "شعب الله المختار" بل أمة بين أمم آخرين فرطوا أو أفرطوا ، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة - ١٤٣) . وجعل الله الخلاف والاختلاف في الدين بين المؤمنين وبعض الملل موكولا إلا الله وحده ليفصل بينهم يوم القيامة: قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٦٢) ، وقال تعالى أيضا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة - ٦٩) ، وقال في سورة الحج: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة الحج - ١٧) ، هذا رغم أن القرآن قال بوضوح إن الحق بيّن في أمر الاختلاف بين المؤمنين وغيرهم من الملل سواء في

ذلك من كانوا من أهل الكتاب ممن حرفوا وبدلوا أو من كانت لديهم شبهة كتاب .

وبعد تحديد موقع الأمة تم تحديد درجات العلاقة مع "الآخر" الذي لم يوضع في درجة واحدة من حيث القرب والبعد والحب والكره ، قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (سورة المائدة - ٨٢) . وبعد تحديد "الأقرب مودة" و"الأشد عداوة" تأتي تفرقة لازمة بين فئات فيهما ، قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (سورة آل عمران - ١١٣) ، وقال تعالى أيضا: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة آل عمران - ٧٥)

ولأن الفصل في أمر الإيمان هو لله في الآخرة فإن مع "الآخر" الديني ارتبطت بالعدل والظلم ، قال تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨) ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الممتحنة: ٩) .

* * * * *

الفصل الثالث:

الإنسان بين النظرتين الدينية والمادية

لأن الإسلام يؤسس رؤيته للإنسان على قواعد مختلفة يحكمها التكامل فإنه يعرف الإنسان بنفسه كظاهرة ربانية فهو كائن مخلوق مكرم وهو مختلف تماما عن مفهوم "الإنسان الطبيعي"في الفكر التنويري الأوروبي فهذا "الإنسان الطبيعي" هو حسب الدكتور عبد الوهاب المسيري كائن "مادي" ، أي أنه الإنسان الذي يدور في إطار المرجعية الكامنة في المادة ، يعيش بالطبيعة/ المادة وعلى الطبيعة/ المادة . والإنسان الطبيعي/ المادي تعبير متبلور عن اختفاء النزعة الربانية .

فهو مكتف بذاته ، مرجعية ذاته ، ومعيارية ذاته ، لا توجد أية حدود أو سدود أو قيود عليه: اجتماعية أو تاريخية أو أخلاقية أو جمالية ، فهو سوبرمان حقيقي . إنسان يعيش في الزمان الطبيعي الحر وليس في الزمان التاريخي الإنساني الذي تتحكم فيه الشرائع السماوية أو القيم والأعراف . وهذا يعني أن الإنسان خاضع تماماً لقوانين الطبيعة تحركه أينما شاءت لا يمكنه الفكاك من حتمياتها ، ويمكن تفسيره في إطار مقولات طبيعية/ مادية: وظائفه البيولوجية (الهضم - التناسل - اللذة الحسية) ، ودوافعه الغريزية المادية (الرغبة في البقاء المادي - القوة والضعف - الرغبة في الثروة) ، والمثيرات العصبية المباشرة (بيئته المادية - غدده - جهازه العصبي) .

ويمكن تفسير قيم هذا الإنسان الطبيعي/ المادي ودوافعه ونشاطاته على أُسس طبيعية/ مادية . فما يحركه هو أخلاقيات طبيعية/ مادية برانية تستند إلى المنفعة والمصلحة والرغبة في البقاء الكامنة في المادة . وحسب هذا التصور المادي فإن الناس يتوهمون أن القيم من لدن الإله أو من إبداع الإنسان ، وهذا وهم . فمصدر القيم هو الطبيعة ، ومن ثم يمكن أن نصل إلى منظومات قيمية ومعرفية وجمالية (طبيعية/ مادية) يستطيع الإنسان أن يعيش بها وأن يحقق مصلحته وبقاءه المادي ولذته ، وبالتالي فإن المفهوم المادي للإنسان ينفي وجود "الإنسانية المشتركة" التي تعدد أهم أسس موقف الإنسان من الأخر حسب تصور الإسلام ،

ويرتب على ذلك أن النظرة المادية للإنسان لا يمكن أن تعترف بوجود أية معايير دينية أو أخلاقية أو حتى إنسانية .

وفي النظرة المادية للإنسان يكون مجرد نتاج لعوامل مادية تحيط به وكما يقول المفكر الإسلامي الدكتور علي عزت بيجوفيتش: "**لقد أوضح إنجلز أن الإنسان نتاج علاقات اجتماعية (أو بدقة أكثر) نتاج أدوات الإنتاج الموجودة، إنه مجرد نتاج حقائق [مادية معينة**" .

ولقد أخذ داروين هذا الإنسان اللاشخصي بين يديه ووصف تَقلُّبه خلال عملية الاختيار الطبيعي حتى أصبح إنساناً قادراً على الكلام وصناعة الأدوات وعلى أن يمشي منتصباً .

ثم يأتي علم البيولوجيا ليستكمل الصورة ، فيرينا أن كل شيء يرجع إلى أشكال الحياة البدائية التي هي بدورها عملية طبيعية كيميائية: لعب بالجزيئيات (أما الحياة والضمير والروح فلا وجود لها ، وبالتالي فليس هناك جوهر إنساني) .

وإنسان نيتشه ، نتاج عملية التطور هذه ، هو إنسان كامل اسماً ، فهو في جوهره حيوان كامل خاضع تماماً لقوانين التطور الطبيعية .

ويقول الدكتور المسيري نحن نضع في مقابل الإنسان الطبيعي "الإنسان الإنسان" ، وهو إنسان غير طبيعي/ مادي يحوي داخله عناصر (ربانية) متجاوزة لقوانين الحركة (التي تسري على الإنسان والحيوانات) ومتجاوزة للنظام الطبيعي/ المادي . وهذه العناصر هي التي تشكل جوهر الإنسان والسمة الإنسانية لإنسانيته وتفصله عن بقية الكائنات وتُميِّزه كإنسان . فالإنسان الإنسان (غير الطبيعي) ، هو الإنسان الحق ، ويعبر بيجوفيتش عن هذا البعد الإلهي في الإنسان قائلا عن ازدواجية طبيعته: "**جاء أحد جانبيها من الأرض (الطبيعة/المادة) وجاء الآخر من السماء**" . فالوظائف البيولوجية والنشاطات الطبيعية (مثل

الصيد وصنع الأدوات) هي التي جاءت من الأرض، أما النشاطات الأخرى (مثل الدين والفن) فليست من سمات الإنسان الطبيعي وإنما من سمات الإنسان الإنسان، وهو كائن مركب متعدد الأبعاد، قَلِق يسأل أسئلة كلية، يحمل عبء الهوية والمسئولية الخلقية.

ومن الصلة بين الإنسان والسماء جاءت القيم المطلقة (عقائد دينية - شرائع - قيم أخلاقية) التي تحكم علاقته بالله سبحانه وتعالى وبالكون وبغيره من البشر "الآخر". والمُطلَق" في المعجم الفلسفي "هو عكس النسبي" ويعني "التام" أو "الكامل" المتعرى عن كل قيد أو حصر أو استثناء أو شرط، والخالص من كل تعيُّن أو تحديد، الموجود في ذاته وبذاته، واجب الوجود المتجاوز للزمان والمكان حتى إن تجلى فيهما. والمطلق عادةً يتسم بالثبات والعالمية، فهو لا يرتبط بأرض معيَّنة ولا بشعب معيَّن ولا بظروف أو ملابسات معيَّنة.

وفي مجال المعرفة، تعبِّر المطلقية (مصدر صناعي من "المطلق") عن اللانسبية وهي القول بإمكان التوصل إلى الحقيقة واليقين المعرفي بسبب وجود حقائق مطلقة وراء مظاهر الطبيعة الزمنية المتغيِّرة المتجاوزة لها. والمطلقية في الأخلاق هي الذهاب إلى أن معايير القيم - أخلاقيةً كانت أم جماليةً - مطلقةٌ موضوعيةٌ خالدةٌ متجاوزةٌ للزمان والمكان، ومن ثم يمكن إصدار أحكام أخلاقية. أما في السياسة، فهي تعني سيادة الحاكم أو الدولة بغير قيد ولا شرط. والدولة المطلقة هي الدولة التي لا تُنسب أحكامها إلى غيرها فمصلحتها مطلقة وإرادتها مطلقة وسيادتها مطلقة، وفي تربة هذه الدولة المتألهة نشأت "جرثومة رفض الآخر".

وقد كانت "الدولة المطلقة" أحد أهم آليات علمنة النظرة للإنسان وقامت مع أدوات أخرى بعملية ضخمة لفصل الحياة الإنسانية كلها عن أصلها السماوي في متوالية بدأت بما يسمى: "شحوب الإله" وهو مصطلح صاغه الدكتور المسيري على غرار مصطلح نيتشه "موت الإله" ليصف إحدى مراحل ومستويات عملية العلمنة. وهي مرحلة يحل فيها الإله في الإنسان أو في الطبيعة أو في كليهما معاً ويوشك أن يتوحد بهما دون أن يفعل. ولكنه مع

هـذا يفقـد كـثيراً من تجاوزه وربما لا يبقى منه سوى الاسم بحلوله في الكون . كما يمكن أن يحـدث العكـس ، وهـو أن يخلـق الإلـه العـالم ثم ينسحب منه ويتركه وشأنه ، ويحتفظ الإله باسمه ولكنه يفقد فاعليته نتيجة ابتعاده عن الكون وانفصاله عنه . وسواء حل الإله في العالم أو انـسحب مـنه ، فإنـه يـتم تهميشه ، ومن ثم فإن الغرض والغاية في العالم يختفيان تقريباً . وبعـض المـنظومات العلمانـية الجزئية (الربوبية على سبيل المثال) تقف عند مرحلة شحوب الإلـه دون أن تَعبُـر الخط إلى مرحلة موت الإله . فالربوبية والماسونية والموحدانية كلها تعبِّر عن فكرة شحوب الإله .

وقـد أشـار نيتـشه إلى مـا سمـاه "ظـلال الإلـه" وهـو يـشير بذلك إلى بعض الأفكار الكلية والمطلقـة التي استمر وجودها حتى بعد ظهور الرؤية العلمية المادية وانتشارها . وقد طالب نيتشه بـضرورة تطهـير العـالم تمامـاً من ظلال الإله هذه . وفي مرحلة تالية ظهر تعبير "موت الإله" وهو مـصطلح يعـني أن القوة الخالقة للعالم المتجاوزة لـه قد اختفت وفَقَد الإله اسمه ، وعندئذ يُسمَّى المبدأ الواحد ، مصدر وحدة العالم وتماسكه ، "الطبيعة/ المادة" أو التنويعات المختلفة عليه .

ولو أردنا التعبير عن هذه الفكرة بالمصطلح الإسلامي لقلنا "نسيان الإله" وذلك انطلاقاً من الآية ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ (الحشر/ ١٩) . فإن نسى الإنسان الله وظن أنه غير موجـود ، نـسي نفـسه وجوهـره الإنـساني المـتجاوز ومركزيته في الطبيعة وما يُميِّزه كإنسان ونسي أنه إنسان إنسان ، إنسان غير طبيعي مُستخلَف من إله عليٍّ قدير .

وعـند هـذه الـنقطة تصبح "كل الأمور نسبية" وهي عبارة أساسية في الخطاب العلماني سـواء في الـشرق أو في الغرب ، لا يدرك كثيرون تضميناتها المعرفية والأخلاقية وتعني عدم وجـود مطلقات ثابتة أو متجاوزة للعالم الطبيعي المادي (فهي الحياة الدنيا ليس إلا) ومن ثم لا يمكن الوصول إلى أي يقين معرفي ، فالحقيقة نسبية . ومع غياب الحقيقة لا يمكن أن يكون هـناك حق ولا يمكن التوصل إلى أية قيم أخلاقية فكل القيم الأخلاقية نسبية ، وهذا يعني في

واقع الأمر غياب المعيارية واختفاء أية إنسانية مشتركة ومن ثم سقوط مفهوم الإنسانية نفسه، إذ كيف يمكن أن يكون هناك مفهوم للإنسان دون أية معيارية معرفية أو أخلاقية؟ وكل هذا يعني نزع القداسة عن الأشياء كافة.

و"نَزْع القداسة عن العالم" يعني نزع القداسة عن الظواهر كافة (الإنسان والطبيعة) بحيث تصبح لا حرمة لها ويُنظَر لها نظرة طبيعية/مادية صرفة لا علاقة لها بما وراء الطبيعة. أي أن نزع القداسة عن العالم نتيجة حتمية للإيمان بفعالية القانون الطبيعي في مجالات الحياة كافة (الطبيعية والإنسانية، العامة والخاصة). وإذا ما تم ذلك، فإن العالم (الإنسان والطبيعة) يمكن أن يصبح مادة استعمالية يمكن توظيفها والتحكم فيها وترشيدها وتسويتها، وهو أمر يستحيل إنجازه إن كانت هناك قداسة في المادة وإن كانت هناك حرمات تضع حدوداً على سلوك الإنسان وعلى حريته. ومن ثم لا توجد قداسة أو حرمات أو مرجعيات أخلاقية، فلا حدود لعملية الاستباحة، وكما قال أحد الباحثين فإن هذا يعني في واقع الأمر عدم وجود أي فارق أساسي بين مجموعة من الشبان الذين يختطفون فتاة ويغتصبونها ثم يقتلونها وقطيع من الذئاب تهاجم ظبياً وتلتهمه، فكلاهما تدفعه غريزة طبيعية مادية قوية!

وتكتمل المأساة عندما يتم إدخال البشرية كلها الجحيم الدارويني الذي يخوض فيه الإنسان "حرب الكل ضد الكل" والداروينية الاجتماعية (وهي كلمة منسوبة إلى اسم تشارلز داروين (١٧٣١ - ١٨٢٠) فلسفة علمانية شاملة، تنكر أية مرجعية غير مادية، وتستبعد الخالق من المنظومة المعرفية والأخلاقية والآلية الكبرى للحركة في الداروينية هي الصراع والتَقدُّم اللانهائي. ويمكن القول بأن الداروينية هي النموذج المعرفي الكامن وراء معظم الفلسفات العلمانية الشاملة، إن لم يكن كلها.

ويرى دعاة الداروينية الاجتماعية أن القوانين التي تسري على عالم الطبيعة والغابة هي نفسها التي تسري على الظواهر الإنسانية، التاريخية والاجتماعية. ويذهبون إلى أن فرضية

داروين نظرية وحقيقة علمية ، ثم نقلوا هذه الفرضية من عالم الطبيعة إلى عالم الإنسان ، وقرروا أن العلاقة بين الكائنات الحية في الطبيعة لا تختلف عن العلاقات بين الأفراد داخل المجتمعات الإنسانية ، ولا عن العلاقات بين المجتمعات والدول . وعلى هذا ، تم استخدام النموذج الدارويني لا لتفسير الطبيعة/ المادة وحسب وإنما لتفسير حياة الإنسان الفرد في المجتمعات ، وفي تفسير العلاقات بين الدول والمجتمعات على المستوى الدولي . وقد ساهمت الداروينية أيضاً في تزويد النظريات العرْقية الغربية والتجارب الخاصة بتحسين الأجناس والنسل والقتل الرحيم على أساس علمي .

والفكر العرْقي الغربي هو فكر تطوري إذ يرى أن الإنسان الأبيض هو آخر حلقات التطور وأعلاها ، ولذا فله حقوق معينة . وقد تبلور الفكر التطوري العرْقي في الأيديولوجيا النازية التي تبنت تماماً فكرة وحدة العلوم وَطبَّقت القوانين الطبيعية بصرامة على الكافة ، وحاولت الاستفادة من قوانين التطور من خلال قواعد الصحة النازية (إبادة المعوقين والمتخلفين عقلياً وأعضاء الأجناس الأخرى) ومن خلال محاولات تحسين النسل عن طريق التخطيط وعقد زيجات أو تنظيم علاقات إخصاب تؤدي إلى إنجاب أطفال آريين أصحاء .

وهكذا أدى التلاعب الإبليسي بالعلاقة بين الاسم والمسمى "الشجرة المحرمة" "شجرة الخلد" وهو ما اتبعه الفكر المادي الحديث عندما أعاد تعريف الإنسان تعريفا فصله عن أصله الإلهي إلى جحيم استبيح فيه "الآخر" بعد نزعه من سياقه الإنساني ، فعندما أصبحت النظرة إليه عرقية تربط الفضل بالمادة التي خلق منها كانت إعادة إنتاج للمنطق الأبليسي الذي فصل آدم عليه السلام عن مبرر تكريمه وهو أن الله سواه ونفخ فيه من روحه فعندئذ قام إبليس فإعادة تعريف ومن ثم تصنيف "الذات" و"الآخر" وفقا لدرجة رقي مزعوم للمادة التي خلق منها: النار والطين .

* * * * *

الفصل الرابع:

معالم ثقافة قبول الآخر في مجتمع المدينة

كان تأسيس دولة المدينة إعلانا عن قبول الآخر بشكل عملي في صلب التطبيق النبوي لرؤية الإسلام للعلاقة مع الآخر وأول ما يستوقفنا في هذا التأسيس أن الرسول لم يجعل اليهود موضعه استبعاد مبدئي من عملية التأسيس بل قبل أن يكونوا عنصرا مؤسسا في دولته وهو ما يعني أن الأصل الشرعي في العلاقة معهم هو القبول ، ودارت العلاقة بينه وبينهم بعد ذلك ولسنوات على قاعدة "التعاقد" ومدى التزامهم به ، فلم يكونوا عدوا لمجرد المخالفة في الدين . وفي هذا السياق كانت "وثيقة المدينة المنورة" وثيقة تأسيس مجتمع متعدد الثقافات والأديان .

وتبدأ هذه الوثيقة بالقول: **"هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله]، بين المؤمنين والمسلمين من قريش و[أهل] يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم"** ، وفي مواجهة المنطق الحدي الثنائي العدواني الذي استخدمه إبليس في المواجهة آدم: "خلقته" ، و"خلقتني" ، نجد دوائر متراكبة من القرب والبعد تأسست على القاعدة القرآنية سالفة الذكر "الأقرب مودة" والأشد عداوة" فهؤلاء الذين تشملهم الوثيقة **"أمة واحدة من دون الناس"** . وفي بيئة علمتها الجاهلية أن تجعل رابطة الولاء القبلي فوق كل اعتبار تؤسس الوثيقة للمشروعية الأخلاقية للفعل ليصبح الكل آمنا من تواطؤ كل جماعة ضد غيرها بل يصبح ردع الباغي مسؤولية أهله وعشيرته **"وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] مَن بغى منهم، أو ابتغى دَسيعةَ (كبيرة) ظلمٍ، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولدَ أحدهم"** . وهذه أول عملية تفكيك شاملة لروابط الولاء لتصبح حدودها حدود الشرع لا حدود الدم والولاء القبلي .

ولم تستثنهم الوثيقة من أقصى درجات التضامن وهو النصرة العسكرية: **"وأنّه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النصرَ والأسوةَ غير مظلومين ولا مُتناصرين عليهم"** ،

غير أن الانفتاح على الآخر الديني يصل قمته في النص على **"أنّ يهود بني عوف أُمّة مع المؤمنين، لليهود دِينهم وللمسلمين دِينهم، مَواليهم وأنفسهم إلا من ظلَم وأثِم"** فالفريقان أمة واحدة والمعيار هو العدل، وقد ألحقت بهم الوثيقة جماعات عديدة من اليهود: يهود بني النّجّار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جُشَم ويهود بني الأوس يهود بني ثَعلَبة. ولم يقصر الأمر على الولاء العام بل شملت العلاقة النصرة في الحرب والنصح: **"وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على مَن حاربَ أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم"**.

ولا نبالغ إن قلنا إن الوثيقة مثال لتعايش المجموعات الإنسانية المختلفة التي تعيش معاً ففيها اعتراف بالآخر واستخراج الأسس المشتركة الموجودة بينهم على قدر الإمكان والتي تشكّل أرضية قانونية تساعدهم على العيش معاً بأمن وسلام. ومن زاوية النظرة القرآنية فإن البشر خُلقوا بخصائص غنية ومختلفة، وإن من الخطأ اتخاذ هذا الاختلاف سبباً للصراع وللخصام؛ فمثل هذا الخطأ سيؤدّي إلى الإخلال بالأمن وبالسلام، ويُلحق ضرراً كبيراً بالإنسانية، وينسف جميع جسور التفاهم. وهناك طريقان لتعايش الناس معاً؛ أحدهما استعمال القوة والبطش، والثاني قيام الأناس الأحرار بالوصول إلى التفاهم فيما بينهم وإرساء هذا التفاهم بعقد قانوني معيَّن، وتعيين أسلوب التصرف والتعامل وحقوق كل إنسان ومسؤولياته. ولم توضع الدساتير والقوانين والعهود والمواثيق الإنسانية إلاّ لتأمين هذا الأمر. ولا شك أنه لولا وجود متونٍ ونصوص المعاهدات والمواثيق لَما تحقق أي سلام اجتماعي ولا أي وحدة سياسية.

ويمكن القول بأن الإسلام يملك في هذا الموضوع تراثاً غنيّاً. فقد قام التاريخ الإسلامي

والتجربة التاريخية للإسلام بشكل عام على قبول الخصوصيات المتنوعة لكافة المجموعات المختلفة دينية كانت أم قومية أم ثقافية أم لغوية . وقد وَجدت أديان ومذاهب وثقافات عديدة وأقوام عديدون إمكانيةَ العيش بأمان في ظل الإسلام .

ولعل من المفارقات اللطيفة أن كان المستشرق الألماني ولهاوسن أول من عرّف هذه الوثيقة وقدمها للأوساط العلمية في العصر الحديث وقد كان أول من سجلها محمد بن إسحاق (توفي ١٥١ هـ) ؛ وتشير كتب الحديث إلى أن الفقرات التي تتناول العلاقات فيما بين المسلمين كتبت في بيت أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ أما الفقرات التي تنظم علاقات المسلمين مع المشركين واليهود فكتبت في بيت يهودية من بني قريظة هي بنت الحارث .

ويقول ولهاوسن إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نجَح في إرساء وحدة سياسية عجيبة في ذلك الجو المضطرب في المدينة بين هذه القبائل التي كانت في حاجة ماسّة إلى وَحدة سياسية . يقول المستشرق الروماني جيورجيو: "**حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بندا، كلها من رأي رسول الله. خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دُون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء**" .

وكانت هذه الوحدة السياسية أمراً جديداً وغريباً لم يألَفه العرب . وتيقن الباحثون بأن الفروق بين مكة والمدينة من ناحية البيئة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ساعدت على تجذر المسلمين في المدينة وعلى قيام وحدة سياسية جديدة هناك . ويرى الأستاذ محمد حميد الله بأنه إلى جانب كون هذه الوثيقة دستور الدولة الإسلامية الأولى ، فإنها كانت في الوقت

نفسه أول دستور مكتوب في العالم آنذاك.

والملفت أيضا بجانب هذا اشتراك العرب المشركين في هذه الوثيقة باعتبارهم - حسب العادات والأعراف العربية - من «المَوَالِي». فحسب هذه الأعراف إن دخلت قبيلة أو عشيرة أو جماعة في معاهدة فإن حلفاءها السابقين (أي مَوالِيها) يكونون طرفاً غير مباشر في تلك المعاهدة. ونحن نعلم من سورة "براءة" أن المشركين العرب بقوا مدة طويلة يعيشون في المدينة. وكانت سورة «براءة» إنذاراً بقطع جميع العلاقات السياسية وإنذاراً بالحرب. ومع ذلك فإن المشركين العرب المعاهَدين كانوا مُستثنَين من الحرب لا يمسهم أحد بسوء ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤). وقد قامت الوثيقة بتأمين وضمان هذه حقوقهم وحرياتهم على أساس من القانون ونحن نعلم بأن مشركي المدينة - وهم طرف في وثيقة المدينة - استمروا في العيش في المدينة حتى بعد معركتَي بدر وأُحد اللتَين جرَتا مع مشركي مكة، ولم يحدث أيّ مشاكل بينهم وبين المسلمين.

لقد كانت هذه الوثيقة حسب وصف الباحث التركي علي بولاج عالمية وموضوعية وفَوق الطوائف الاجتماعية، أي لم يكن بوسع المسلمين واليهود والمشركين الخروج خارج نطاقها العام. كان هذا وحده انقلاباً وثورة كبيرة ففي هذه البنية القانونية الجديدة التي لا تتم فيها حماية المجرم من أي طائفة أو جماعة تتجلى العدالة وتسود الطمأنينة وتظهر وتُصبح مسؤولية اجتماعية مشتركة بين جميع الأطراف ويعني هذا أن الجرائم والعقوبات أصبحت فردية، وانمحى مفهوم الجرائم والعقوبات الجماعية.

الذميون أو أهل الذمة في الإسلام:

وفي دولة المدينة ولد مفهوم "الذميون" أو "أهل الذمة" وهم من يجوز عقد الذمة معهم، وهم أهل الكتاب، ومن سن بهم الشرع سنة أهل الكتاب مثل المجوس. و"الذمة" في اللغة: "العهد والأمان والضمان"، ولذا يُقال لأهل الذمة "أهل العهد". والمصطلح يعني أن أهل الذمة "في ذمة الله ورسوله وليسوا في ذمة أحد من الناس". واللفظ اصطلاحاً ظهر مع استخدام الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة منها الحديث الشريف: "من آذى ذمياً فأنا خصمه"، وقوله (صلى الله عليه وسلم) في خطبة الوداع: "أوصيكم بأهل ذمتي خيراً". ومن خلال هذه الصيغة دخل تعبير "أهل الذمة" قاموس التخاطب مع غير المسلمين سواء في الممارسات أو في كتب الفقه. والفقه الإسلامي يضع "الذميّ" مقابل "المسلم" من جهة، ومقابل "المشرك" من جهة. كما يوضع "الذمي" مقابل "الحربي"، وهو "الكتابي الذي يعيش في دار الحرب"، ومقابل "المُستأْمَن"، وهو "الكتابي الذي يأتي لدار الإسلام للاتجار أو الزيارة فيُعطَى الأمان ويُصرَّح له بالعيش لمدة محددة". وأصبح تعريف عقد الذمة (المستقر في كتب الفقه المختلفة) أنه عقد يصير غير المسلم بمقتضاه في ذمة المسلمين، أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأبيد، وله الإقامة في دار الإسلام على وجه الدوام.

وأهم سمات عقد الذمة أنه تعاقد قانوني بين طرفين، وليس حالة قانونية دائمة، وهو تعاقد يستند إلى ظروف محدَّدة ومن ثم يزول بزوالها. وفكرة العقد هنا هي إسهام أساسيّ للدين الإسلامي في التعامل مع قضية الأقليات، إذ أن العلاقة مع غير المسلمين لم تُؤسَّس على أساس تسامح المسلمين أو عطفهم وحسب، وإنما أُسِّست على مقولات قانونية واضحة تتجاوز الأهواء، محمودة

كانت أم مذمومة (على عكس الفقه المسيحي الغربي الذي لم يطرح قط أية بنية قانونية خاصة بالأقليات وترك الأمر برمته للتسامح المسيحي).

هذا التعاقد لا يتم في فراغ وإنما في إطار النموذج المعرفي الإسلامي **ومن منطلقاته الأساسية التي يمكن أن نوجز بعضها فيما يلي:**

١ - التعددية: حيث يعترف الإسلام بالتعددية وحتميتها، وينطلق منها. بل إن جميع الفقهاء يعتبرون الاختلاف والتعددية سُنّة إلهية تركت بصمتها على جميع الخلق. والإسلام لا يجعل مجرد المخالفة في الدين سبباً يحمل على التقاطع بالتفرقة وسلب الحريات والإخراج من الديار، وإنما جعل العداء سبباً مانعاً من موالاة العدو والامتزاج به والاعتماد عليه (كما يذهب ابن كثير والقرطبي وغيرهم في تفسير سورة الممتحنة).

٢ - العدل: وهو في المجتمع المسلم يقوم وفقاً لجملة من الثوابت منها رفع قيمة الإنسان، والاستخلاف، والمساواة، وتحريم الله الظلم على نفسه وتحريمه بين الخلق. والعدل في الإسلام قيمة مطلقة وليست نسبية، فهي واجبة الالتزام في كل الظروف، وهي في مواجهة الأعداء، كما هي مع الأهل والحلفاء. ولذا كتب عمر بن الخطاب إلى أحد عماله يقول: **"وأما العدل فلا رخصة فيه من قريب ولا بعيد، ولا في شدة ولا رخاء، والعدل وإن رئي ليناً، فهو أقوى، وأطفأ للجور، وأقمع للباطل من الجور"**.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

خاتمة

-١

الـويل لـذلك المجتمع المتشظي بالطوائـف والمحتقن بالأحقاد التاريخية. فالتاريخ ينقل فظاعـات مـرعبة في اخـتلاف المـذاهب واقتـتال الطوائـف، ففي فرنسا عاشت حمى المذابح الطائفـية بين الكاثوليك والهوجنوت المنشقين بين عامي ١٥٦٢ - ١٥٩٤، وغرقت ألمانيا في الـدم في حـروب الـثلاثين سنة بين عامي ١٦١٨ - ١٦٤٨، وفي بريطانيا استعرت الحروب الأهلـية الدينـية بـين عامـي ١٦٤٢ - ١٦٤٨. إن في ذلـك لآيات للمتوسمين. أما (حكم الـدم) في عهـد (كاتـرين ميدتـشي) فقـد جرى الاحتفال به في الساعة الثالثة من صباح ٢٤ أغـسطس في بـاريس مـن عـام ١٥٧٢ بمناسبة عيد القديس (بارتولوميو) حيث أعطى الملك (شـارل) أوامـره على الشكل التالي: "يجب أن تقتلوا جميع الهوجنوت في فرنسا حتى لا يبقى مـنهم أحد يلومني... اقتلوهم جميعاً! اقتلوهم جميعاً! " وبـدأ قرع الأجراس بعد ان وسمت بيوت الهوجنوت بعلامات.

وابـتدأ الـذبح بعد أن أغلقت أبواب باريس عليهم. يقول ديورانت: "وتلت مذبحة ندر ان عـرفتها المدن حتى في جنون الحرب" وجـر الهوجنوت وابناؤهم الى الشوارع وذبحوا من الـوريد للـوريد وانتـزعت الأجنة من بطون امهاتهم القتيلات وهشموا. "وأغرق غيرهم في الـسين". "وما لبثت الجثث أن تناثرت على أرصفة الشوارع واخذ الصبية يلعبون فوقها، ودخـل حـرس الملك السويسريون وراحوا يذبحون في غير تمييز للذة الذبح الخالصة. ذكر الـسفير الاسباني في تقريره: انهم يقتلونهم جميعاً وانا اكتب هذا.. انهم يعرونهم.. ولا يعفون أحدا حتى الأطفال».

وحـدث في يوم الخامس والعشرين من الشهر بعد أن هدأت المذبحة قليلاً ان "شجيرات الـشوك البري أزهرت في غير أوانها في مقبرة الأطفال، فهلل الكهنة للأمر وحسبوه معجزة وقرعت اجراس الكنائس في باريس احتفالاً به، وظنت الجماهير ان هذا القرع هو دعوة الى

تجديد المذبحة فاستؤنف القتل من جديد" وانـتقلت عـدوى الذبح من باريس الى بقية الاقاليم فارتكـبت مذابح جنونية في ليون وديجون وأورليان وتور وتروا وروان وتولوز وشجع الملك علـى الإبـادة وأرسلت أوامر شفوية لحكام الأقاليم "أن اقتلوا جميع زعماء الهوجنوت . وأما صـدى هـذه المذبحة فقد أضحكت الملك الاسباني (فيليب الثاني) على غير عادته بعد طول عبوس وتجهم لسنوات حينما سمع النبأ .

وأما ممثل الكرسي البابوي في باريس فقد هنأ البابا بقولـه: "أهنئ قداسة البابا من أعماق قلـبي علـى أن الله جل جلاله شاء ان يوجه شؤون المملكة توجيهاً غاية في التوفيق والنبل، حـتى يستأصل شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة وفي اللحظة المناسبة" وحـين زف الخبر الى الفاتـيكان "أضيئت روما وأطلقت المدفعية من قلعة سان انجلوا وقرعت الاجراس في ابتهاج وحضر جريجوري الثالث عشر وكرادلته قداساً مهيباً لشكر الله على «هذا الرضا الرائع الذي ابداه الله للشعب المسيحي" والـذي أنقذ فرنسا والكرسي البابوي من خطر عظيم . وتيمناً بهذا الـيوم التاريخـي فقـد أمر البابا "بضرب ميدالية خاصة تذكاراً بهزيمة الهوجنوت ومذابحهم" . أما حـرب الـثلاثين عامـاً فكانـت أشـد هـولاً وأعظـم نكراً وامتدت من عام ١٦١٨ - ١٦٤٨ . ويصفها (ديورانت) هكذا: "تناقص عدد سكان ألمانيا بسرعة أثناء الحرب. وتقول التقديرات المعـتدلة بأن عدد سكان ألمانيا والنمسا هبط من (٢١) إلى (١٥) مليوناً وبين (٣٥) ألف قرية في (بوهيميا) هناك نحو (٢٩) ألف قرية هجرها أهلوها أثناء الصراع. وهناك في مختلف أنحاء الإمبراطورية مئات من القرى لم يبق فيها ساكن واحد، وقد يقطع المرء في بعض الأقاليم ستين ميلاً دون أن يرى قرية أو بيتاً، وتنافس الرجال والنساء مع الغربان والكلاب على لحم الخيول الميتة، وفي الإلزاس انتزع المعتدون المشنوقين من المشنقة تلهفاً على التهام جثثهم، وفي أرض الـراين كانـت القـبور تنـبش وتـباع الجثث لتؤكل، واعترفت امرأة في مدينة (الـساربروكن - Saarbruecken) بأنها أكلت طفلها، وأصبحت المدن الكبرى اطلالاً خـربة، وبـات كرام الناس يتسولون أو يسرقون ويسلبون من اجل لقمة العيش، وأصبح

الهواء ساماً بسبب الفضلات والنفايات والجثث المتعفنة في الشوارع، وانتشرت الأوبئة مثل التيفوس والدوسنطاريا والتيفود والاسقربوط بين السكان المذعورين، ومرت القوات الاسبانية بمدينة ميونيخ فتركت وراءها طاعوناً أودى بحياة عشرة آلاف ضحية في أربعة أشهر، وذوت وذبلت في أتون الحرب الفنون والآداب التي كانت تضفي على المدن شرفاً ومجداً، وانهارت الأخلاق والروح المعنوية على حد سواء، واختفت كل المثل الدينية والوطنية بعد جيل ساده العنف".

-٢

إن سؤال الهوية قديم قِدَم تمايز الأشخاص والأقوام ولا يكاد يختلف اثنان على وجود هذا التمايز ورسوخه ولا على أهمية التمسك بهوية على الصُّعد الشخصية والوطنية والقومية، لكن السؤال الذي يقدَّم الآن على أنه سؤال معضل هو: هل الهوية ومكوناتها تنتمي إلى ما هو جوهري ثابت ونهائي تام بشكل مطلق أم أنها مما يشمله التغيير والتعديل تأثراً وتأثيراً بالغير ومعطيات المحيط وتمشياً مع التطور الذي يشمل البيئة والمفاهيم والمنتجات والعلاقات ومن ثم الأشخاص والأقوام والأمم والأوطان والدول في عالم غدت سمته الأولى الانفتاح والتواصل والتفاعل؟!

والإجابة على هذا السؤال تستدعي البحث والتدقيق في المقومات الرئيسة للهوية ومن ثم التعرف ما إذا كانت هذه المقومات تتعرض للتبدل والتغيّر، ولا نقول التحوُّل والتلون، أم أنها ثابتة شأن الجواهر في المعادن تصدق فيها أوصاف التحجر كما يحلو للبعض أن يقول، أم أنها مشمولة بقانون التطور والنمو، شأنها في ذلك شأن كل حي متفاعل في أثناء الحياة مع معطيات الحياة والتطور، وهي تنمو مع المحافظة على السمات الأساس للجوهر الذي تتكون منه وتتأسس عليه معطيات هويته ومقومات الشخصية؟.

والهوية حسب الجرجاني "هي الوجود المحض الصريح المستوعب لكل كمال وجودي

وشعوري"، وحسب الموسوعة الفلسفية العربية فإن الهوية: "ما به الشيء هو هو بوصفه وجوداً منفرداً متميزاً عن غيره) . وبناء على هذا فإن لكل إنسان فرد هوية يعرف بها وله منها وبها: اسم وقوام وصفات خاصة وسمات فارقة ، ويتمايز عن سواه في نتيجة وخلاصة تكوين الكيانات الثلاثة الرئيسة التي تكون الشخصية: الكيان الجسمي بتحديداته ، الكيان الاجتماعي بمعطياته المادية والمعنوية ، والكيان النفسي - الروحي الذي يتكون بالدرجة الأولى من تفاعل الكيانين الأول والثاني بعمق في بوتقة: الطبيعة والبيئة والناس والمعطيات الشعبية والمعرفية والعلمية والدينية ويكتسب خصوصيته الفكرية والإبداعية والمهنية والاجتماعية وكذلك الأبعاد المكملة لها أو المستمدة منها في أثناء (عملية التواصل والتفاعل) العميقة المستمرة التي قد تكون تجربة خلاقة شديدة التمايز والحضور والتأثير أو تكون خاملة بدرجة ملحوظة لا تظهر آثارها إلا في النمو الجسمي والتطور العقلي - المعرفي - المهني المحدود بدرجات متفاوتة ولكنها أدنى من تلك التي تحدث انقلاباً نوعياً في التكوين يذهب بعيداً في المدى السلبي أو الإيجابي . وفي الأحوال جميعاً تتكون في هذا المسار المتنامي شخصية الفرد وتتضح وتتعزز مقوماتها وقيمها ومعاييرها وخصوصيتها .

وإذا أخذنا حال الهوية ومن ثم الشخصية المتمايزة في المجال الفردي مقياساً نقيس عليه الجمعي المتصل بجماعات وشعوب وقبائل وأقوام ، ومن ثم بأوطان وأمم وجدنا أن لكل هوية وشخصية وخصوصية يقيمها الوعي المعرفي بالذات وبالآخر وبما للذات والآخر من حضور وثقافة وحضارة وحقوق وواجبات ترتب عليه التزامات قومية ووطنية وإنسانية ، **وتحدد معالم تلك الشخصية بالدرجة الأولى:**

١ - اللغة بما حملت من خصائص بوصفها حاملاً للمعرفة ولأهم أدواتها له خصوصية انتماء بشري منحته نمطاً أو صيغاً أو ومن حمولة معرفية وخلقية وسلوكية تأتت من تراكم عناصر وخصوصيات جزئية وتفصيلية متنوعة وضخمة تكثفت عبر الزمن ، ولا سيما في

مراحل التكوّن الأولى المديدة للأمم والثقافات والحضارات التي كان فيها التواصل والتفاعل بين الشعوب محدوداً نظراً لتدني وسائل الاتصال وسبل التواصل والتفاعل، وبما حملته أيضاً من معارف وخصوصيات ودلالات، بوصفها أداة تفكير وتعبير وتواصل وموطن ذاكرة حية من جهة ومستودعاً حيوياً للمعرفة والأصالة والذوق والخبرة من جهة أخرى.

٢ - العقيدة (الدين) بما تكرسه من منظومات قيمٍ، ومعايير حكْمٍ، ومرجعيات احتكام، وأحكامٍ، وحِكَم؛ وبما تقدمه من تفسير ورؤية للعلاقة بين الخالق والمخلوق من جهة، وبين المخلوق والمخلوق والكائنات الأخرى والطبيعة والكون من جهةٍ أخرى، وما ترمي إلى تحقيقه من علاقات وصلات ومعايير، وما ترسّخه في النفس وفي واقع الحياة من قيم ومقومات وقواعد وأصول تستند إليها أسس السلوك والعمل والتعامل بين الناس.

٣ - العادات والتقاليد والأعراف، والسمات الخاصة والمشتركة التي تتكوَّن من جرَّاء تفاعل عوامل ومكوِّنات في قرون عديدة، وتقدم تاريخاً وخلاصة توحّدٍ بشريٍ لفئات من الناس عبر الزمن مع طبيعة وبيئة في مجتمع، ضمن معطيات تُنتج خصوصيات ومميزات وملامح وأساليب معينة في الحياة.

-٣-

قبل نهاية العام ٢٠٠٤ نشرت وول ستريت جورنال نتائج أول استطلاع عالمي للإيمان والإلحاد، ورغم أن الاستطلاع كشف عن حقائق شديدة الأهمية لفهم الدور المتنامي الذي يلعبه الدين في الساسة الدولية إلا أن مجرد إجرائه يظل تحولا تاريخيا جديرا بالتوقف عنده، فمنذ الثورة الفرنسية والقسم الأكبر من النخب السياسية والثقافية في العالم يعتبر الفصل بين الدين والسياسة حقيقة من الحقائق المستقرة التي لم تعد تقبل الجدل.

"أوربا الكافرة" وصف قاس أطلقه اليمين الدين الأمريكي على حال الدين في الواقع السياسي والثقافي الأوروبي، وهو وصف يلخص المسافة الفاصلة - التي ما زالت تتسع

باطراد - بين نموذجين سياسيين بدا لعقود طويلة أنهما متماثلان . الاستطلاع الذي نشرت الجريدة نتائجه في طبعتها الأوروبية أجرته مؤسسة "جي . أف . كا . " وترافق نشره مع عيد الميلاد وسبق افتتاح مفاوضات انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي . وقد أجري الاستطلاع في ٢١ دولة في أوروبا الغربية والشرقية - عدا فرنسا - بالإضافة إلى تركيا وروسيا والولايات المتحدة وهو الأول من نوعه .

ومن بين النتائج التي كشف عنها أن ٢٥ % من مواطني أوروبا الغربية يعلنون أنهم لا يؤمنون بالله ويصفون أنفسهم بأنهم "ملحدون" وهي النسبة الأعلى في العالم مقارنة مع:

١٥ % من الملحدين في روسيا .

١٢ % في أوروبا الشرقية .

٨ % في الولايات المتحدة .

١ % في تركيا .

وتأتي الجمهورية التشيكية في طليعة البلدان الملحدة (٤٩%) لتذكرنا بتحذير رئيسها السابق المفكر المعروف فاكسلاف هافل "إن الحضارة الأوروبية هي أول حضارة في التاريخ الإنساني تقوم على الإلحاد" . وتأتي بعد تشيكيا هولندا (٤١%) ثم الدانمارك (٣٧%) ثم بلجيكا (٣٦%) ثم السويد (٣٠%) .

ونتوقف عند ألمانيا التي يشير الاستطلاع إلى أن نسبة الملحدين بين سكانها تبلغ (٣٧%) ، فرغم أن هذا الاستطلاع الشامل العابر لحدود الدولة هو الأول من نوعه فإن ظاهرة الإلحاد شغلت المجتمع الألماني قبل سنوات ، وتشير إحصاءات سابقة أجريت في تسعينات القرن الماضي إلى أن ٤٧% من الألمان يعتبرون أنفسهم لا دينيين و٩% يعتبرون أنفسهم ملحدين وترتفع النسبة في ألمانيا الشرقية إلى ١٨% . ومن الواضح أن درجة من

التداخل بين حدود المصطلحين تؤدي لتناقض ظاهر وإن بقيت العبرة الواضحة أن حالة من قلة الاكتراث بالدين متفشية وتظهر في أشكال متفاوتة ويتم التعبير عنها بمصطلحات متقاربة . والأكثر مدعاة للدهشة في هذه الإحصاءات أن من يعتبرون أنفسهم مؤمنين يذهب ٩% منهم فقط قداس الأحد ، كما أن ٣١% ممن اعتبروا أنفسهم بروتستنت لا يؤمنون بالإله الذي تدعو الكنيسة للإيمان به بل يؤمنون بـ "قوة عليا"!!!

وفي مقال عنوانه "وداع الله" عن الوضع الديني في ألمانيا نشرته دير شبيجل (١٥ يونيو ١٩٩٢) وصفت ألمانيا بأنها تحولت إلى "بلد كافر"!

في المقابل تأتي في طليعة المجتمعات "المؤمنة" الدول التي يختلط فيها الدين بهويتها القومية ، ففي التشكيل الحضاري الأرثوذكسي توجد النسبة الأعلى في رومانيا حيث يعتبر ٩٦% من السكان أنفسهم مؤمنين ثم اليونان وتبلغ النسبة فيها ٩٢% . أما في التشكيل الحضاري الكاثوليكي فتبلغ نسبة من يعتبرون أنفسهم مؤمنين ٩٠% في بولونيا و٨٦% في إيطاليا . أما في تركيا فإن ٩٥% من الأتراك يعتبرون أنفسهم مسلمين بينهم ٧٢% يمارسون الشعائر ، وعلى خلفية مفاوضات انضمامها للاتحاد الأوروبي فإن مقارنة هذا الرقم بالمتوسط العام في أوروبا يشير إلى فارق ضخم فنسبة من يعتبرون أنفسهم مؤمنين في القارة يبلغ ٦٨% مقابل ٨٠% في أوروبا الشرقية أما من يمارسون الطقوس فتبلغ نسبتهم ٢٤% مقابل ٣٧% في أوروبا الشرقية . وتبلغ نسبة المؤمنين في روسيا ٦٥% بينما من يمارسون الشعائر لا تتجاوز نسبتهم ٤% .

وفي منتصف المسافة بين النقيضين الأوروبي والتركي تأتي الولايات المتحدة حيث تبلغ نسبة من يعتبرون أنفسهم مؤمنين ٧٥% وتبلغ نسبة من يمارسون الشعائر ٤٣% ، وحسب إحصاء سبق الاستطلاع المشار إليه فإن ٨٦ % من الأمريكيين يعتقدون في الآخرة والله .

وبطبيعة الحال تحتاج هذه الأرقام إلى إخضاعها لعملية تحليلية لقراءة دلالاتها المختلفة

ولاستكشاف الكيفية والآليات التي يتطور بها الموقف من الدين في التشكيلات الحضارية المختلفة والثقافات المختلفة وكذلك درجة الاهتمام بالممارسة الدينية في مختلف المجتمعات، فمن المؤكد أن عوامل عديدة كالثقافة والانتماء المذهبي والبنية السياسية للدولة و . . . . تتدخل في تحديد مثل هذه المواقف.

٤-

على غرار "الكساد الكبير" الذي شهده الاقتصاد العالمي قبل الحرب العالمية الثانية تشهد الولايات المتحدة ما يمكن أن نسميه "التفاؤل الكبير"، فالأمريكيون يتكلمون بلغة ملؤها الثقة عن قدرة نموذجهم السياسي على حل مشكلات العالم وفي مقدمتها حالة الاحتقان السياسي المزمن التي يعانيها العالم العربي، بل إن بعض الأكاديميين يبلغ تفاؤله حد التبشير بأن يؤدي استيعاب الحركات الإسلامية سياسيا في العالم العربي إلى انهيار العلمانية "امبراطورية الشر الثانية".

ففي مقال له بعنوان: "الإسلام ونهاية العلمانية" (الموقع الإليكتروني لقناة الجزيرة الفضائية ١٩/ ٧/ ٢٠٠٤) يراهن الأكاديمي الأمريكي المعروف جون فول على دور رئيس للإسلام في القضاء على العلمانية على غرار الدور الذي قامت به الفاتيكان في هزيمة النازية والشيوعية. ويرى جون فول أنه "عند الحديث عن العوامل الإثنية والدينية في علم الاجتماع البشري اليوم، فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: هل نحن سائرون إلى صراع أم إلى تصالح؟ ورغم أن مفكرين كثيرين يرون أن عنصر الدين يمثل مشكلة في عالم اليوم، فإنني أرى أن الدين يصلح أن يكون سبيلا للتصالح والوفاق".

"فعلى مدى ما يقرب من ثلاثة قرون، دأب علماء الاجتماع والمثقفون الغربيون البارزون على تأكيد أفول الدين وساد اعتقاد بأن التحديث هو المحرك الذي سيتسبب بصورة حتمية في إقصاء الدين عن الحياة، ويؤكد فول أنه لا بد من إعلان نهاية إيمان علم الاجتماع

بنظرية العلمنة ، والإقرار بأنها لم تكن إلا محصلة لأفكار وتوجهات محببة . فبعد نحو ثلاثة قرون من إخفاق نبوءاته ، حريٌ بمبدأ العلمنة أن يُلقى في مقبرة النظريات الفاشلة" .

يطرح الأكاديمي المعروف مجموعة من التعميمات التي يؤسس عليها تصوره فيقول: "**أظن أننا نشهد عالما يسقط الفكرة القائلة بأن التحديث يؤدي بالضرورة إلى إقصاء الدين. فقد أدبرت تلك الحقبة التي سادت فيها تلك الفكرة. وبالنظر إلى دور الولايات المتحدة في شؤون العالم، جدير بنا أن نتقبل فكرة نهاية العلمنة كأحد أبعاد عملية التحديث، وليس باعتبار ذلك أيديولوجية منافسة أو بديلة**" .

ويحدد فول ثلاثة عناصر تشكل إطار رؤيته هي:

أولا: إن خبرة مجتمعات عديدة في العالم خلال نصف القرن الماضي تظهر أن التحديث لا يعني انتهاء دور الدين كقوة فاعلة رئيسة في الحياة العامة . وهذا يعني بدوره أن علمنة المجتمع ليست جزءا أصيلا في عملية التحديث .

ثانيا: أن من الواضح أن سياسات "فصل الكنيسة عن الدولة" أو "فصل الدين عن السياسة" لم تكن محايدة دينيا . أي إن الدعوة للعلمنة والعلمانية اتخذت في حد ذاتها موقفا أيديولوجيا ودينيا . فهذه الدعوة إذن ليست وصفا موضوعيا منفصلا عن القيمة لما يحدث في عملية التحديث .

ثالثا: مما تقدّم - وباستخدام مصطلحات السياسة - فإن العلمنة ليست شيئا يحدث كجزء طبيعي من العملية التاريخية للتحديث . بل يمكن أن ينظر إلى العلمانية كما أظن أنها كانت دائما واحدة من رؤى عديدة متنافسة حول ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع في الحقبة المعاصرة . أي إننا نشهد نهاية حقبة كانت تعتبر فيها العلمنة معطى لازما في تطور المجتمعات الحديثة . إننا نشهد نهاية العلمانية .

ويرى فول أن "**لهذا المنظور الجديد أهمية خاصة لأجل فهم الإسلام المعاصر، ففي العالم**

الإسلامي كان ينظر دائما وبوضوح للدعوة إلى علمنة المجتمع باعتبارها أيديولوجية منافسة، أكثـر مـن كـونها جزءا ضروريا وأصيلاً في عملية التحديث. فعلى مدى قرنين، ركزت المؤثـرات (والنـتائج) الرئيسة لعملية الإصلاح في العالم الإسلامي على إنشاء أمم حديثة، ودول حديـثة، ودول قومـية حديـثة. وفي وقـت مبكر، أدت الفكرة السائدة حول أن التحديث يشمل قدرا من فصل الدين عن الحياة العامة إلى وسم دعاة الإصلاح والتحديث بالعلمانية".

"كانـت أهم عناصر برامج الإصلاح والتحديث، في القرنين التاسع عشر والعشرين، إحـداث انفكاك واضح من الماضي؛ الذي كان يعتبر ويعرّف باعتباره "تقليديا". وقد أكد ذلك ما صدر في خمسينيات وستينيات القرن الماضي من دراسات العلوم الاجتماعية الرئيسة المختصة بتعريف التحديث. لكن مع وصولنا لنهاية حقبة ساد فيها الاعتقاد بأن العلمنة جزء أصـيل في عملـية التحديث، فإننا نرى أن الكثيرين من الحداثيين في أكثر المجتمعات تحديثا يعـتقدون – وهـم في مستهل القرن الحادي والعشرين – أن السياسات ليست بالضرورة بديلا عن الصلاة"!!!.

ومما يلفت النظر بل يثير الدهشة أن جون فول يرتب على تصوره نتائج سياسية تشكل انقلابا في الرؤية الأمريكية يدعو للإقدام عليه دون تردد، فـ "ما يجب الإقرار به الآن هو أن الفكرة القائلة بضرورة فصل الدين عن الحياة العامة لأجل تحقيق التحديث قد دحضت من خـلال حـياة وخبرات وتجارب أناس كثيرين وبلاد عديدة، في شتى أنحاء العالم، وبصورة خاصـة في العـالم الإسـلامي. وعندما ننظر إلى العالم الإسلامي في سياق خيارات السياسة الأميركية، من المهم ألا يغيب عنا هذا الإطار الفكري الأوسع حول نهاية نظرية العلمنة. وهو في حـد ذاته مهم لأننا بحاجة إلى البحث عن الحلفاء المناسبين. ففي حقبة تدرك أهمية الحوار الحضاري، نحتاج أن نكون على وعي بالناس الذين نستطيع التحاور والعمل معهم بفاعلية".

"وإذا كنا نسعى لبناء وتقوية الركائز الأخلاقية للحرية في الولايات المتحدة، فإننا لا نبحث بالضرورة عن حلفائنا من بين أشباه الملاحدة أو الدهريين. وإذا كنا لا نفعل ذلك في الولايات المتحدة ذاتها، فلماذا نفعله عندما نتعامل مع العالم الإسلامي؟ ولماذا نرى في سلمان رشدي مثلا حليفا عظيما ومسلما معتدلا بدلا من البحث والتحاور مع من يؤمنون ويحافظون بقوة على القيم الأخلاقية على أساس ديني، ويعتقدون أن للدين مكانا في السياسات والحياة العامة".

ويكشف فول في مقاله عن عمل مؤسسي منظم لتسويق الفكرة فيشير إلى "مجموعة من المثقفين، تضم بين أعضائها المؤرخ الأميركي أنتوني سوليفان وتسمى "الحلقة"، وهي تمثل مجهودا على نطاق صغير يهدف إلى تقديم وسيلة أو آلية للتواصل الفعال، بناء على وعي مشترك وإيمان بمجتمع أخلاقي. وتضم المجموعة ضمن أعضائها أيضا مثقفين غربيين ومسلمين". وفي ما يشبه الدعوة لتحالف إيماني عالمي ضد العلمانيين يختم فول رؤيته بقوله: "في حقبة نهاية العلمنة كمعطى مسلم به، وفي زمن ينبغي فيه القبول بالعلمانية كإحدى الأيديولوجيات المتنافسة على صياغة وتعريف الرؤية التي نريد للمجتمع أن يكون عليها، يمكننا بل يجب علينا أن نختار حلفاء مؤثرين.... الصدام الهام في الحقيقة هو بين من يرون أن الدين لا دور له في المجتمع ومن يرون أن له دورا. في ذلك الصدام، سيكون للذين يؤمنون – بأن الحرية لا بد لها من قاعدة أخلاقية قوية على أساس ديني للدفاع عنها – حلفاء طبيعيون كثيرون في العالم الإسلامي"!!!!

٥-

لاشك في أن الرئيس الموريتاني السابق ولد محمد فال كان شجاعا إلى حد بعيد باعترافه بأن موريتانيا تعاني مشكلة "عبودية" وهو اتهام طالما نفته لعقود متوالية الحكومات المتعاقبة في موريتانيا. ومشكلة موريتانيا عينة ممثلة لمشكلات مماثلة تعانيها أقطار عديدة في العالم العربي

بأشكال مختلفة وبدرجات حدة متفاوتة . فالصعود الكبير للأكراد في العراق بعد سقوط النظام البعثي جعل العالم العربي يبدو كما لو كان قد فوجئ بوجود أعراق متعددة في العراق: أكراد ، تركمان ، آشوريون . . . . ، ويمكنك أن تقول الشيء نفسه عن اتفاق ماشاكوس في السودان الذي قبل النظام السوداني بموجبه "اقتسام" السلطة والثروة مع الجنوبيين الأفارقة ليكون أول اعتراف عملي بأن السودان بلد ذو هوية مزدوجة عربية/ أفريقية ، وبدرجة أقل حدة تتصاعد وتخبو مشكلات أخرى مماثلة كالبربر في الجزائر والمغرب والأكراد في سورية و . . . .

والمشهد اللبناني الراهن مثال معبر تتجلى فيه كل سمات أزمة الهوية في العالم العربي فالصراع بين موالاة ومعارضة هو صراع بين هويتين بقدر ما هو صراع بين أجندتين سياسيتين والمفاهيم المتصلة بالهوية حاضرة بقوة في السجال بين الفريقين . غير أن المشهد الأكثر تعبيرا عن أزمة لبنان هو مشهد الصراع على المقررات الدراسية فكل حرب إنما تبدأ "فكرة" وكل مواطن إنما يختار موقعه من الاصطفاف السياسي بناء على اعتبارات ، وتختلف دواعي هذا الاصطفاف نوعيا من دولة لأخرى . ففي المجتمعات المستقرة التي لا تعاني صراعا على الهوية يكون الاصطفاف في المقام الأول بناء على "المصالح" أما المجتمعات التي تعاني "دوار الهوية" فيكون الاصطفاف السياسي فيها مرتكزا في المقام الأول على القناعات ، وهو ما يحدث في لبنان الآن في خلفية المشهد السياسي .

فبينما تعصف بلبنان رياح صراع هو الأكثر حدة منذ الحرب الأهلية يدور صراع ثقافي أقل صخبا لكنه أبعد أثرا موضوعه المناهج الدراسية اللبنانية وصورة كل حقبة من حقب التاريخ اللبناني فيها (الشرق الأوسط اللندنية ١١ - ١ - ٢٠٠٧) ، وأطراف الصراع خرجوا من كتب التاريخ ليكونوا موضوع اصطفاف هو الأهم في الصراع على مستقبل لبنان ، وهم: الفينيقيون والعثمانيون والفرنسيون!

والعودة إلى هذه النقطة عودة غير مسلحة لأجواء الحرب اللبنانية التي توقف خلالها تاريخ لبنان ولم يستأنف مسيره حتى الآن . وتشكل مناهج التاريخ الساحة الأكثر خطورة بالنسبة لأمة تعاني "دوار الهوية" ، فدروس التاريخ عبر العالم تخدم غرضين: تعليم الشباب وتشكيل الهوية الوطنية ، لكن العجز عن بلورة هوية جامعة يجعل التاريخ أول عوامل التفرقة ومن ثم اشتعال الصراع الأهلي ، ومع انتشار التوتر الطائفي مرة أخرى يخشى بعض العاملين في مجال التعليم أن الفشل في إعداد رؤية مشتركة لأحداث التاريخ تدفع الشباب إلى تكرار الماضي ، حيث يتعلم معظمهم التاريخ المعاصر من أسرهم أو من زعمائهم السياسيين الذين ربما لديهم أجندة خاصة بهم .

والانقسام ليس هاجسا يمكن دفعه بل واقع ففي واحد من الكتب المدرسية يتعلم الطلاب أن العثمانيين محتلون ، وفي كتاب آخر يقدمون للطلاب كإداريين . وفي بعض الكتب الأخرى يتعلمون أن الفرنسيين محتلون ، وفي آخر يعتبرونهم مثالا يجب اتباعه . وفي بعض المدارس المسيحية يبدأ التاريخ مع الفينيقيين القدامى ، الذين يعتقد الكثير من المسيحيين أنهم أسلافهم الأصليون ، وفجر المسيحية . وفي عديد من المدارس الإسلامية يقلل من شأن الفينيقيين مقابل التركيز على التاريخ العربي ووصول الإسلام .

أول ما تعكسه هذه الأزمة أن التاريخ ليس سجلا لما حدث بالفعل في مكان ما بل بوصفه سيرة مقدسة لـ "السلف الصالح" وبالتالي فإن كل فئة من فئات الشعب في هذا المكان تريده تسجيلا لتاريخ الجماعة التي ينتمي إليها وغالبا يكون هذا التاريخ سجلا للمآثر . وعندما يكون التاريخ سجلا لمآثر "السلف" الصالح فإن امتلاك جماعة بعينها له يعني امتلاكها المستقبل حيث هو استنساخ لتاريخ هذا السلف الصالح ، فالحرب هي على المستقبل ، ومن خاض حربا ثقافية ليستبعد جماعة - أو جماعات - أخرى من التاريخ استبعادا تاما أو جزئيا لا شك في أنه مستعد لأن يستبعدهم سياسيا من المستقبل!

المشكلة إذن تتجاوز مجرد إثبات حقائق تاريخية أو محوها لتكون إصرارا عاطفيا متشددا على جعل المستقبل مجرد إعادة إنتاج للماضي وتشبثا مرضيا بالحق في احتكار الأولية، سواء كانت أولية الفينيقيين أو العرب المسلمين، وهنا يتحول التاريخ من سجل لما حدث إلى رؤية أيديولوجية لما نتمنى أن يكون، والتاريخ هو الميدان الأفضل لفرض التصورات: القومية أو الدينية أو المذهبية أو الأيديولوجية أو حتى الشخصية على الوجود إذ يصبح هذا الوجود مجرد مادة خام طيعة قابلة للتشكيل وفق تصور مسبق.

المشكلة إذن في عمقها الحقيقي ثقافية وتربوية، وكما يقول المثل الإنجليزي "أعطني ابنك أربيه سبع سنوات ثم خذه وافعل به ما تشاء"، فالمفاهيم الأولية هي التي تحكم رؤية الإنسان وبناء عليها يصدر أحكاما ويصنف البشر والأفكار ويبني ولاءاته وعداواته، وفي بلد تلعب الطائفية فيه دورا كبيرا وتملك كل طائفة القدرة على التأثير في أعضائها بقوة من الخطير جدا أن يفشل أطراف الاجتماع السياسي في الوصول لرؤية جامعة لأن الدولة ليست مركزية تستطيع أن تحتكر لنفسها الدور الوحيد في بناء الهوية، ما يعني بناء ثقافات مزدوجة ونمو مشاعر سلبية تحت الجلد لن تلبث أن تنفجر.

-٦

لقد كان القرن العشرون قرن صراع الأيدلوجيات بامتياز وشكّل الصراع بين الرأسمالية والفاشية السمة الرئيسة للنصف الأول منه، فكانت الحربان العالميتان الأولى والثانية جولتان حاسمتان اختفت بعدهما الأنظمة الفاشية في الغرب واليابان. ورغم أن صراع الهوية كان جزءا من بنية الصراع بين الرأسمالية والفاشية فإنه لم يكن السمة المميزة للصراع، ولعبت الانتماءات القومية والمذهبية والدينية أدوارا شديدة الأهمية في هذا الصراع. وبينما كانت الأنظمة الفاشية في ألمانيا وإيطاليا واليابان وغيرها كانت أنظمة قومية حلولية شديدة العداء للدور الذي تقوم به المؤسسات الدينية في المجتمع فإنها، وبصفة خاصة

النظام النازي، استخدمتها كورقة لاكتساب المشروعية فأنشأت كنيسة "نازية" إذا جاز التعبير.

وبطبيعة الحال لم تكن المصالح غائبة عن هذا الصراع ولكنها لم تكن أبدا محركه الرئيس. وخلال النصف الثاني من القرن العشرين كان الصراع بين الرأسمالية والشيوعية السمة المميزة فانقسم العالم إلى معسكرين كل منهما يحاول التبشير بأيدلوجيته. وفي هذا المناخ الحافل بصخب الصراع الأيديولوجي ولد الكيان الصهيوني متحالفا مع الأيدلوجية الرأسمالية بصفة أساسية. ومع مطلع القرن الحادي والعشرين يكاد الصراع الأيديولوجي يختفي ليحل محله صراع الهويات.

وقد راهن محللون كثيرون على أن زوال الصراع الأيديولوجي بهزيمة أحد طرفيه سيؤدي بالضرورة لأن تكتسح الرأسمالية " الأيديولوجيا المنتصرة " العالم لتصبح خيارا عالميا يظهر بانتصاره "المواطن العالمي" وفق الشروط الرأسمالية. ولأن التاريخ لا يسير وفق قانون خطي بسيط تغير ميدان الصراع تماما وفقدت الأيديولوجيا بريقها أو كادت، وضمن ذلك الأيديولوجيا المنتصرة نفسها، ونزعت مجموعات سكانية كثيرة في العالم المتقدم والمتخلف على السواء نزوعا متفاوتا بلغ أحيانا حد التطرف نحو تأكيد هويتها.

كان مفهوما أن يؤدي زوال الاتحاد السوفيتي لظهور قوس قزح من الهويات التي حجبتها الإمبراطورية الغاربة وكان طبيعيا أيضا أن يصبح مواطنو هذه الجمهوريات أمام أسئلة لا تحسمها الأمم عادة في لحظة كاختيار اللغة، فاختار بعضها الحرف التركي واختار بعض آخر الحرف اللاتيني وهكذا. وبرز حضور الهوية بشكل شديد الوضوح في الموقف الروسي من الصراع في البلقان، حيث بدا إلى حد كبير الدور الفاعل للمذهب والعرق في صياغة الموقف الروسي الرسمي من هذا الصراع.

وفي إطار عملية تحلل للكيانات السياسية التي قامت على اجتماع مجموعات سكانية

مختلفة تشكل الدولة بالنسبة لها إطارا لهوية سياسية تحجب هويتها الثقافية بمعناها الشامل ظهر صراع الهويات واحتل واجهة المشهد السياسي ، واكتشفنا فجأة أن تشيكوسلوفاكيا دولتان وأن يوغوسلافيا عدة دول وأن ما يجمع دول البلطيق (أستونيا ولاتفيا وليتوانيا) أضعف بكثير مما يفرقها . ومن الشمال للجنوب امتدت الظاهرة فانفصلت إرتريا عن إثيوبيا ثم انفصلت تيمور عن إندونيسيا .

وتلجأ النخب السياسية غالبا عند إدارتها صراعات الهوية لتأكيد الاختلاف والإلحاح عليه إن لم يكن موجودا لبلورة هوية وطنية أو قومية مختلفة تكون مرتكزا للانفصال عن المحيط الذي توجد فيه . وقد لفت نظر المحللين عند انفصال تيمور أنها على المستوى الاقتصادي لا تملك مؤهلات الدولة ورغم ذلك فإن ما شغل النخبة السياسية التي تحمل لقب "أفقر دولة في العالم" لم تتجه لامتلاك مؤهلات الاستقلال الاقتصادي بل أولت اهتمامها الأكبر لبناء الهوية .

وكما لعب الدين دورا في بناء حواجز بين سكان تيمور وبين إندونيسيا بدأت نخبة "التحرر الوطني التيمورية" تغذي مفهوم الاختلاف بقوة ، ففي مايو ٢٠٠٢ اختارت تيمور الشرقية - ضمن مساعيها لخلق هوية خاصة بها تميزها عن إندونيسيا - اللغة البرتغالية لكي تكون لغة التعلم في المدارس والجامعات ، ولكي تعطي للأمر مسحة من القداسة سمتها "لغة الثورة" . ويشكو مواطنو تيمور من أنه سيكون من الصعب عليهم تعلم البرتغالية لأنهم يتحدثون الإندونيسية ، ولكنها أصبحت إجبارية الآن . ودستور الدولة يعتبر البرتغالية ولهجة تيتوم المحلية الرئيسة اللغتين القوميتين برغم أن لهجة تيتوم تعتبر بدائية .

وتعكس مثل هذه القرارات اندفاعا عاطفيا غالبا تكون له آثار مدمرة ، فالمفاضلة بين البدائل المتاحة لم تأخذ شكلا موضوعيا بل استندت لمبررات عاطفية متشنجة ، فللبرتغالية عند "قادة الثورة التيموية" الوليدة (وهو تعبير فيه تجاوز شديد) مغزى آخر على فقد كان

المتمردون التيموريون يتحدثون البرتغالية لتجنب الجواسيس!! أما قائدهم - الذي سيكون أول رئيس لأفقر دولة في العالم بعد نجاح تمرده زانانا غوسماو وهو شاعر أيضا - فهو مولع بالبرتغالية!! وبعيدا عن الاعتبارات العملية التي لم يؤذ أي منها في الاعتبار فإن هجر اللغة الإندونيسية بوصفها "لغة المستعمر" لا يبرر فرض البرتغالية بقرار فوقي لأنها هي الأخرى لغة مستعمر أقدم!!

واستخدام لغة لا يجيدها سوى ٥ % فقط من السكان سيكون مكلفا كما سيكون مضيعة كبيرة للوقت. وحسب دراسة أعدتها الأمم المتحدة فإن نحو ألفي موظف سيكونون بحاجة إلى تعلم البرتغالية لإدارة شؤون الدولة. وعلى المستوى العملي الأهالي يجدونها صعبة والمدارس لا تجد من يعلمها وعبر طالب بكلية العلوم عن نتائج هذا القرار بعبارة موحية يقول: "بدلاً من أن تكريس وقتي لدراسة الفيزياء والكيمياء أتعلم العد وتسمية أجزاء جسم الإنسان باللغة البرتغالية! ".

وتلخص إحدى الراهبات المأزق قائلة: "أنا كنت سأختار التيتوم كلغة رسمية، لأن هذه هي اللغة التي يجيدها معظم الناس لكني أعلم أن الناس يقولون إنها بدائية ولن يمكن تحديثها بسهولة"، وتيتوم واحدة من نحو ٣٠ لغة أو لهجة يتحدث بها سكان تيمور الشرقية، ومن المعتقد أن ٨٢ % يتحدثون بها بينما يجيد ٤٣ % اللغة الإندونيسية. ودافع وزير خارجية تيمور عن اللغة البرتغالية قائلا إنها اختيار أغلب المواطنين.

إنها وجوه مختلفة من أزمنة وأمكنة مخلفة للصراع والتدافع بين "الأنا" و"الآخر".

* * * * *


ملاحق

ملحق ١:

وثيقة المدينة

١ . هـذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش و[أهل] يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ،

٢ . أنهم أمّة واحدة مِن دون الناس .

٣ . المهاجـرون مـن قـريش علـى رَبعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفدُون عانِيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ . وبـنو عَـوف علـى رَبعـتهم يـتعاقلون معـاقلَهم الأولى ، وكـل طائفـة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥ . وبـنو الحـارث [بـن الخـزرَج] علـى ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٦ . وبـنو سـاعِدة علـى ربعـتهم يـتعاقلون معاقلـهم الأولى ، وكـل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧ . وبـنو جُـشم علـى ربعـتهم يـتعاقلون معاقلـهم الأولى ، وكـل طائفـة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨ . وبـنو الـنّجّار علـى ربعـتهم يـتعاقلون معاقلـهم الأولى ، وكـل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩ . وبـنو عَمـرو بـن عـوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠ . وبنو النَّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١١ . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٢ . وأنّ المؤمنين لا يتركون مُفرَحا (أي مثقلا بالدَّين وكثرة العيال(بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

١٢/ ب . وأنْ لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣ . وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] مَن بغى منهم ، أو ابتغى دَسيعةَ (كبيرة (ظلم ، أو إثمًا ، أو عدوانًا ، أو فسادًا بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعًا ، ولو كان ولدَ أحدهم .

١٤ . ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر ولا ينصر كافرًا على مؤمن .

١٥ . وأنّ ذمّة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

١٦ . وأنّه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النصرَ والأسوةَ غير مظلومين ولا مُتناصرين عليهم .

١٧ . وأنّ سِلم المؤمنين واحدةٌ ، لا يُسالِم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم .

١٨ . وأنّ كل غازية غزَت معنا يعقب بعضها بعضًا .

١٩ . وأن المؤمنين يُبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

٢٠ . وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدًى وأقومه ،

٢٠/ب . وأنّه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

٢١ . وأنّه مَن اعتَبط مؤمنًا قتلا عن بيّنة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول [بالعقل] ، وأن المؤمنين عليه كافّةً ولا يحلُّ لهم إلا قيام عليه .

٢٢ . وأنّه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن يَنصر مُحدِثًا (مجرما) ولا يُؤوِيه ، وأن من نصره أو آواه فإنّ عليه لعنةَ الله وغضبَه يوم القيامة ، ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٣ . وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنّ مردَّه إلى الله]عز و جل[وإلى محمد [صلى الله عليه وسلم

[. ٢٤ . وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين .

٢٥ . وأنّ يهود بني عوف أُمّة مع المؤمنين ، لليهود دِينهم وللمسلمين دِينهم ، مَواليهم وأنفسهم إلا من ظلَم وأثم ، فإنه لا يُوتِغ (أي لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

٢٦ . وأنّ ليهود بني النّجّار مثل ما ليهود بني عوف .

٢٧ . وأنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

٢٨ . وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

٢٩ . وأنّ ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف .

٣٠ . وأنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

٣١ . وأنّ ليهود بني ثَعلَبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا مَن ظلم وأثم فإنّه لا يُوتِغ إلا نفسَه وأهلَ بيته .

٣٢ . وأنّ جَفْنَةَ بطنٌ مِن ثعلبة كأنفسهم .

٣٣ . وأنّ لبني الشُّطَيْبَة مثل ما ليهود بني عوف ، وأنّ البرَّ دون الإثم .

٣٤ . وأنّ موالي ثعلبة كأنفسهم .

٣٥ . وأن بطانة يهود كأنفسهم .

٣٦ . وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد [صلى الله عليه وسلم] .

/٣٦ب . وأنـه لا يَنحَجِـز على ثأرِ جُرحٍ ، وأنه مَن فَتَك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظَلم ، وأنّ الله على أبرِّ هذا .

٣٧ . وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأنّ بينهم النصر على مَن حاربَ أهل هذه الصحيفة ، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم .

/٣٧ب . وأنه لم يأثم امرؤٌ بحليفه ، وأنّ النصر للمظلوم .

٣٨ . وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٣٩ . وأنّ يَثرب حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة .

٤٠ . وأنّ الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثِم .

٤١ . وأنّه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها .

٤٢ . وأنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدث أو اشتجار يُخاف فسادُه ، فإنّ مَرَدّه إلى الله [عز و جل] وإلى محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم] ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه .

٤٣ . وأنّه لا تُجار قريش ولا مَن نَصرَها .

٤٤ . وأنّ بينهم النصر على مَن دهم يثرب .

٤٥ . وإذا دُعوا إلى صلح يُصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا

دَعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا مَن حاربَ في الدِّين .

٤٥/ب . على كل أناس حِصَّتهم مِن جانبهم الذي قِبَلهم .

٤٦ . وأنّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البِرّ المحض مِن أهل هذه الصحيفة ، وأنّ البِرّ دون الإثم لا يَكسِب كاسب إلا على نفسه ، وأنّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأَبَرّه .

٤٧ . وأنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالمٍ أو آثم ، وأنه مَن خرجَ آمِنٌ ومن قعد آمِنٌ بالمدينة ، إلا مَن ظلم وأثم ، وأنّ الله جارٌ لمن بَرَّ واتّقى ومحمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم .



ملحق ٢:

لنتذكر فاندي

بقلم صوفي ماسون

في بداية عام ١٧٩٤ قرر Convention Robespierre's إبادة

الفنديين (الفانديين) حتى آخر رجل وامرأة وطفل. وإذا كانت الثورة

الفرنسية أول أيديولوجية حديثة فإن فنديه (فاندي) تكون مذابح

بدائية رهيبة تعد من أعمال الإبادة الجماعية.

حقيقة أن فاندي (فنديه) ثارت كانت معروفة للكافة. وهو

ما يدعو للتساؤل بشأن طبيعة ثورتها التي شارك فيها طبقتها

الوسطى وزعماؤها. والجمهورية الفرنسية لم تبدأ

إلا حديثا جدا في الاعتراف بالرعب الذي يعنيه أن تكون

فاندي (فنديه) أول جريمة إبادة جماعية في العصر الحديث.

المحيط الأطلنطي هادئ بامتداد شاطئه الطويل وهو يلتوي ويلتف عير أن موجه لا يهدر بقوة كما يفعل في الجزء الشمالي بامتداد صخوره الرمادية الوعرة، وبامتداد الشاطئ غابات صنوبر وعرة وفي العمق غابات أخشاب وأنهار بطيئة وحقول صغيرة.... السماء هنا ضخمة تعانق الأفق.... وعلى امتداد الشاطئ نجد آثار أقدام تعود لماض سحيق، آلاف من الحيوانات المتحجرة مطمورة في الصخور الناعمة. القرى والمدن صغيرة منطوية على كنائسها الرمادية وصخورها الصامتة. وفي كل مكان كل مكان ذكريات الرعب والموت حاضرة في صفوف لانهائية.

أريد أن أحكي قصتي .

ذات يـوم كـان هناك أرض غنية جميلة بعيدة ، أرض أسرار وأغاني ، أرض غابة ومحيط ونهـر ، وأهلـها كانـوا يعيـشون كما اعتادوا في أرضهم ومعها ، وفي ثقافتهم العميقة التي لا يـسمونها ولكنهم يعرفون أنه جزء منهم . وعندما جاءت الطرق الجديدة في البداية لم يفعلوا شـيئا ، ولكـن سـرعان مـا فهمـوا مـا تعنـيه هجمة الطرق الجديدة والناس الجدد والأفكار الجديدة .

انـتهاك أراضـيهم وعقائـدهم بـل أرواحهـم وما كان يمكن أن يقفوا وهم يرون ذلك ، سيقاومون للأبد إن لزم الأمر . (القادمون) المتطفلون بدورهم كانوا يعتقدون أنهم أحضروا معهـم الـتقدم ، التنويـر ، الفكـاك مـن أسر الخرافات ، الحرية ، الإخاء ، والمساواة . وسوف (يـسحبون) يدخلـون هـؤلاء البدائـيين العصور الحديثة ، حتى لو كلفهم هذا بضع معارك . هؤلاء البدائيون أنصاف البشر سيصبحون عما قليل في تسابق مميت .

لكـن هـذا لم يكـن سـهلا فالـناس قاومـوا بـشراسة وانتـصروا أحيانا وشعر المتطفلون بالـرعب الـشديد فعـلا أحـيانا ، ولكن سرعان ما كان هناك نقص في الرجال مقابل تقنيات متفوقة ، وأيضا - وهذا يجب قولـه - استقلالية البعض جعلتهم يجدون العمل ضمن جماعة متحدة أمرا صعبا وكان هذا مؤثرا في شجاعتهم وعقيدتهم . ولم تكن هناك ثقافة عسكرية إذ كانـوا يعيـشون لـزمن طويل في حالة سلم . وعندما اكتشف (المتطفلون) ذلك عندما هزموا الـناس أوحى لهم هذا بأكثر الأفكار وحشية ، فهذا التسابق للموت يمكن استغلاله ، وهكذا بدأت الإبادة الجماعية .

البـشاعة المـضاعفة ، الإبادة المنظمة بدأت من أعلى القيادات وجرى تنفيذها بسعادة في أدنـى المستويات ، علـى الأقل ٣٠٠ الف إنسان أبيدوا بلا رحمة آنذاك وبعض الجنود الذين رفضوا القيام بالمهمة اغتيلوا ماديا أو معنويا . لكن الناس ظلوا يقاومون فبعضهم اختبأوا في

الغابات ونصبوا الأكمنة وقد حابوا ببسالة مثالية لكنهم عند القبض عليهم كانوا يذبحون كالخنازير . وكان الإعدام مصير كل القادة إما شنقا أو ذبحا أو رميا بالرصاص بل لم يترك بعضهم لينام في قبره في سلام . جثة آخر قائد تم إعدامه قطعت ووزعت على العلماء أنا رأسه فتم "تمليحها" في إناء زجاجي . أما مخه فتمت دراسته لمعرفة أين توحد بذور العصيان عند البدائيين .

كان هذا منذ مائتي عام لكن في الحاضر احتفل المتطفلون بالذكرى المائتين دون إشارة لـ "الموت" ودون إشارة للإبادة الجماعية ، إنهم الضحايا أنفسهم هم الذين تذكروا .

* * * * *

والآن هناك اسم لهذه الثقافة التي قاومت وهذا الاسم هو فاندي (فنديه) . . . إنها قصة التاريخ الفظيع لأهل غرب فرنسا فاندي (فنديه) وبريتاني ، فأثناء الثورة الفرنسية حدثت قصة فيها البطولي والبشع تخلفت من رماد فاندي (فنديه) . وهي قصة كانت حتى وقت قريب موضوع قمع وإنكار وبتوالي الأكاذيب أصبح كثير من الفرنسيين لا يعرفون عنها شيئا ، وحدهم أهل فاندي (فنديه) وبريتاني احتفظوا بها حية ، ولم ينسوها أبدا . ومؤخرا وحسب خلال السنوات القليلة الماضية أقيمت نصب تذكارية للضحايا أقامتها الحكومة المحلية وليس الحكومة المركزية . وحديثا جدا بدأت الجمهورية الفرنسية تتحدث عن احتمال أن يكون هذا الترويع أول جريمة إبادة جماعية في التاريخ .

* * * * *

في ١٧٨٩ بدأت الثورة الفرنسية الثورة التي كانت في البداية مفعمة بالتفاؤل وأمنيات الإصلاح الحقيقية ، ولم يعارضها حتى الملك لويس السادس عشر . وكانت شعاراتها: التنوير ، الإنسانية ، الحرية ، الإخاء ، والمساواة مما لا يمكن أن يعارضه أحد ، وكان المعارضون قليلين وكان فلاحو غرب فرنسا الأقل بينهم بل رحبوا بالكثير من التغييرات

وبينها إعلان حقوق الإنسان .

في ١٧٩٠ ظهر أو تصدع إذ ألغيت اجتماعات السلطات الإقليميّة تعرى الناس من حكوماتهم المحليّة . وجرّد رجال الدّين من سلطاتهم وعظمهم كان الناس يختارونهم وليسوا معيّنين بواسطة الكنيسة . كان معنى هذا عمليًا أن برجوازيّ المدن حلوا محل الكهنة المقدسين الذي اختارهم الفلاحون . بدأت فاندي (فنديه) وبريتاني ونورماندي التحرّك ضد هذا ؛ كانوا مرتبطين بكهنتهم الخاصّين جدا و قاوموا فرض آخرين . بعد سنة ثارت قلاقل في بريتاني وفي ١٧٩٢ ، اكتسب اليعاقبة المتطرّفون بزعامة روبسبير قوة . . . . . . وبدأ الرعب .

غير أن حدثين شهدهما العام ١٧٩٣ قذفا فرنسا في آتون حرب أهلية وما زالت عواقبهما ماثلة في فرنسا حتى اليوم ، وهما: إعدام لويس السادس عشر . ولاحقا إعلان فرنسا الحرب على بقية أوروبا ، ونتيجة لذلك أراد "الثوار" إلزام الفلاحين بالتجنيد الإجباري لـ ٣٠٠ ألف منهم ، لقد أراد الثوار أن يدفع الفلاحون ثمن إجرامهم الأحمق!

واندلع التمرد فورا في فاندي (فنديه) وبريتاني ونورماندي لكن مركز التمرد كان فاندي نفسها . كان هذا تمردا شعبيا تاما ، كان الفلاحون أنفسهم من أخذ زمام المبادرة وهم قام – لاحقا – بإقناع بعض النبلاء المحليين ممن كانوا ضباطا بالجيش بقيادة بعض وحداتهم .

الجديد أن رد الفعل الجمهورية الأولى كان فوريا ، سيكون قتالا حتى الموت .

* * * * *

. . . ولم تبخل الجمهورية بمالها ولا جنودها في سبيل سحق المتمردين . . . . وفي بداية ١٧٩٤ قرر المؤتمر (مؤتمر اليعاقبة) إبادة فاندي (فنديه) حتى أخر رجل ، امرأة ، وطفل . وقد وجدوا من يسعده تنفيذ ذلك .

"لا يبقى رجل حيا" ، "وحدها الذئاب ما يجب أن يبقى في أرضهم" ، "نار ، دم ، موت ،

هـو ما نحتاجه لحماية الحرية" ، "ممتلكاتهم ومعتقداتهم المتعصبة يجب تحطيمهما" ، تلك كانت بعض الكلمات التي وردت في مؤتمرهم عن فاندي .

وأطلـق علمـاؤهم المدجـنون (المتواطئون) الخيال لكل الأفكار الجديدة ، تسميم الدقيق والخمـر ومـوارد المياه ، . . . . . الـبحث عـن طـرق لحرق أكبر عدد من الناس في فرن كبير يكـون قـادرة علـى إذابـة شحومهم بكفاءة . واحد من الجنرالات الجمهوريين (Carrier)كان مستهزئا بهذه الأبحاث ، فهذه الطرق "الحديثة" سوف تستغرق وقتا طويلا . الأفضل أن نـستخدم طريقة أكثر عراقة (فيها قداسة القدم) للإبادة: قداس تعميد لرجال ونساء وأطفال عـراة والأفضل تكبيلهم جماعيا فيما أسميه "زواج جمهوري" وفي قوارب نشيدها لذلك ويتم جـرها إلى منتـصف نهـر اللـوار ، وعـندئذ يـبدأ قـداس طعـن بالحـراب للـرجال والنـساء والأطفـال ، تحطـيم رؤوس الـصغار بضربها بالجدران ، مذبحة بإطلاق قذائف المدفعية على المكبلين ، أقصى أشكال التعذيب المروع ، وإحراق ونهب القرى والمدن والكنائس .

ولم يكـن هـناك حتّـى أيّ ادعـاء أو تظاهـر بالتميـّز بين المقاتلين والمدنيّين وحتى الآن سجلات الجيش في فينسينيس تحكي القصة الباردة ، القبيحة ، وقد تكررت مراراً وتكراراً في قـرننا الفظـيع ، الجنـرالات يـتحدثون بـبرود عن "الأهداف المنجزة" ، "الإبادة بلطف" ، إبادة جماعية بشكل منظم ومستمر وبصرامة .

* * * * *

ملحق ٣:

العلمانية والحجاب التركي

دكتور حازم الببلاوي

لم يكن في نيتي الاستمرار في الكتابة عن العلمانية بعد ثلاث مقالات في الموضوع. وكنت قد أكدت في مقالي الأخير أن العلمانية لا ترفض فقط مفهوم السلطة الدينية وإنما تدعو أيضاً وبنفس القوة إلى احترام الحريات الدينية للجميع ودون تمييز. وفي هذه الأثناء عرفت تركيا أزمة سياسية كبرى فيما يتعلق بالحجاب. فتركيا - وهي دولة يغلب على معظم سكانها الإسلام وتعلن في نفس الوقت تمسكها بالعلمانية - تواجه حالياً أزمة دستورية بسبب هذه القضية. فرئيس الوزراء وهو من حزب إسلامي (العدالة والتنمية) يرشح وزير خارجيته لمنصب رئيس الجمهورية. ويعترض رئيس الجمهورية الحالي بمقولة أن هذا الترشيح يتعارض مع مبادئ العلمانية لأن زوجة وزير الخارجية محجبة، ثم تؤيد المحكمة الدستورية - بالأغلبية - الاعتراض على هذا الترشيح. ومن هنا يثور التساؤل - وهو أمر طبيعي - ألا يعني ذلك أن هناك تعارضاً بين العلمانية وبين حرية ممارسة الشعائر الدينية؟ وبالفعل أرسل لي أحد القراء - السيد أحمد أبو السعود - تعليقاً على مقالي الأخير عن العلمانية متسائلاً: "إذا كانت العلمانية تؤيد حرية الاعتقاد، فلماذا دولة مثل تركيا ترفض الحجاب وهو شعيرة دينية يؤدها الاعتقاد، ولا ترفض العري؟ " هذا هو السؤال، وهو سؤال مشروع تماماً.

فهل ما زلت عند رأيي بأن العلمانية لا تعادي الأديان بل هي دعوة إلى الحريات الدينية؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو تفسير السلوك التركي، أليست تركيا دولة علمانية، وهي مع ذلك لا تحترم حرية ممارسة الشعائر الدينية لدى العديد من المسلمين؟

وأبدأ بالقول بأن العلمانية ليست نظرية علمية - كما في الكيمياء أو الفيزياء - بحيث

تنطبق في جميع الأماكن والأزمنة بنفس الدقة ، وإنما هي مفهوم اجتماعي تاريخي له خصائص عامة ، ولكنه يختلف في التطبيق في الكثير من التفصيلات من مكان إلى آخر ومن زمان إلى زمان . فالعلمانية مثل الديمقراطية أو الاشتراكية لكل منهما معالمها الرئيسية ولكنها تختلف في التطبيق من دولة إلى أخرى . فالديمقراطية في الولايات المتحدة ليست مثل الديمقراطية في فرنسا أو في الهند ، ومع ذلك فكلها دول ديمقراطية ، وبالمثل فإن التطبيق الاشتراكي في روسيا لم يكن متطابقاً مع التطبيق الاشتراكي في الصين أو يوغسلافيا أو كوبا ، بل أن الإسلام يختلف في تطبيقاته بحسب طبيعة الشعوب ، فالإسلام في مصر ليس كالإسلام في نيجيريا أو في اندونيسيا أو في البوسنة رغم أن كلاً منها دولة إسلامية . وكذلك الحال مع العلمانية هناك اختلافات في التطبيقات نتيجة للظروف التاريخية لكل دولة .

سبق أن ذكرت أن للعلمانية جانبين أحدهما سلبي وهو رفض مفهوم السلطة الدينية ، والآخر إيجابي وهو حماية الحريات الدينية ، وأن هاذين الجانبين يتكاملان ويعضد أحدهما الآخر . ولكن الحقيقة أن هناك أحوالاً يمكن أن يثور شبه تعارض بين الأمرين . فكثيراً ما يكون هاجس الخوف من تسلط السلطة الدينية هو الهاجس الأكبر أمام المسؤولين بحيث يرفضون كل شيء يمكن أن يكون تهديداً بعودة هذه السلطة . وكثيراً ما يصبح هذا الهاجس أقرب إلى الهوس إلى درجة تؤدي إلى التجاوز عن الحريات الدينية وممارسة بعض شعائرها . وهذا ما حدث في فرنسا بالنسبة للحجاب وهو ما يحدث حالياً في تركيا . ولكن هناك دولاً أخرى - مثل الدول الإنجلوسكسونية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية - والتي ترى في العلمانية أولاً وأخيراً مظهراً لحماية حرية الاعتقاد ولذلك لا تبالي كثيراً بما يطلق عليه الرموز الدينية . ولكل من المجموعتين من الدول من الأسباب التاريخية ما يفسر - وإن لم يكن يبرر - مثل هذه الاختلافات في السلوك .

فالثورة الفرنسية وهي أساس الدعوة إلى العلمانية في فرنسا لم تكتفي بمجرد رفض

مفهوم السلطة الدينية للكنيسة بل أنها استندت إلى جذور فلسفية تأخذ موقفاً معارضاً للأديان بصفة عامة. فهذه الثورة تجد جذورها الفكرية في الفكر السائد في القرن الثامن عشر والذي يقدس العقل والعلم ويتشكك في مواقف الكنيسة ورجال الدين. وفولتير أكبر الفلاسفة الذين مهدوا للثورة - ورغم تصالحه مع الكنيسة قبل وفاته - كان دائم الهجوم على الكنيسة وعلى الكاثوليكية. وهكذا بدأت الثورة بموقف فكري عدائي للأديان. وعندما سيطر روبسبير - أشهر رجال الثورة - على مقاليد الحكم ألغى الكنيسة وأعلن عن ديانة جديدة تؤمن بالله الذي أطلق عليه اسم "الكائن الأعلى" Supreme Etre، وهي ديانة تؤمن بالألوهية دون الأديان.

وهكذا فإن للثورة الفرنسية جذوراً معادية للدين ولرجال الدين Anticlerical. وعندما أصدرت الجمهورية الثالثة قانون الفصل بين الدولة والكنيسة في عام ١٩٠٥، غلب عليه معاداة كل مظاهر ورموز السلطة الدينية وظهورها في الأماكن العامة. ولذلك فإن التراث الفرنسي للعلمانية يركز بشكل أكبر - عند الموازنة والترجيح بين اعتبارات العلمانية - على محاربة كل مظهر للسلطة الدينية أو رموزها أكثر من التركيز على حماية الحريات والعقائد. ومع ذلك فإن هذا الترجيح على محاربة كل الرموز الدينية لم يكن دائماً سهلاً أو دون مقاومة. وعندما واجهت فرنسا أخيراً مشكلة الحجاب الإسلامي جرت على الساحة مجموعة من الملابسات التي ساعدت على غلبة جانب الخوف من بروز الرموز الدينية في الحياة العامة. فعندما ظهرت هذه المشكلة في المدارس الفرنسية وقعت معظم الأوساط في حيرة شديدة وترددت بين ترجيح أحد الاعتبارين على حساب الآخر، وانقسم الرأي العام حول الموضوع. فرفضت بعض المدارس الحجاب وأصرت على منع الطالبات من حضور الدروس مع هذا الحجاب، في حين أن البعض الآخر لم يعترض عليه بل وسمح به. وعندما تدخلت وزارة التعليم كان تدخلها غير حاسم، وبعرض الأمر على مجلس الدولة أيد حرية ممارسة العقائد.

وفي هذا الوقت كان العالم يعيش ما بعد أحداث ١١ سبتمبر حيث ازداد العداء للوجود الإسلامي بين المهاجرين في فرنسا. وتدخل شيراك وكون لجنة من الحكماء لإبداء الرأي، فرأت التوفيق بين منع الرموز الدينية من ناحية، واقتراح الاعتراف بعيد الأضحى عطلة رسمية للبلاد مجاملة للمسلمين من ناحية أخرى. واختار شيراك منع الرموز الدينية "الظاهرة" - إسلامية وغير إسلامية - كحل سياسي وإرضاء للشعور العام الفرنسي الغالب في هذا الوقت. واحتاج الأمر إلى استصدار قانون خاص من البرلمان لهذا الغرض. مما يعني أن مبادئ العلمانية السائدة في فرنسا لم تكن وحدها كافية للأخذ بهذا الحل. وهكذا نجد أن الموقف الفرنسي المتشدد يجد تفسيره في ظروف الثورة الفرنسية وموقفها العدائي من كل المظاهر الدينية ثم ازداد الأمر تعقيداً مع ازدياد موجه العداء لما أطلق عليه "الإرهاب الإسلامي" في الوقت الحاضر..

وعلى العكس، ففي الولايات المتحدة والتي كانت موقع أحداث ١١ سبتمبر، فإن أحداً بها لم يثر - كما في إنجلترا - مسألة الحجاب. والسبب في ذلك هو أن العلمانية لم تنشأ في أمريكا أصلاً في شكل معاد للأديان، وإنما جاءت في مجتمع متدين حريص على حماية حرية العقائد لمختلف الطوائف. فالدعوة إلى العلمانية جاءت في أمريكا دعماً للحريات الدينية والممارسات العقائدية ولم يكن رفض السلطة الدينية إلا بسبب ما يمكن أن يؤدي إليه وجود مثل هذه السلطة إلى التمييز في المعاملة بين مختلف الطوائف الدينية. فالعلمانية في أمريكا - كما في إنجلترا - هي دعوة إلى حرية الاعتقاد والحريات الدينية.

وماذا عن تركيا؟ الوضع في تركيا يجعلها أقرب إلى محاربة الرموز الدينية منها إلى الدفاع عن الحريات الدينية. لماذا؟ تركيا الحديثة ليست مجرد دولة إسلامية تأخذ بالعلمانية، بل أنها دولة حديثة قامت على أنقاض دولة الخلافة الإسلامية. فالدولة العثمانية لم تكن دولة تركية وإنما كانت إمبراطورية إسلامية متعددة الأجناس والديانات ويمتد نفوذها من

الهند إلى وسط أوروبا مروراً بالشرق الأوسط وشمال إفريقيا . ولذلك فإن مؤسسي الدولة التركية الحديثة - كمال أتاتورك وأنصاره - أرادوا تأسيس دولة جديدة على أسس مناقضة تماماً للدولة العثمانية وقطع كل علاقة مع الماضي .

فهذه الدولة الجديدة هي دولة للشعب التركي وليست خلافة للمسلمين ، واللغة التركية يجب أن تنفصل تماماً عن اللغة العربية وبالتالي كان من الضروري هجر حروفها العربية وفرض الحروف اللاتينية عليها ، وغطاء الرأس - الطربوش - والذي أدخله السلطان محمود الثاني ، يجب أن يستبعد تماماً ويستبدل بالقبعة ، رغم أن الطربوش جاء اختراعاً تركياً بتعديل القبعة الأوروبية بإزالة حوافها لتسهيل الصلاة ، فأصر أتاتورك على عودة الطربوش إلى أصله غير المعدل (القبعة) . وهكذا فإن الدولة التركية الحديثة ولدت في شكل من أشكال العداء للماضي الإسلامي . فهذه دولة قامت على أنقاض الخلافة الإسلامية وتخشى أن تكون عودة الرموز الإسلامية إيذاناً بعودة شبح الماضي . وإذا كانت الدولة العثمانية قد ارتكبت الكثير من الأخطاء بل والخطايا ، فلم يكن من بينها التمييز الديني . فقد عرفت الدولة العثمانية - في وقتها - درجة من التسامح الديني لم يكن معروفاً في معظم الدول الأوروبية . ولذلك فإن قضية الحريات الدينية لم تكن أبداً مشكلة في تركيا ، وأصبح الهاجس الأكبر الآن هو الخوف من عودة ماضي الخلافة الإسلامية .

وبالإضافة على ما تقدم ، فإن هناك من أنصار مدرسة المؤامرة - ولست منهم - من يرى أن معظم رجال حزب "الاتحاد والترقي" والذين كانوا وراء إنشاء تركيا الحديثة كانوا من أتباع طائفة "الدونمة" . وهي طائفة من اليهود الإسبان الذين وفدوا إلى تركيا في القرن السابع عشر . وظهر من بينهم "سباتاي زيفي" الذي ادعى أنه المسيح وتبعته جموع وفيرة من اليهود . وعندما ذاع صيته وزاد خطره بدأت السلطات العثمانية في محاكمته ، فآثر السلامة وأعلن إسلامه وتسمى باسم "محمد عزيز أفندي" . ويقال أن إسلامه كان ظاهرياً وأنه ظل

على يهوديته باطنياً ودعا اتباعه (الدونمة) إلى دخول الإسلام كذلك مع بقائهم على دياناتهم الحقيقة . ويقال أن طلعت باشا رجل "الاتحاد والترقي" ورئيس الوزراء كان من هذه الطائفة وكـذا مصطفى كما أتاتورك ومعظم رفاقه . وهكذا ترى هذه النظرية أن العلمانية جاءت في تركيا - في جزء منها - مناهضة للإسلام .

وأيـاً كان الأمر ، فإن ما قد يبدو تشدداً أو تطرفاً في فرنسا أو تركيا باسم العلمانية إنما هـو نتيجة تاريخ خاص لكل منهما ، والمهم ليس هو ما تفعله العلمانية بنا ، ولكن ما نفعله نحـن بالعلمانية . وعندي أن العلمانية تدعو إلى رفض السلطة الدينية أياً كان مصدرها ، وأن هدفها هو حماية الحريات الدينية للجميع دون تمييز .

والله أعلم .

الأهرام: ١٣ مايو ٢٠٠٧

* * * * *

ملحق ٤ :

قرن من عمليات الإبــادة

ريتشارد كابوشنسكي

إن الأنظمـة القومية والسلطوية والكليانية في عصرنا تشترك في نظرة إلى الآخر باعتباره تهديداً يمثل القوى الأجنبية والهدامة . إنها ظاهرة ثقافية عالمية . فليس من حضارة استطاعت مقاومة مرض الكراهية والاحتقار والتدمير الذي تنشره مختلف الأنظمة في مختلف الأرجاء . وإذ يأخذ هذا المرض مداه يتخذ شكل الإبادة المشؤوم الذي يشكل إحدى السمات المأسوية والمتواترة في عالمنا المعاصر .

يستـسهل الـبعض النـزعة الملائمة لاعتبار مختلف فصول تاريخ الابادات كأنها حلقات "غـير مفهـومة" ومعزول بعضها عن البعض . فيرون في كل منها انفجاراً للغضب الجماعي . وبمـا انـه ، وعمـلاً بنظـرية كـارل ياسـبرز حول الخطأ الماورائي ، تلفنا هذه الأحداث بالعار فـنحاول نـسيانها في أسـرع مـا يمكـن وتكليف المؤرخين المتخصصين شؤون البحث في هذه المسألة الدقيقة والمؤلمة .

رغـم ذلـك يكفـي الـتوقف بعـناية عـند بعـض عمليات الغبادة من اجل رفض نظرية الانفجـار اللاعقلانـي . ففـي أساس كل فعل إبادة هناك في الواقع أيديولوجيا كراهية يجري نـشرها في صـورة واسـعة ومنهجـية . إذ سـبقت عمليات الإبادة في كل مرة تحضيرات تقنية طـويلة لا تـتغير يؤمّـنها الجهـاز البيروقراطـي للدولـة الحديـثة . هذا ما سمح لبعض علماء السياسة والفلاسفة من أمثال: زيغموند بومان ووالتر لاكور او حنه ارانت أن يتقدموا بهذا الطـرح المقلـق: أن الحـضارة المعاصـرة تحمـل في طبعها وجوهرها وديناميتها سمات يمكنها ضـمن ظـروف وزمان محددين أن تولّد فعل إبادة . إنها الخلاصة مخيفة وتحذير أخلاقي منذر بالخطر .

لكن متى يبرز خطر كهذا؟ تحديداً في اللحظة التي تحدث فيها قطيعة بين الثقافي والمقدس، أي عندما يضعف أو يختفي البعد الروحي لثقافة ما، عندما يسيطر الخمول الأخلاقي على مجتمع ما فتضمر حساسيته على الفراغ والشر لتختنق وتدخل في سبات.

في النهاية إن الوصية المسيحية التي تتعرض اليوم لأكبر قدر من التجاهل والاستهزاء هي تلك التي تدعو إلى محبة الأخ. لا بد أن العلاقة مع الآخر كانت تثير مشكلة في تلك الأزمنة الغابرة بما أن أحد أقدم النصوص المكتوبة يحتوي على وصية لا لبس فيها: "أحب أخاك كما تحب نفسك" هل يجب الاعتقاد أن رفض الآخر، إن لم يكن شعور العداوة حياله، يشكل سمة متأصلة في الطبيعة البشرية؟ الواقع أن جميع أيديولوجيات الكراهية المعاصرة، القومية والفاشية والستالينية والعنصرية، استغلت نقطة الضعف المتمثلة في استعداد الإنسان لرفض الآخر ومن باب أولى لرفض المجهول وهو شعور نجحت بعض الأنظمة في تحويله عدائية، لا بل استعداداً لارتكاب الجرائم.

لقد اتخذت نتائج هذه الحال المرضية أحجاماً فظيعة في عصرنا هذا الذي زوّد السلطة بنية دولة فاعلة مجهزة بأحدث التقنيات بما في ذلك تقنيات القتل. هكذا برزت ظاهرة الإبادة الصناعية المخيفة.

إن الإبادة عمل إجرامي عن سابق تصور وتصميم، يجري تنظيمه وتنفيذه بصورة منهجية بهدف القضاء على جماعات مدنية يتم اختيارها وفق معايير الجنسية أو العرق أو الدين.

لقد عرف القرن العشرون تسعة فصول من الإبادة على الأقل (وكلمة "فصل" ليست الأفضل لأن هذه المجازر دامت لوقت طويل) وهي بالترتيب الزمني، مذبحة الأرمن على يد تركيا الحديثة (١٩١٥ - ١٩١٦)، القضاء على ملايين الفلاحين الأوكرانيين بواسطة التجويع على يد النظام الستاليني (١٩٣٢ - ١٩٣٣)، إفناء سكان نانكي وضواحيها على يد

الاحتلال الياباني (١٩٣٧ - ١٩٣٨)، محرقة يهود أوروبا التي ارتكبها النازيون (١٩٤١ - ١٩٤٥)، قتل ملايين الهنود المسلمين والهندوس عند تقسيم الهند (١٩٤٧ - ١٩٤٨)، ملايين الضحايا الذين سقطوا من جراء الثورة المعروفة بالثقافية والتي قادها نظام ماو تسي تونغ في الصين في السنوات ١٩٥٠ و١٩٦٠، تدمير الشعب الكمبودي (١٩٧٥ - ١٩٧٨)، القضاء على قسم كبير من شعب تيمور الشرقية بواسطة الجيش الاندونيسي والميليشيات الموالية لاندونيسيا ابتداء من العام ١٩٧٥، تصفية جماعات التوتسي على يد نظام الهوتو في رواندا عام ١٩٩٤.

هذه اللائحة ليست كاملة إذ كان القرن العشرون، بالإضافة إلى ذلك، غنياً بالأحداث الشبيهة ولكن يصعب تصنيفها بشكل جازم، خصوصاً في السودان وسيراليون والبلقان.

إذا بحثنا عن المعايير والقواسم المشتركة في متاهة الجرائم والأكاذيب والأحقاد هذه لبرزت معنا بعض الصفات المشتركة.

فجميع عمليات الإبادة ليست نتاج ثقافة واحدة إذ ارتكبتها بلدان تنتمي إلى دوائر ثقافية متنوعة. وهذا ما يبرهن على سخافة القول بوجود ثقافة معينة تتمتع باستعداد وراثي لارتكاب مجازر الإبادة.

هناك رابط واضح بين الحرب والإبادة، فجميع الحالات التي ذكرناها حصلت في جو من الحرب أو التهديد بالحرب.

لم تحصل أي عملية إبادة في بلد تسوده الديموقراطية، وتبدو هذه حتى الآن الحاجز الوحيد الفاعل في وجه نزاعات الإبادة.

كل تخطيط لعملية إبادة قامت بها السلطة بدأت بتدمير صورة العدو أو الضحية المقبلة في أوساط رعايا هذه السلطة. وكلما كان العدو المشار إليه موجوداً في قلب المجتمع المعني - داخل العائلة أو القرية أو المدينة أو الجماعة - ما بدا خطيراً. فهو يعيش تحت السقف

نفسه وقادر تالياً على إضرام النار في البيت ودس السمّ لساكنيه . إن عدوا بعيداً ومجرداً لا يتمتع بصفات مميزة يسهل تخيلها وتكون مخيفة بحيث تدفع إلى ارتكاب المجازر .

يمكن أن يكون العدو متحدراً من أصول مختلفة - طبقة أخرى أو ديانة أو إثنية أخرى - لكن لجهة الدعاية تلصق به دائما صفة واحدة هي "عدو الشعب" . طوال القرن العشرين نظر إليه على أنه تهديد للوجود القومي ويمثل الخطر الأعظم .

و يلاحظ البروفسور زيغموند بومان في مؤلفه "الحداثة والمحرقة" إن نزعة الإبادة وجدت في التقدم التكنولوجي سنداً لها حيث يسمح هذا التقدم بارتكاب عملية القتل عن بعد ، وليس باليد مما يحرر المحرضين من الندم المحتمل . لكن هذا النمط ليس عمومياً إذ أعطى منظمو الإبادة في رواندا عام ١٩٩٤ الأوامر عن قصد إلى ميليشياتهم بالقتل ليس بواسطة الأسلحة الاوتوماتيكية بل بالساطور . إن الذبح باليد يعزز على الصعيد الرمزي تماسك صفوف القاتلين .

وفي كل حال من الحالات يسبق الوصول إلى المجزرة والى إبادة الجماعة المضطهدة حقبة من العذاب والتجويع والإذلال والإرهاب ليشعر الضحايا بأن الموت يصير نوعاً من أنواع الرحمة والخلاص .

أخيراً وفي جميع الحالات أيضاً يجري تحضير عملية الإبادة وتنفيذها في إطار اجتماعي تسوده أزمة اقتصادية وسياسية وأخلاقية عميقة ، في لحظة يكون فيها الضمير الديني متوارياً والمشاعر ضامرة وقدرة التمييز بين الخير والشر معدومة .

لقد شكل مرض السلطة المعاصر المتحول في حالاته القصوى إلى الإبادة ، موضوعاً لمئات الكتب وآلاف الأبحاث وكمية كبيرة من الوثائق . يظهر من قراءة هذه المواد أنه يتم بحث كل عملية إبادة ومراقبتها على حدة ، يصار إلى وصفها بطريقة موضوعية طبعاً لكنها تدرس كعنصر مستقل لا علاقة له بجرائم أخرى مماثلة . لكن في الوقت الذي تتميز فيه هذه

الفصول الشائنة بخصوصيتها - مثل الطابع الاستثنائي للمحرقة النازية - فإن دوافع الجريمة وآليتها يتضمنان صفات مشابهة . وخصوصاً أن كل فصل منها لا يطاول فقط مجموعة معينة من الأشخاص - دينية أو إثنية أو اجتماعية أو خلقية - بل يشكل كارثة جماعية تطال المجتمع بأكمله . إنها هزيمة كبرى للنزعة الإنسانية وخطأ يقع على عاتق جميع أهل الأرض .

إن التقويم التحليلي والشامل للقرن العشرين يجعل منه عموماً قرن النظامين الكليانيين ، الفاشية والشيوعية ، وقرن الحربين العالميتين . انه قرن اوشويتز وهيروشيما . في المقابل ، لا نجد أي تأكيد انه كان قرن عمليات إبادة - مهما كانت القارة أو الحقبة أو الثقافة التي حصلت ضمنها - متكررة ، مصممة ومنظمة على أيدي حكومات قائمة أدت إلى عدد هائل من الضحايا الأبرياء في أغلب الأحيان . بالفعل فان مجازر القرن العشرين تسببت بعدد ضحايا يفوق ضحايا الحروب العالمية . أما الدمار الماضي الذي تسببت به فيصعب عموماً تقويمها .

لماذا نرفض النظر إلى زمننا على انه يولّد بشكل دوري ومنهجي يصعب فهمه هذا النوع من الجرائم الكبيرة؟ لماذا لا نبحث عن العلاقات الواضحة المعالم بين الإبادة التي تسببت بها ثورة ماو تسي تونغ الثقافية وإفناء ملايين السكان في كمبوديا ومئات آلاف الضحايا من الراوانديين؟ كل هذه الأحداث وقعت في الفترة نفسها ضمن قريتنا الكونية ، عالم الاتصالات الفاعل والمعقد والمزود قدراً مفرطاً من المعلومات ، كرة أرضية تحت الرقابة المشددة لشبكة من الأقمار الاصطناعية وحشد من موظفي المنظمات الدولية . . .

أليس التبسيط القائم على وصف كل عملية إبادة على حدة كأنها منفصلة عن تاريخنا الغاشم وتحديداً عن شطط السلطة في أماكن أخرى من العالم ، أليس هذا التبسيط وسيلة لتفادي الأسئلة الفظة والأساسية المتعلقة بعالمنا وبالأخطار الجاثمة فوقه؟ إن فصول الإبادة إذ توصف ويحدد لها مكان على هامش التاريخ والذاكرة ، لا ينظر إليها كجزء من تجربة

جماعية وكامتحان مشترك يجمعنا كلنا .

هناك نتيجة مؤسفة أخرى: فغالباً ما يجهل الناس ضمن حضارة وقارة معينة انه يصار إلى إبادة جماعة أو شعب آخر فوق قارة أخرى ضمن دائرة ثقافة أو إثنية أخرى . حتى جريمة من قياس المحرقة النازية يتم تجاهلها في أفريقيا أو الهند . فالجرائم المرتكبة داخل بلد محدد لا تعني سوى ضمير هذا البلد ونادراً ما تصل أصداؤها نحو ثقافات أخرى .

إن السلطة وخصوصاً الدولة التي ترتكب عملية الإبادة تفلت من العقاب بشكل كبير . وتمثل محاكمة نورنبرغ استثناء جرت خلاله محاكمة قسم ضئيل من المجرمين النازيين . يحدث أحياناً أن يجلس موظف دولة في قفص الاتهام . لكن عموماً يضعف العقاب كلما كانت مرتبة المجرم عالية في الدولة . يمكن أن يصل سفاح صغير إلى حبل المشنقة لكن يصعب الوصول عموماً إلى جلاد عالي المقام . تلك هي نقطة الضعف في نظام العدالة الدولية المتميزة بهشاشتها وتناقضها وانتهازيتها .

نادرة هي الحالات التي يعترف فيها مسؤولو دولة بأنهم دبروا عملية إبادة . ويشكل الألمان الاستثناء الذي يثبت القاعدة . ففي غالبية الحالات الأخرى تنكر السلطة أي اتهام بالإبادة أو أنها تحافظ على صمت متصلب . فالحكومة التركية لا تزال حتى اليوم تنفي تعرض مليون ونصف مليون ارمني للقتل في بلادها تحت الحكم العثماني . الحكومة الروسية تسكت عن موت عشرة ملايين فلاح أوكراني . حكومة بيجينغ ترفض الاتهام بالقضاء على عشرين مليوناً من مواطنيها في الستينات .

والأكثر إحباطاً هو ضياع الرأي العام واللامبالاة الأخلاقية والعجز عن مواجهة الشر . فنعتاد على هذا الأخير إلى درجة يفقد في نظرنا ما يحمله من إنذار . فبعدما حمل الصفات الشيطانية صار منذ زمن طويل أمراً معتاداً يتخذ مظهراً غير لافت يخدعنا بطابعه العادي ويذوب تماماً في يومياتنا .

وإذا كـان الشر في الماضي يرجع إلى ظواهر من نوع الانفجار اللاعقلاني أو الفورة غير المفهـومة للغرائـز العمـياء أو الـتعطش المحموم للثأر ، فانه بات يظهر أكثر فأكثر على شكل تنظـيم بـارد ومخـادع ، فـصرنا نـتحدث عن "الإجرام المنظم" و"اللاشرعية المنظمة" و"الجريمة المنظمة" الخ .

وبمـا انـه لا يـوجد أي آلـية أو حاجـز شرعي ، مؤسساتي أو تقني ، قادر على مواجهة أعمـال الإبـادة الجديـدة بـشكل فاعـل ، فـان مواجهـتها تكـون بالمعنويات المرتفعة للأفراد والمجـتمعات: الـضمير الروحـي الحـيّ ، الإرادة القـوية لعمـل الخير ، التطبيق الدائم والمتنبه للوصية القائلة: "أحب أخاك كما تحب نفسك! " .

نشر المقال في لوموند ديبلومايك الفرنسية عدد مارس ٢٠٠١ .

* * * * *

مصادر الدراسة:

أولا كتب بالعربية:

* معجم ألفاظ القرآن الكريم - إصدار: مجمع اللغة العربية (الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث) - مصر - ١٩٩٠.

* الإسلام ومستقبل الحضارة - الشيخ الدكتور صبحي الصالح - دار الشورى (لبنان) - دار قتيبة (سوريا) - الطبعة الثانية - ١٩٩٠.

* الثقافة الإسلامية وحواضرها - أمين مدني - دون ناشر - مصر - ١٩٨٠ - من صفحة ١٨٧ - ١٩٢.

* الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود - د. مراد هوفمان - تعريب: عادل المعلم ويس إبراهيم - الناشر: مكتبة الشروق الدولية - مصر الطبعة الأولى - ٢٠٠١.

* تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس: بحث في الملكة العلمية عن طريق تاريخ علم واحد في بلد واحد - تأليف: الأستاذ الدكتور حسين مؤنس - تقديم: الأستاذ الدكتور محي الدين صابر - الطبعة الثانية ١٩٨٦ - الناشر: المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ومكتبة مدبولي - القاهرة.

* الإسلام العدو: بين الحقيقة والوهم - تحرير: يوخين هيبلر وأندريا لويج - ترجمة: أيمن شرف - الناشر: الفرسان للنشر والتوزيع - مصر - سنة النشر ١٩٩٤.

* إبليس - عباس محمود العقاد - كتاب الهلال - مصر - ١٩٦٧

* معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية - بدوي أحمد زكي - بيروت - مكتبة لبنان - ١٩٩٣.

* موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" - تأليف وإشراف الدكتور عبد الوهاب

المسيري – دار الشروق مصر – ١٩٩٩.

* صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية حول العالم – مجموعة من الباحثين – وزارة التربية والتعليم السعودية – سلسلة كتاب المعرفة – عدد ١٢ – الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

* التسامح – دكتور عصام عبد الله – أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي – طبعة خاصة بمكتبة الأسرة – مصر – ٢٠٠٦.

* القاموس القويم للقرآن الكريم – إبراهيم عبد الفتاح – مجمع البحوث الإسلامية – مصر – ١٩٩٦.

* الاعتصام – أبو اسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي – الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م – بيروت – دار المعرفة.

ثانيا: مقالات وتقارير إخبارية بالعربية:

* وثيقة المدينة المنورة – وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان – علي بولاج – مجلة حراء – تركيا – عدد ٣ – أبريل/ يونيو) ٢٠٠٦.

* فاتح عبد السلام – شعوب وقبائل: ركيزة الانفتاح علي الآخر في العقل الإسلامي – مقال – جريدة الزمان اللندنية – العدد ١٧٣٤ – ١٧ – ٢ – ٢٠٠٤

* دكتور حمدي شعيب – تحسين العلاقات مع الآخرين – مقال – مجلة المجتمع الكويتية – عدد ٢٠٠٤/٨/٧

* متاهات المفاهيم عند تعريف الثقافة: شيشر أول من سمي الفلسفة ثقافة الروح – عدنان المبارك – مقال – جريدة (الزمان) اللندنية – العدد ١٥٦٤ – ٢٠٠٣ – ٧ – ٢٣.

* تعدُّد تعريفات مفهوم الثقافة – مقال – جريدة الرياض السعودية – ٢٩ – ١ –

٢٠٠٦ - إبراهيم البليهي.

* الحجاب يثير جدلا جديدا في أوروبا وأميركا - الجزيرة نت ١٠ / ١٠ / ٢٠٠٣

* ارتـــداء الحجاب في المدارس: قضاة جبناء وخيبة أمل مرة - جريدة القدس العربي اللندنية - ٢٥ / ٩ / ٢٠٠٣

* ألمانيا: محكمة الدستور تجيز لمعلمة مسلمة ارتداء الحجاب - جريدة الشرق الأوسط اللندنية - ٢٥ / ٩ / ٢٠٠٣

* "رافـــاران" يؤيد سن قانون يمنع الحجاب - هادي يحمد - إسلام أون لاين. نت - ١٧/ ١٠/ ٢٠٠٣

* فرنـــسا والحجـــاب: كلاكـــيت مـــرة ثانية: طرد شقيقتين محجبتين من مدرستهما في بـــاريس يعكـــس الـــصعوبة والغموض التي يواجهها الفرنسيون في علاقتهم مع الدين الإســـلامي - تقريـــر - ميـــشال موتـــو - موقع ميدل إيست أون لاين الإخباري على الانترنت - ٢٠٠٠٣ - ١٠ - ١٥

* شـــيراك يقـــول إن الحجاب الإسلامي في المدارس "عدواني" - تقرير لوكالة رويترز للأنباء - ٥ - ديسمبر ٢٠٠٣

* رد فعـــل سويسري على الحجاب في ألمانيا - وكالة الأنباء الفرنسية سويس إنفو - ٢٦ / ٩ / ٢٠٠٣ - تامر أبو العينين.

* فرنسا: الكنيسة تؤيد الحجاب دفاعاً عن الحريات الدينية - آرليت خوري - جريدة الحياة اللندنية - ١١ / ١١ / ٢٠٠٣

* تقرير إخباري - الجزيرة نت ١٠ / ١٠ / ٢٠٠٣

* تقريـــر لـــوكالة رويتـــرز للأنـــباء - موقـــع وكالـــة الأنباء السويسرية (سويس

إنفو) - ٨ - ١٢ - ٢٠٠٣

* العلمانية الفرنسية مشكلة وليست حلاً - مقال - رفيق عبد السلام (باحث في جامعة وستمنستر - لندن) - جريدة الحياة اللندنية - ٢٤ - ٩ - ٢٠٠٣.

* نصف الفرنسيين لا ينتمون إلى أي كنيسة: من هم هؤلاء الذين لا دين لهم؟ - دومينيك فيدال - لوموند ديبلوماتيك - سبتمبر ٢٠٠١

* قضية الحجاب في فرنسا أو معركة بواتييه الثانية - مقال - الحسن السرات - نقلا عن مجلة العصر الإليكترونية - ws .alasr .www

* ثقافتنا وثقافة الآخر - مقال - دكتور عامر ملوكا (أستاذ جامعي /ملبورن/استراليا - نقلا عن موقع: http: //www. kaldaya. net

* * مسألة الآخر - خالص جلبي - مقال - جريدة الشرق الأوسط اللندنية - ٢ - ١ - ٢٠٠٢.

تقارير من موقع القسم العربي لإذاعة الدويتشه فيلله http: //www. dwelle. :de/arabic

* تقرير عن صورة الإسلام على قناتي التلفزيون الألماني - ٣ - ٣ - ٢٠٠٧.

* قضية الحجاب أمام محكمة الدستور الاتحادية - منى صالح

* المحكمة الدستورية العليا تسمح للمحجبات المسلمات بالتدريس إذا لم تمنع قوانين الولايات ذلك - اسكندر الديك.

* ردود الأفعال على قرار السماح بارتداء غطاء الرأس في المدارس الألمانية - ينس توراو - ترجمة: حسن آل بلال

* القضاء الألماني يعيد إلى التدريس معلمة ألمانية ترتدي غطاء الرأس - تعليق: بيتر

فيليب – ترجمة: حسن آل بلال

* ولايتان المانيتان تقرران سن قانون يمنع تحجب المعلمات المسلمات – إعداد: اسكندر الديك – ١٢ / ١١ / ٢٠٠٣

ثالثا: مقالات بالإنجليزية:

* The French Experience from Republic to Monarchy, 1792 - 1824 - Jeff Horn, Manhattan College - France Review Vol. 4 (March 2004), No. 26

* Liberty, fraternity and brutality - article - Daily Telegraph - 22/05/2005

* Heads, you lose - article - TIMES - June 11, 2005 - Ruth Scurr

* The Terror: Civil War in the French Revolution - article - June The Sunday Times - 19, 2005 - BY ANDREW ROBERTS.

* Let them eat dirt - article - Adam Thorpe - Saturday July 2, 2005 - The Observer.

* * * * *

ممدوح الشيخ.... سيرة ذاتية

الاسم: ممدوح محمود محمد الشيخ علي

الشهرة: ممدوح الشيخ

تاريخ الميلاد: ١٤ / ٨ / ١٩٦٧

الجنسية: مصري

* عضو منظمة "كتاب بلا حدود" (ألمانيا).

* وردت له ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين". (مؤسسة البابطين – الكويت).

* وردت له ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم أدباء مصر" (الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر).

* * * * *

أعمال إبداعية منشورة

١ – نـقـوش على قبور الشهداء (ديوان شعر).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر .

الطبعة الأولى ١٩٩٦ .

الطبعة الثانية ٢٠٠٣ .

طبعة إليكترونية على nasihri. net – ٢٠٠٤ .

طبعة إليكترونية على . com Diwanalarab. – ٢٠٠٤ .

٢ – عاصمة للبيع (مسرحية).

دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة – دولـة الإمارات – ٢٠٠٠ .

٣ – هو المستحيل (قصيدة شعر).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – ٢٠٠٣ .

طبعة إليكترونية على . nashri.net – ٢٠٠٣ .

٤ – الحلم المسروق (ديوان شعر بالعامية).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – ٢٠٠٣ .

٥ – الندى والموت (ديوان شعر).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – ٢٠٠٣ .

طبعة إليكترونية على . com Diwanalarab. – ٢٠٠٤ .

طبعة إليكترونية على – . nashri.net – ٢٠٠٤ .

٦ – القاهرة.. بيروت.. باريس (رواية)

الدار العربية للعلوم – بيروت – ٢٠٠٦ .

* * * * *

كتابات نقدية تناولت أعماله

* "ممـــدوح الشيخ وعماد أو صالح شعاعان من شمس شعر تشرق"، منشور في: "كتابة: رؤى وذات" - صافي ناز كاظم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر - ٢٠٠٣ .

* "مقاربـــات نقديــــة في شعر ممدوح الشيخ" - تألـيف الأساتذة: رمضان أبو غالية - صبري عبد الرحمن - أحمد مرسال - سامح القدوسي - إصدارات نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا - مصر - ٢٠٠٤ .

* "المـــسرح الإقليمي بين حضور المضمون وغياب الشكل" - الدكتور أيمن الخشاب - دراسـة منـشورة في: "الأدب والأيديولوجـــيا" - أبحـاث المؤتمـر الأدبي السابع لإقليم غرب ووسـط الدلـتا الـثقافي - إصدارات إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي - الهيئة العامة لقصور الثقافة - وزارة الثقافة - مصر - ٢٠٠٦ .

* رسـالة ماجستير عن مسرحيته عاصمة للبيع في جامعة جنت البلجيكية للمستشرقة البلجيكية ماريكي فان كرايسبليك - ٢٠٠٦ . (قيد الترجمة)

* * * * *

مؤلفات أخرى منشورة

١ – أشهر الأحلام في التاريخ مكتبة ابن سينا – مصر – ١٩٩٣.

٢ – المسلمون ومؤامرات الإبادة مكتبة مدبولي الصغير – مصر – ١٩٩٤.

٣ – التنبؤات والأحلام من الخرافة إلى العلم دار التضامن – لبنان – ١٩٩٦.

٤ – الإسلاميون والعلمانيون من الحوار إلى الحرب

الطبعة الأولى – دار البيارق – الأردن – ١٩٩٩.

الطبعة الثانية – مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع – الأردن.

٥ – البابا شنودة والقدس: الحقيقي والمعلن خلود للنشر – مصر – ٢٠٠٠.

٦ – الشعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟

(طبعة إليكترونية – e - . kotob. com – ٢٠٠٢).

٧ – مقاربـــات نقدية في شعر رمضان أبو غالية (بالاشتراك مع الأساتذة: صبري عبد الـــرحمن، أحمد مرسال، سامح القدوسي) من إصدارات نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا – مصر – ٢٠٠٤.

٨ – الجماعـــات الإســـلامية المصرية المتشددة في آتون ١١ سبتمبر: مفارقات النشأة ومجازفات التحول – مكتبة مدبولي – مصر – ٢٠٠٥.

٩ – حـــرية التعـــبير بـــين القانون العادل والقاضي الظالم – منشور في: بحوث مؤتمر "الأدب وحـــدود حرية التعبير" – فرع ثقافة المنوفية – إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي – الهيئة العامة لقصور الثقافة – وزارة الثقافة – مصر – ٢٠٠٦.

* * * * *

أعمال أعدها للنشر أو حررها

اكتشف وأعاد نشر رواية: "اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن" للمغامر المصري حافظ نجيب، وهي الرواية التي اقتبس عنها المسلسل التلفزيوني المصري الشهير "فارس بلا جواد". وقد قدم لها وألحق بها دراسة عن حياة مؤلفها.

١ - اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن (إعداد للنشر).

الطبعة الأولى - ١٩٩٦ - دار الحسام - لبنان - مصر.

الطبعة الثانية - دار الانتشار العربي - بيروت - ٢٠٠٣.

٢ - حرر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" - ٨ مجلدات - لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري - دار الشروق - مصر - ١٩٩٨.

٣ - حرر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" - لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري - نسخة ميسرة ومختصرة (مجلدان) - دار الشروق بمصر بالاشتراك مع مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات - ٢٠٠٤.

* * * * *

أعمال تحت الطبع

١ - العلمانية والدين: اقتراب جديد - دار التضامن - لبنان.

٢ - القصة القصيرة المصرية: النشأة - التطور - التمرد - دار الشرق الأوسط - سراييفو.

٣ - (ترجمة) فرنسا في القرن التاسع عشر (١٨٣٠ - ١٨٩٠) - تأليف: إليزابيث لاتيمار.

٤ - الوصايا.

٥ - الشعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟

٦ - الأقباط والدولة والغرب: من الصياد ومن الفريسة؟

* * * * *

دوريات نشرت دراساته ومقالاته وقصائده:

جريدة الحياة (لندن) - جريدة القدس العربي (لندن) - مجلة الغد العربي (لندن) - مجلة النور (لندن) - جريدة المسلمون (لندن) - مجلة مراصد (لندن) - جريدة المستقلة (لندن) - مجلة الكلمة (لندن) - جريدة الاتجاه الآخر (هولندا) - جريدة الأيام العربية (قبرص) - مجلة الشاهد (قبرص) - مجلة رسالة الجهاد (مالطة) - مجلة الرائد (ألمانيا) - مجلة الدليل (ألمانيا) - مجلة الإسلام وفلسطين (ألمانيا) - مجلة القلم (أمريكا) - مجلة الصراط المستقيم (أمريكا) - مجلة الرشاد (أمريكا) - جريدة الوطن (أمريكا) - جريدة الوفاق (إيران).

جريدة البيان (الإمارات) - مجلة تراث (الإمارات) - مجلة منار الإسلام (الإمارات) - مجلة المنتدى (الإمارات) - مجلة شؤون اجتماعية (الإمارات) - جريدة العالم الإسلامي (مكة المكرمة) - المجلة العربية (السعودية) - مجلة الفيصل (السعودية) - مجلة الحرس الوطني (السعودية) - مجلة كلية الملك خالد العسكرية (السعودية) - مجلة الآطام (السعودية) - مجلة أبعاد (السعودية) - جريدة الجزيرة (السعودية) - جريدة اليوم (السعودية) - مجلة الوعي الإسلامي (الكويت) - المجلة الخيرية (الكويت) - جريدة الرأي العام (الكويت) - جريدة الفنون (الكويت) - مجلة قرطاس (الكويت) - مجلة التقدم العلمي (الكويت) - مجلة الفرقان (الكويت) - مجلة الهداية (البحرين) - جريدة الشرق (قطر) - جريدة الاتحاد (العراق) - جريدة اليومية (العراق) - جريدة البلد (لبنان) - مجلة الفكر الجديد (لبنان) - مجلة الوحدة الإسلامية (لبنان) - مجلة المحجة (لبنان) - جريدة الاستقلال (فلسطين المحتلة) - جريدة فلسطين (فلسطين المحتلة) - جريدة التجديد (المغرب) - جريدة الصحافة (السودان) - جريدة الثورة (اليمن) - جريدة الغد (الأردن).

مجلـــة المختار الإسلامي (مصر) – مجلة المنار الجديد (مصر) – مجلة حوارات المستقبل (مصر) – مجلة منبر الشرق (مصر) – جريدة الشعب (مصر) – جريدة الأسبوع (مصر) – جريدة مصر (مصر) – جريدة صوت الشعب (مصر) – جريدة الأحرار (مصر) – جريدة العربي (مصر) – جريدة الجمهورية (مصر) – مجلة مراجعات (مصر) – مجلة البداية (مصر) – جـــريدة القاهرة (مصر) – جريدة المصري اليوم (مصر) – جريدة نهضة مصر (مصر) – جريدة الدستور (مصر) – جريدة اللواء الإسلامي (مصر) – جريدة آفاق عربية (مصر) – جريدة الرسالة الجديدة (مصر).

* * * * *

جوائـز

حاصل على جوائز عديدة عن إبداعه في الشعر والمسرح داخل مصر وخارجها منها:

* جائــزة مؤسسة "اقرأ الخيرية" – مصر – المسابقة الثقافية للشباب لعام ١٩٩١ – المركز الثالث في مجال الشعر.

* جائــزة مؤسسة "اقرأ الخيرية" – مصر – المسابقة الثقافية للشباب لعام ١٩٩٢ – المركز الثاني في مجال المسرح عن نص ما زال مخطوطا.

* جائــزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "المجلس الأعلى للثقافة" – مصر – ١٩٩٩ – عن قصيدة "نقوش على قبر شهيدة".

* جائزة "الإبداع العربي" من: "دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة" بدولة الإمارات العربية المتحدة في مجال المسرح (المركز الثاني) عام ٢٠٠٠ – عن مسرحية "عاصمة للبيع".

* جائــزة "أحمــد فتحي عامر" في مجال الشعر (المركز الثاني) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة" – مصر – الدورة الأولى – ٢٠٠٣.

* جائــزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الرواية (المركز الثالث) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة" – مصر – الدورة الثانية – ٢٠٠٤ – عن رواية "القاهرة – بيروت – باريس".

* جائــزة أفــضل قــصيدة (المركز الثاني) من "نادي جازان الأدبي" بالمملكة العربية السعودية في المسابقة الثقافية لعام ١٤٢٣ هجرية – عن قصيدة "بقصائدي ويقيني".

* * * * *

مساهمات أخرى

- مقرر أمانة الدعوة والتثقيف بحزب العمل (١٩٩٣ – ١٩٩٦).
- أحد مؤسسي حزب "الوسط المصري" (١٩٩٨).
- باحث في "المركز الدولي للدراسات" (١٩٩٨ – ٢٠٠١).
- يشرف على تحرير الصفحة الدينية بجريدة الدستور – مصر (٢٠٠٥ –...
- شارك في تأسيس "مركز المستقبل للدراسات والأبحاث" – مصر (المدير التنفيذي – سابقا).
- عضو "المنظمة المصرية لحقوق الإنسان".
- عضو "رابطة الأدب الإسلامي".
- رئيس نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا (٢٠٠٥ –....
- عضو نادي الأدب المركزي بفرع ثقافة المنوفية (٢٠٠٥).
- عضو مؤتمر "أدباء مصر في الأقاليم".
- عضو الأمانة العامة لمؤتمر "أدباء مصر في الأقاليم" (٢٠٠٦) (٢٠٠٧).
- عضو أمانة مؤتمر إقليم وسط وغرب الدلتا الثقافي (٢٠٠٧).
- منسق "حركة حماية حقوق الناخب" (حماية).
- قُدِمت ورقته الفكرية: "ماذا أعطى الإسلام للبشرية" في أول مؤتمرات "اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم" (لندن – نوفمبر ٢٠٠٢).
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والثقافية في مصر ولبنان وليبيا والإمارات.
- شارك في عشرات البرامج التلفزيونية الثقافية والسياسية في مختلف القنوات

الفضائية المصرية والعربية وأهمها:

إقـــرأ – العالم – دريم – المحور – MBC – شبكة الأخبار العربية ANN – قناة التنوير – القناة الثقافية – قناة الأخبار – المجد – الحرة – نيو تي في – أوربيت......

E - Mail: mmshikh@hotmail. com mmshikh@maktoob. com

* * * * *

الفهرس

مقدمــة ٥
الباب الأول: ثقافة رفض الآخر.. ١١
الفصل الأول: ثقافة رفض الآخر في القرآن الكريم ١٢
أنا خير منه.. ١٥
التخلص من الآخر.. ٢٠
الآخر كمشكلة أخلاقية.. ٢٣
ويمكننا أن نحدد أهم سمات ثقافة رفض الآخر على النحو التالي:.................. ٢٨
الفصل الثاني: التنويـر الأوروبـي والتأسيـس الحديـث لثقافة رفض الآخر ٣١
تمهيد:... ٣٢
الثورة الفرنسية ملهما للطغاة.. ٣٣
الثقافة الدهرية ٣٥
من الحياد إلى الإلحاد.. ٤٠
الوجه الآخر للثورة: لنتذكر فاندي.. ٤١
حرية . . إخاء . . . ووحشية ٤٨
الأيديولوجيا وثقافة رفض الآخر: ٥٨
المدنيون الذين قتلتهم الحكومات خلال القرن العشرين:................................ ٥٩
أصول الإبادة الجماعيةِ في القرن العشرين:... ٦١
الشيوعية والنازية:.. ٦٣
العقيدة الاقتصادية والقتل السياسي: ٦٩
الفصل الثالث: صورة الإسلام والمسلمين في الغرب كنموذج لثقافة رفض الآخر.......... ٧٣
الإسلام ذلك المجهول: ٧٧
من نماذج ثقافة رفض الآخر: صورة الإسلام والمسلمين في مناهج الدراسة الغربية: ٧٨
صورة العرب والمسلمين في المناهج الأمريكية: ٨٠
الويل للمنصفين: ٨٦

صورة العرب والمسلمين في المناهج الفرنسية:.................................... ٨٩
صورة الإسلام والمسلمين في إسبانيا: ٩١
صورة الإسلام والمسلمين في ألمانيا: ٩٢
صورة العرب والمسلمين على شاشة هوليود:.................................... ٩٤
تغييب العرب الأمريكيين.................................... ٩٧
الفصل الرابع: الجذور المعرفية والفكرية للموقف الأوروبي من الإسلام.................... ١٠٩
البداية من ألمانيا:.................................... ١١٢
القانون أم الضمير؟ ١١٤
الحرية الدينية وحياد الدولة: ١١٧
من ألمانيا إلى فرنسا:.................................... ١٢٢
الحجاب ومبادئ العلمانية:.................................... ١٢٨
الباب الثاني: ١٣٠
في نقد ثقافة التسامح ١٣٠
الفصل الأول: ١٣١
ماذا يعني التسامح؟.................................... ١٣١
الفصل الثاني:.................................... ١٣٧
التسامح مع اليهود كنموذج للقمع باسم التسامح ١٣٧
الفصل الثالث:.................................... ١٤٨
من الكراهية إلى الإبادة.................................... ١٤٨
معسكرات الاعتقال . . . . والإبادة: ١٥٤
الباب الثالث: ١٦٣
الإسلام وثقافة قبول الآخر ١٦٣
الفصل الأول: ١٦٤
في معنى الثقافة.................................... ١٦٤
تمهيد:.................................... ١٦٥

الفصل الثاني: ١٧٥
يا أيها الناس ١٧٥
الفصل الثالث: ١٨٢
الإنسان بين النظرتين الدينية والمادية ١٨٢
الفصل الرابع: ١٨٩
معالم ثقافة قبول الآخر في مجتمع المدينة ١٨٩
الذميون أو أهل الذمة في الإسلام: ١٩٤
خاتمة ١٩٦
ملاحق ٢١٤
وثيقة المدينة ٢١٥
لنتذكر فاندي ٢٢٠
العلمانية والحجاب التركي ٢٢٥
قرن من عمليات الإبادة ٢٣١
مصادر الدراسة: ٢٣٨
أعمال إبداعية منشورة ٢٤٤
كتابات نقدية تناولت أعماله ٢٤٥
مؤلفات أخرى منشورة ٢٤٦
أعمال أعدها للنشر أو حررها ٢٤٧
أعمال تحت الطبع ٢٤٧
جوائز ٢٤٩
الفهرس ٢٥٣

* * * * *